محمود السعدنى

لا القضيّة

بقلم

محمود السعدنى

دار الهلال

الغلاف بريشة
الفنان : محمد طراوى

الفيحاء

آه ياعبد الوارث يابن بهانة ، جاءك الفرج أخيراً ، وانفتحت لك طاقة فى السماء ، ومن يصبر ينول يابن بهانة ، ولم يصبر أحد فى العالم مثلك ، ولاشرب أحد المر مثلك ، ولا خاب أحد خيبتك ، ولا داخ أحد دوختك ، وأنت منذ نفضتك أمك من بطنها فى كفر الغناوة وأنت تخرج من مطب لتقع فى دحديرة ، وتخرج من دحديرة لتسقط فى بئر ، فى البداية كنت تقف تتفرج على أسرة الخواجة مخالى ريس الأنفار وكأنك واقف على جمر النار ، واللقم تنكسر بين أصابع أسرة مخالى ثم تنغمس ، إيش جبنة وإيش عسل وإيش طعمية سخنة وإيش فول غرقان فى الزيت ، أنت واقف يابن بهانة تبتلع ريقك الذى نشف وتدعك عينيك التى أغلقها العماص ، والنار تأكل قلبك ياعبدالوارث عندما تأتى صينية الشاى لأسرة الخواجة مخالى وعليها أكواب الشاى ، أكواب زجاج تبرق كالبنور ، وفى كل كباية ملعقة ، وعلى سطح كل كباية تعوم أعواد النعناع الأخضر تغطس فى القاع مع تقليب الملعقة ومايحدثه هذا التقليب من رنين ولا مزيكة فرقة حمزة التى كانت تزور الكفر بين الحين والحين فى الأيام الخوالى قبل أن يزول الخير من البلاد .

آه ياعبد الوارث على حظك المهبب ، لم يعان أحد مثلك من الجرب الذى أكل جلدك ، والدمامل التى عششت على وجهك كالدبان ، حتى نفيسة التى شعرت يوما بحبها وحلمت يوما بالزواج منها ، نفيسة خطفها حميدة الأقرع وسافر بها الى الخليج ، ويقولون فى الكفر إنها تعيش هناك كما الملكة فريدة ، تركب الأتومبيل ، وتشترى الخضار بالصندوق ، وتجلب معها كل سفرية صندوقا من الذهب الرنان .

ولكن كل شىء له نهاية ياعبدالوارث ، وفرج الله جاء أخيراً .. وكل شىء

بميعاد ، وفى جيبك الآن عقد عمل فى الخليج بخمسين دينارا كل شهر .. وكل دينار بعشرة جنيهات ، خمسميت جنيه كل شهر ياعبدالوارث .. والبت نعيمة التى تعلق قلبك بها أخيراً ، لن يخطفها منك أحد بعد اليوم .

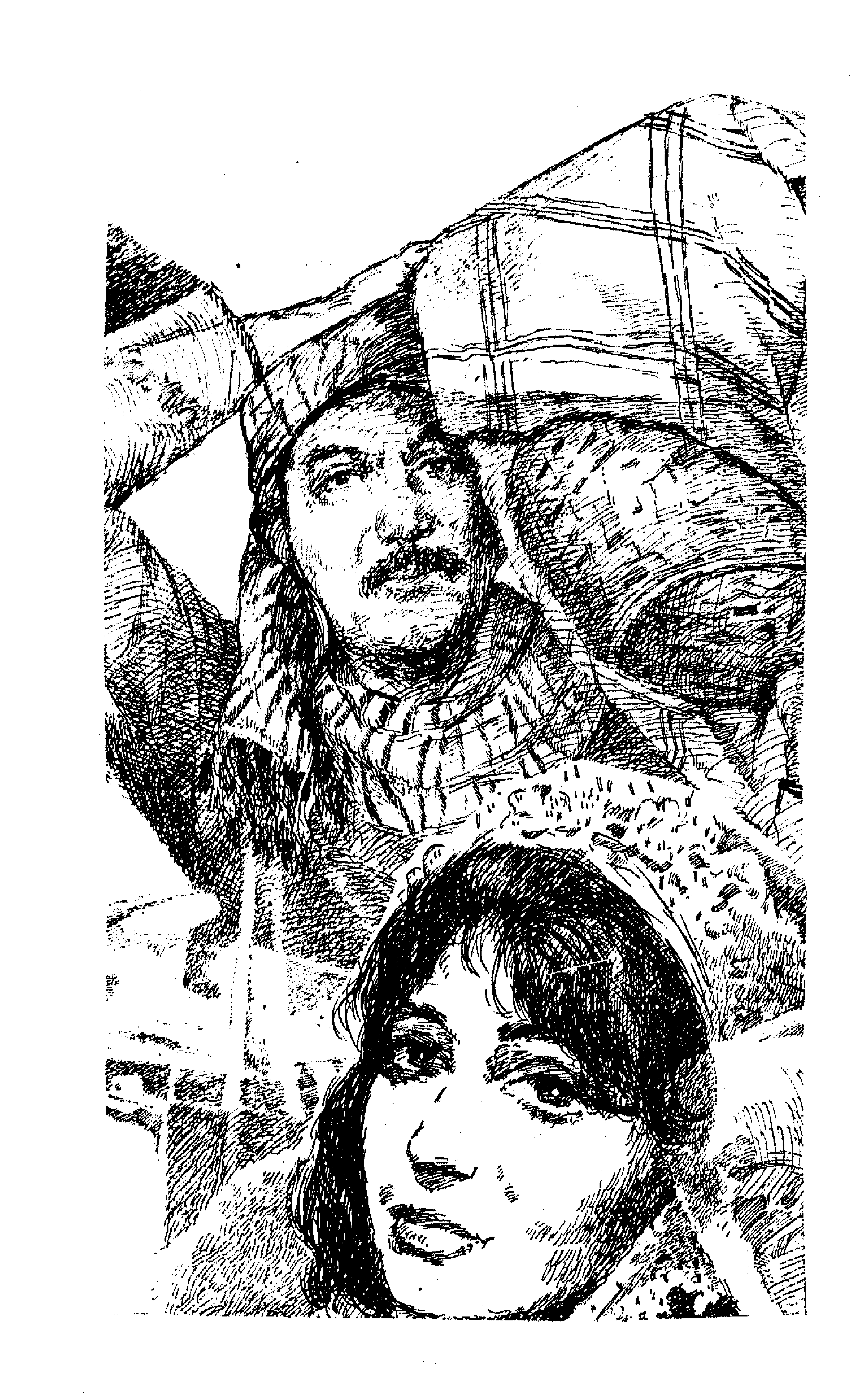
ستبقى نعيمة على اسمك حتى تعود ، ففى جيبك عقد بخمسميت جنيه ، وماهية الوزير فى هذه البلاد الفقر تلتميت جنيه لاتزيد ، دعوات أمك قعدتلك ياعبدالوارث .. ولكن مفعولها تأخر كثيراً والعيال الذين كنت تتأفف من مصافحتهم سبقوك الى هناك وبنوا بيوتا من الطوب الأحمر على شاطىء الترعة ، والبنت بخاطرها الفلاحة أصبح لديها ثلاجة تبرد المية وتحفظ الأكل .. بقى عندها آكل بنت المديوب .. وكله كوم والولية خضرة العرجة كوم آخر .. صارت تغسل هدومها فى الكهربة .. الله يرحم زمان ، كانت لاتستطيع أن تغسل هدومها فى الترعة ، لأن الزحام كان على أشده عند الحجارة .. ولم يكن لخضرة ظهر ولابطن ، لذلك كانت تذهب مع المقشفين أمثالها وتغسل هدومها فى المصرف ..

معلهش ياعبدالوارث ، الناس كلها اتعدلت بالهجرة ، أحياناً للعمل ، وأحياناً للمصاهرة ، والكل انعدل حاله فى كفر الغناوة إلا حالك .. كما الفرع المايل ، والله يقطعه ويقطع سنينه محمد أبو دراع يعيد ويكرر فى مذهب من موال (الفرع لو مال مين يعدله تانى) أصابنى موال أبو دراع باليأس والاحباط وجعلنى أكره الدنيا ومافيها ، كذاب أبو دراع ، ومووالى طق حنك ، وهاهو الفرع المايل يعود للاعتدال ، وتحسس عبدالوارث جيبه ، فى هذا الجيب ينام عقد العمل بخمسين دينارا كل شهر .. ستعود من الخليج يوما ما فتبنى دارا على حرف الترعة لن يكون مثل دار فاطمة العورة أو خضرة العرجة ، ستبنيها ياعبدالوارث على قراطين .. على ثلاثة قراريط ، وسيكون بها مقعد مثل مقعد العمدة ، وقاعة للشتاء ، وغرف للنوم ، وستبنى أعلى السطح فرنا للخبيز .

قطع افكار عبدالوارث صوت الميكروفون يعلن عن اقتراب موعد إقلاع الطائرة الى الخليج ، وحاول أن يقترب من الباب ، ولكن يدا غليظة امتدت إلى قفاه وصفعته مرتين وأمرته فى حزم .. مش كده ياحمار ، خليك فى الصف .

من ربع قرن وكلما نهره أحد وصفه بالحمار ، مفيش مرة ياحصان أو يابغل أو ياجمل أو حتى جحش ، حمار على طول .. ثم ماذا جناه الآن لكى يصفوه بالحمار .. إن الميكروفون هو الذى أمر الناس لتتقدم نحو الباب لأن الطائرة على وشك الطيران ..

الحمار هو الذى زعق فى الميكروفون وليس الذى سارع بتلبية النداء ..



ولكنها الدنيا حظوظ ومزاجات !

عندما طارت الطائرة فى الجو أصاب عبدالوارث الذعر ، ولولا الملامة لفقع بالصوت ، ولكنها بعد أن حلقت فى العلالى واستوت على بساط الريح ، خفت حدة قلق عبدالوارث ، وألقى نظرة من النافذة عبر السماء الواسعة .. ياقوة الله .. سبحانه .. حديد يطير فى الهوا .. جلت قدرته ، وعفشه هل هو حقيقة فى الطائرة ؟ أم سيرسلونه فى الباجور ؟ وهذه البنت المقلوظة المبتسمة ، لو يضرب الحظ معاك ياعبدالوارث فى إمارة الفيحاء وتتزوج واحدة من هؤلاء ، مصيبة سيدات الكفر إنهم مثل الغربان ، وإذا تزوجت صارت كالبومة ، وإذا حبلت وولدت اصبحت كالذئب الجربان .. النسوان مثل التى فى الطائرة يحتفظن بشكل السنيورة إلى آخر العمر ، السبب فى نوع الأكل الذى يعشن عليه ، هذا الجلد المشدود من أكل البسكويت والجبنة الرومى ، يقولون إن الجبنة الرومى تشفى من الأمراض .. والدكاترة فى بلاد الخواجات صنعوا من الجبنة الرومى دواء يشفى من كل الأمراض ، ولكن .. لأن قليل البخت يلقى العظم فى الكرشة .. فقد حرموا على عبدالوارث هذا الدواء عندما تقيحت لوزه وضربت الحمى فى سقف حلقه ، كتب له الدكتور حقنة بنسلين كل يوم ، ولكن أول حقنة زرقت فى جلده شعر بعدها بأن بيتاً وقع على نافوخه فأصيب بالاغماء ، وعندما أفاق وجد نفسه فى المستشفى وقالوا له عندك حساسية ومحرم عليك أخذ البنسلين بعد الآن ، طول عمرك فقرى ياعبدالوارث ولابصيص من النور فى سكة الحياة ، ولكن من يدرى ؟ ربما دكاترة مصـر حمير أيضاً ، ولأن فى الفيحاء دكاترة خواجات ، وسيصفون له البنسلين لا محالة فلا يطوله العيا بعد الآن ، تجرأ عبدالوارث وألقى نظرة على الأرض ولكن أين هى الأرض ؟ لا أرض هناك ولا يحزنون ، فضاء بعد فضاء ، وهواء بعد هواء ، وهذه المسخوطة كيف تعرف الطريق إلى هناك ؟

وتصبح مصيبة لو تأهت بنت الفرطوس فهوت فى البحر أو تحطمت على الجبال ، أو ظلت طائرة فى الجو على الدوام ، ياخيبتك ياعبدالوارث التى ليس لها مثيل فى أى مكان .. أغلب الظن أن هذا هو الذى يحدث ، وقلبه يحدثه بأنه حتى لو هبطت الطائرة فسيجد ان الفيحاء قد اختفت وستعود ياعبدالوارث إلى مصـر ياامولايا كما خلقتنى لا فلوس ولا أحلام !

واهتزت الطائرة بشدة ، فانتزعت الهزة قلبه من مكانه ، وأمسك بالمقعد بكلتا يديه ، ثم شاهد دخانا ينبعث فانقبض قلبه وكاد يزعق بالصوت الحيانى طالبا النجدة ، الأكيد أنها حريقة شبت فى الطائرة وسيموت عبدالوارث قتيلا ومحترقا ، ونهار أبوه أسود من زفت الطريق ، وشب عبدالوارث على مقعده فاكتشف أن الدخان مصدره سيجارة ، لابد أنه مجنون ابن مجنونة ، هذا

الراكب الجبان يشرب دخان فى طائرة تمشى فى الفضاء بالبنزين ، لعنة الله عليه ، راكب حمار ، ولكن لماذا لم يشخط فيه أحد وينهره ويصفه بالحمار ؟

آه .. لأنه لابس بدلة على سنجة عشرة وفي عنقه كرافتة وفي يده كتاب ، ونفذت إلى أنف عبدالوارث رائحة عطر قوية ، وعندما التفت وجد المضيفة تتمخطر على مهل بجوار مقعده ، فأوما إليها ، فلما اقتربت منه كاد ينام من شدة تأثير العطر الذى يفوح من جسمها الريان ، وهمس للمضيفة بهواجسه وأشار الى الراكب الذى يشعل سيجارة فى هذا الوقت العصيب ، ولكن البنت ابتسمت وقال له : تستطيع أن تدخن إذا أردت ، فالتدخين مسموح به الآن .. يابنت الفرطوس .. الدخان مسموح به الآن .. وهو جالس منذ حلقت الطائرة ومخه يكاد ينفجر من قلة الدخان .. لماذا لم تقولوا إن الدخان مباح ؟ لماذا لم يخبره أحد قبل أن يصعد الى الطائرة ؟ لقد رفض الطعام الذى جاءوا به خوفا من أن يحدث اى اهتزاز فتسقط الطائرة بمن فيها على الأرض وتتكسر كما طبق صينى يقذف به أحدهم من أعلى دار فى كفر الغناوة .. لقد ظن فى لحظة من اللحظات انه إذا ملأ بطنه بالطعام ، فقد يضيف عبئا على الطائرة فتسقط من حالق كما تسقط الثمرة الفاسدة من الشجرة .. وهاهى البنت الملعب تسمح له بالتدخين وبتناول الطعام إذا اراد .. وأشعل عبدالوارث سيجارة وراح يدخن فى لذة بالغة ، وراح يلعب فى الزرار الذى يحرك الكرسى .. مرة إلى الخلف ومرة إلى الأمام .. مرجيحة معلقة فى الهواء .. هؤلاء الناس الذين يركبون الطائرات للفسحة هم الذين يعيشون الحياة .. تصور ناس تركب الطيارة دون ان يكون وراءهم شغلة ولامشغلة .. ولكنهم يركبون الطيارة لزوم التصييف والصياعة فى بلاد الله .. الله يخرب بيته عم بيومى خطيب جامع كفر الغناوة جعله يكره الدنيا ويتمنى الموت قبل الأوان .. مع أنه بالتجربة اكتشف أن الحياة حلوة ، والغنى أحسن من الفقر ، والفلوس هى الحياة ، وليست من عمل الشيطان ، والفسحة حرام ، والراحة كفر ، كما يقول الشيخ ، مع أن الشيخ ذات نفسه يحتكم على القرش ويحوز كل عام عدة قراريط من الأرض ، ويشارك الفلاحين على بهايم ، وله حصة فى معمل لبن ، ومتزوج من امرأتين ويعيش معهما فى السر .

ولكن هاهى الحياة تقبل ياعبدالوارث ، ويقولون إنه إذا دارت العجلة فلن يستطيع أحد ان يوقفها بعد اليوم ..

انخلع قلب عبدالوارث والطائرة تحط على أرض مطار الفيحاء .. كل هذه الحمولة تهبط من هذا العلو إلى الأرض .. لابد أنها ستتهبد على الأرض كالطوبة .. وسيعود عبدالوارث إلى مصر أشلاء فى صرة قماش .. ياللهول

على رأى يوسف وهبه ، الطائرة ارتطمت بالأرض ، ثم راحت تجرى كالقردة على الأرض .. ثم يشاء السميع العليم أن تتوقف ثم تعود للحركة ولكن على مهل .. وهاهو الآن فى الأرض الجديدة .. أرض الثراء والأحلام ، وألقى عبدالوارث نظرة على المطار ، والأسفلت يختلف عن الأسفلت فى مصـر ، أسفلت أملس ونظيف .. لاتوجد خرفشة ولاكنبشة ولاحفر ولامطبات ، ولكن هل هذه هى الفيحاء ؟ إنها رمال كالرمال المحيطة بالوادى فى مصـر من كل جانب ، أين البيوت ؟ وأين الناس ؟ لم يجد عبدالوارث وقتا للاجابة على السؤال ، فقد خرج يهرول من باب الطائرة الى المطار مباشرة ، لاتوجد سلالم هنا ولاسيارات ، واندفع نحو اول كشك قابله ليختم جواز سفره ، ولكن نهره صوت حازم من خلفه .. مش كده ياحمار .. حمار تانى ؟

كان صاحب الصوت شاويشاً يعلق على ذراعه ثلاثة اشرطة ، ولكن زيه ليس مثل زى عساكر البوليس فى بلدنا ، إنه يرتدى شيئا اشبه بزى الضباط ، القميص نظيف ومكوى .. وبنطلون من نفس القماش واللون ، ويعلق شرائط ويمسك فى يده تليفونا صغيرا تنبعث منه اصوات دوشة دون ان ينطلق منه صفير !

وجاء دوره ووقف بين الركاب امام ضابط الجوازات الذى ليس ضابطا ولكنه شاويش هو الآخر وعلى ذراعه ثلاثة أشرطة ، ويبدو أن الشاويش فى بلاد برة أعلى مرتبة من ضباط مصـر الذين هم فى المطار .. وتناول الشاويش جواز سفر عبدالوارث وألقى عليه نظرة فاحصة ، ثم سأله عدة أسئلة ، وعندما مد عبدالوارث بوزه من الطاقة المفتوحة ليجيبه على الأسئلة ، دفعه فى جبهته بعنف وأمره بالوقوف محله وعدم التفتفة عند الكلام ، وراح الشاويش يسأله عن سبب مجيئه وعن الجهة التى سيعمل بها ، أسئلة لا معنى لها لأن كل شىء موضح فى الجواز ، ولكن كل شىء يهون ياعبد الوارث من أجل الوصول إلى أرض الأحلام والثراء ..

غريبة ، هذه هى الفيحاء إذن ، لطالما سمع عنها روايات وحكايات كالأساطير ، ولكن هاهى أمامه الآن وليس فيها شىء يختلف عن مصـر ، حتى دكاكين الفول موجودة هنا ، وقهاوى بلدى متناثرة هنا وهناك ، وأفران خبز بلدى كما عندنا بالتمام والكمال ، صحيح العيش هنا يختلف وطعمه ورائحته تفتحان النفس للأكل ، بعكس العيش فى مصـر الذى يسد نفس الجوعان ، ولايعرف عبدالوارث لماذا رسم للفيحاء صورة فى ذهنه قبل أن يراها تختلف عن الصورة التى يراها الآن .. لقد تصور أن الفيحاء هى مدينة كبيرة وبها أشجار تفاح وموز تتدلى منها الثمار ، وكل واحد يقطف منها مايريد ، لاشجر هنا ولاثمر ، ولكن رمال وعمارات وسكك طويلة وعريضة وآخر

جمال ، والشغل هنا أيضاً على مهله ولكن الفلوس كتير والحمدلله .. وعبدالوارث يسمع بالفلوس ولكنه لايراها .. فالخمسون دينارا كل شهر حسب العقد لاتكفى للسكن .. فأصغر شقة بمائة دينار .. ومع ذلك فقد استطاع عمنا عبدالوارث تدبيرها ، فأغلب الناس خصوصا الوافدين يعيشون فى مجموعات ، وكل مجموعة فى حجرة ، وكل حجرة وحسب ظروفها ، وهناك حجرات تتسع لعشرة أشخاص ، وحجرات تتسع لعشرين ، وحظ عبدالوارث العجيب أنه وجد حجرة تتسع لعشرين ، ولذلك كان نصيبه من الأجرة خمسة دنانير كل شهر .. وهو يصرف عشرين دينارا كل شهر على الأكل والشرب .

وكان يستطيع ان ينفق اقل .. لولا ان عبدالوارث نزهى ويعشق اللقمة النضيفة ولذلك فهو يشترى كل أسبوع كيلو لحمة يدعكه فى البصل والطماطم والفلفل الحراق ويضع الخلطة فى ورقة ويضع الورقة فى الفرن ، أكلة تكلفه دينارا كل مرة .. ولكن ماذا يهم ؟ المهم أن يعدل عبدالوارث دماغه باللحم المخلوط بالبصل ، وينام بعد ذلك كما عمدة الكفر حتى الفجر ، ثم ينهض ليعاود الكفاح طول النهار ، وربنا يسترك ياعبدالوارث ويحفظك من عيون الناس ، فهو لديه خمسة وعشرون دينارا كل شهر فى جيبه وكل دينار بعشرة جنيهات ، يعنى معه مرتب وزير كل شهر .. وعينه لاتزال على القيراطين اللى غرب الترعة على السكة العمومى ، وسيبينى دارا لم يشيد أحد مثلها فى الكفر من قبل ، وستكون دار عبدالوارث هى أكبر دار فى الكفر كله .. المشكلة التى تواجه عبدالوارث هى أين يذهب بهذه الفلوس الآن ؟ يرسلها إلى مصـر ؟ لمين ؟ إن الواد عبدالفتاح أرسل نقوده لأخيه ، ولكن اخوه طلع أكولتى .. هبر الفلوس وأنفقها على المزاج ، لم يعد هناك أمامه أحد الآن .. القريب مثل الغريب ، والناس طمعت فى بعضها وتأكل بعضها كالذئاب ، بعض الناس نصحوه بأن يضعها فى البنك .. ولكن البعض الآخر أكدوا له بأن البنوك لاضمان لها ، وأنهم فى البنوك يمارسون السرقة والخطف ، وقد يطمعون فى مالك ياعبدالوارث ويضيع شقاك أونطة وتذهب فى ستين داهية بعد كل هذا الشقاء والمرار .. وأخيرا اهتدى عبدالوارث إلى اكتشاف لم يتوصل له أحد من قبل اشترى سروالا طويلا من السوق ، وهو دائما بلا جيوب ، ولكنه استحدث له جيب سيالة عميق يبدأ من الصرة وينتهى عند الكعب وفى هذا السروال الذى لن يخلعه عبد الوارث على الاطلاق سيضع كنزه الثمين حتى يأذن الله ويعود الى مصـر ..

المهم الآن أن الرحلة بدأت ، وهو لايزال فى منتصف العمر ، فهو لم يتعد الواحد والأربعين ، والدنيا ابتسمت أخيرا ياعبد الوارث وندر عليك إن تحققت

الأحلام أن أهيأ عند الجسر قعدة كالقعدة التى كان يتردد عليها ابراهيم مخالى فى سالف العصر .. وخيوب عليك ياعبد الوارث إذ لم تجلس فيها كل صباح ، وتأتيك الصينية عليها العيش القمح والطعمية السخنة والفول المدمس الغرقان فى الزيت ، وأكواب الشاى التى تسبح على سطحها اعواد النعناع ، ثم فنجال القهوة أبو وش بعد ذلك ، ثم تكعب السيجارة ياعبد الوارث وتتمدد على الدكة فى الشمس .. وعمار يامصـر .

أبــو فــــادى

هاهو العام مر بابن بهانة كلمح البصر ، المقيم هنا كالنزيل فى السجن ، الوقت ينهبه كما ينهب الاكسبريس الأرض .. اليوم ينقضى دون أن تحس ، لأنه يوم بلا أحداث .. صحيان وعمل ونوم وبس ، وابن بهانة لا يبرح مكانه عند البوابة ، فهو حارس عليها ، وهى ليست بوابة ولكنها خرابة كبيرة ، وفى الخرابة سيارات من كل نوع تبع المقاول الكبير الذى يعمل معه ، فإذا كانت السابعة مساء من كل يوم ، أغلق البوابة الكبيرة وربطها بالأسلاك ، وسلم مكانه لشخص آخر لا يجلس مثله أمام البوابة ولكنه يجلس خلفها .

إنه حارس الليل وهو حظه من السماء ، يغلق البوابة وينام طوال الليل ، وله شغلة أخرى فى النهار يلهف منها الشىء الفلانى ، محظوظ هذا الولد مع أنه ليس من مصــر ، يقول إنه من فلسطين .

وابن بهانة نفسه حارب فى فلسطين ذات مرة ، واصابته شظية دانة مدفع ، تركت جرحاً غائراً فى فخذه ، مسكين هذا الغفير الليلى ، فليس فى بلاده أى شىء إلا الرمال والجبال ، لذلك اندهش ابن بهانة عندما وقعت عيناه على فلسطين أول مرة ، وتساءل بينه وبين نفسه : لماذا الحرب على أرض خراب ؟ القومندان كان يقول للجنود إن فلسطين بلاد عامرة مثل مصــر ، ولكنه كذاب بالقطع ، إنهم يكذبون على الجنود دائماً ، وهو فى إمارة الفيحاء تأكد له أن القومندان كان يكذب ، لأن اغلب أهل فلسطين يعيشون هنا فى الإمارة ، لو كانت بلادهم مثمرة لما تركوها ! الغفير الفلسطينى عندما عرف أن ابن بهانة حارب فى فلسطين وجرح هناك انفتح له قلبه ، أحياناً كان يدعوه إلى العشاء ، يتناولانه معاً ساعة التسليم والتسلم ، كان يحضر معه أطعمة لم يرها ابن بهانة من قبل ، فشافيش وتكة ولبنة ، شىء مثل اللبن الرايب فى الكفر ولكنه أفضل ، وكان ابن بهانة يعد الشاى بعد العشاء ، فهو لايستطيع أن يساهم فى هذه العشوات إلا بالشاى والسكر .

ذات عشوة وابن بهانة يرشف الشاى ويكعب السيجارة ، همس لصديقه ابوفادى عن أمنية يريد تحقيقها ، ماذا لو سمح له أبوفادى بالنوم فى الخرابة بعد إغلاقها .. النوم هنا يوفر المشوار إلى الحجرة المعفنة المزدحمة ، ويوفر ـ وهذا هو المهم ـ خمسة دنانير ، يعنى خمسين جنيهاً مصـرياً ، يعنى ماهية مستوظف يجلس على مكتب فى البندر ، ولكن ابوفادى لم يجب بصراحة على هذا السؤال ، فأى غلطة من المقيم فى إمارة الفيحاء قد تكلفه إقامته .. والمصـرى ـ هكذا قال ابوفادى ـ لايهمه كثيراً إذا طردوه خارج الحدود .. فهو يعود مرة أخرى الى بلده .

ولكن .. أين يذهب أبو فادى ؟ اليهود أولاد الكلب احتلوا البلاد ، وأهله جميعاً هاجروا إلى كل مكان ، ولو طردوا أبوفادى من الفيحاء ، فنهار أبوه أزرق ، ونهار عيلته أزرق من الكحل ، ولكن من الذى سيكتشف أن ابن بهانة ينام فى الخرابة .. إن صاحب الشغل لم يره أحد من المقيمين حتى الآن ، والمهندس اللبنانى المسئول عن السيارات لايحضر إلا بعد الضحى والشمس مرعرعة فى السماء .. ولكن من يدرى ؟

ربما تأتى الطوبة فى المعطوبة ، وعندئذ لاينفع عذر ، ولاتشفع توسلات ، وحتى لو كانت الكارثة ستحل على رأس ابن بهانة وحده لهان الأمر .. ولكن الحياة هنا فى (الفيحاء) تجرى على نظام السجن ، الحسنة تخص والسيئة تعم ، وبالقطع ستحط الكارثة على رأس ابن بهانة كما تحط على رأس ابوفادى .. وياداهية دقى إذا حدث مثل هذا الأمر ..

اكتفى ابن بهانة بعد ذلك من علاقته بابوفادى بالصداقة ومشاركته العشاء أحياناً .. ولكن وكما يحدث فى مسلسلات التليفزيون حدثت المفاجأة لابن بهانة .. ذات عشوة قال ابوفادى بدون مقدمات :

لسه عاوز تنام هون ياعبدالوارث ؟

لم يصدق ابن بهانة أذنيه ، ففتح فمه من شدة الدهشة ولم يتكلم .. استطرد ابوفادى قائلاً :

ـ عندى اقتراح .

لم يتكلم ابن بهانة وواصل الصمت ، وقال ابوفادى :

ـ احنا ما بنسوى شىء فى شغلة بالليل .. بنام وبس ، لو عاوز تنام مافى مانع .. بس على شرط ..

بلع ابن بهانة ريقه .. فماذا يريد ابوفادى مقابل النوم فى الخرابة ؟

هل يريد الخمسة دنانير التى يدفعها فى الحجرة ؟ وماله .. إن النوم هنا أحسن .. وفى الخرابة دورة مياه ستصبح ملك ابن بهانة طوال الليل ، كما أن الجو هنا صحو ، وليس هنا رائحة عرق ولا نتانة من أى نوع .



قطع صوت ابوفادى افكار ابن بهانة عندما قال :
أنا مستعد ماجيش خالص ، انت تحرس قدام البوابة بالنهار ، وتنام وراها بالليل .
وسأل عبدالوارث رفيقه ابوفادى على الفور :
ـ ليه .. انت هتسيب الشغل ؟
ولكن ابوفادى طمأنه قائلاً :
ـ مش هاترك الشغل ولا حاجة .. هنام مع العيال فى البيت .
طب وافرض يعنى .. إفرض .. حد جه ولقانى نايم هنا ، وأنت مش موجود ؟
ـ ولا شىء .. تقول فادى ابنه جه بلغنى إن ابوه عيان فقعدت مكانه ، وأنا لو حد جانى هقول نفس الشىء .

عششت الفكرة فى رأس عبدالوارث .. وفيها إيه ؟ ويابخت من نفع واستنفع .. انت تنام فى حتة نضيفة وتوفر خمسة دنانير ، وابوفادى ينام فى البيت ويقبض كل شهر .

خلالك الجو يابن بهانة ، والخرابة صارت ملكك .. على البوابة طوال النهار ، وفى الداخل طوال الليل . وصنع كانونا لتسوية الأكل وعمل الشاى ، وصارت ورقة اللحمة مرتين كل اسبوع لانه يكتفى الآن بنصف كيلو لحم فقط ، فلن يشاركه فيها احد ونصف الكيلو يكفيه . واحس بالامان وبالاطمئنان ، وصار فى بعض الليالى يخرج كنزه من السروال الطويل ويعد النقود ، ثم يعيدها مرة اخرى الى مكانها فى السروال . لم يكن باستطاعته ان يفعل ذلك فى الحجرة الملعونة . وكان يستيقظ اكثر من مرة فى الليل ليطمئن على الكنز ، فالغرفة مزدحمة واللحم على بعضه واولاد الحرام كتير . اما هنا فينام حتى الفجر ، ثم يستيقظ ويصلى ويعد الشاى ثم يفتح الباب ويجلس مكانه كالمعتاد قبل ان يحضر السواقون لقيادة السيارات .

● ● ●

لعنة الله على النفس خصوصاً عندما تكون أمارة بالسوء .. مضت شهور والحياة تجرى على خير مايرام .. أبوفادى نايم فى البيت وعبدالوارث مقيم فى الخرابة ، والفلوس صارت مكعبشة فى السروال ، وبعض الناس حين ينظرون إليه وهو يخطر فى الجلباب يسيئون الظن به .. ويتصورون أنه مريض ويعانى من ورم فى فخذه ، هذا أفضل على كل حال ، لأنه يجلب له العطف ويبعد عنه العين الشريرة ، ولكن النفس الأمارة بالسوء وسوست له أن يستثمر الخرابة .. ولم لا ؟ فهى براح ومأمونة ، وبها حجرات مهجورة ، يوجد بها بعض فرد الكاوتش القديمة ، وبطاريات مستعملة ، ولكنها لاتمنع من استخدام الحجرات ، وماذا لو أجرها لبعض الوافدين ، خصوصاً إذا كانوا من العب بتاعهم من الكفر أو من النواحى القريبة ، سيكون هؤلاء له

ستراً وغطا ، وبدل خمسة دنانير ... ثلاثة فقط ، لو استطاع أن يغرى عشرة فقط بالمبيت فى الخرابة فسيحصل على ثلاثين ديناراً بثلاثمائة جنيه مصـرى .. كل جنيه ينطح اخوه ، وبدل الدار التى على حرف الترعة فى الكفر ، سيشترى خمسة أفدنة يبنى على قطعة منها بيتا ، ويزرع الباقى موزاً ، الموز يكسب ياما ياعبدالوارث ، والواد عبدالفضيل يزرع نصف فدان موز ويكسب الشىء الفلانى ، ويرتدى الفانلات الكريشة والسراويل الصوف الطويلة والطواقى الوبر ، ويمسك فى يده بعصا كريز يقول للذين لايعرفوه إنه

ورثها عن جده .. جده .. ابن الفرطوس !! كان جده الله يرحمه يستحم فى الترعة مرة كل سنة ، وكان لايخلع الفانلة إلا إذا تمزقت وصارت هلاهيل .. ولكنها الفلوس تصيب الناس بالجنون ، وتجعلهم ينتسبون إلى جدود خرافيين ، معلهش يازهر .

بعد زراعة الفدادين الخمسة ، ستصير ياعبد الوارث من وجهاء الكفر ، وستذهب إلى البندر وتدخل حجرة البيه المأمور وتجلس معه كما يفعل الواد عبدالفضيل ، وتخرج من جيبك علبة الدخان العشرين وتعزم على المأمور وعلى الضباط ، والبنت نعيمة ستعيش كالملكة نازلى وداخل مصـر ، وسيكون على صدرها خمسة ارطال ذهب بندقى عيار ٢٤ ، وفى يديها مثلها ، وخلخال رجلها سيكون فى حجم طشت الغسيل ، ولكنه لم يرسل للبنت فلوساً على الإطلاق ، عيب عليك ياعبد الوارث ، كان يجب أن ترسل حاجة من الفلوس اللى معاك ، وكام هدمة ملونة .. وما أكثر القماش الملون فى إمارة الفيحاء .. سيفعل ذلك بإذن الله ، وسيرسل الفلوس والقماش مع أول مسافر فى الكفر .

دعوة بهانة استجابت لها السماء ياعبدالوارث ، والأعمال اتسعت وعندك فى الخرابة خمسون مقيماً ينامون الليل ، ويخرجون من الخرابة بعد أذان الفجر مباشرة ، والغلة أصبحت مائة وخمسين ديناراً شهرياً ، والفلوس صارت كالرز ، لن تكون ضيعتك ياعبدالوارث اقل من عشرة أفدنة ، بأية حال من الأحوال ، ومن يدرى ؟ قد يبتسم الحظ لك ياعبد الوارث ، فتصبح عمدة على الكفر ، وأنت أصلح من محمد عشوش الذى حضر أربعة عهود ويعانى من الباولينا وعسر الهضم ، ولايحتكم على النصاب القانونى !

صحيح يا عبدالوارث اللى يعيش يشوف كتير واللى يمشى يشوف اكتر ، واللى يصبر يشوف أكتر وأكتر ، وانت صبرت بما فيه الكفاية ، وبالتأكيد فإن طاقة فى السماء انفتحت لك ، والدنيا اقبلت ، وإذا أقبلت باض الحمام على الوتد .

من بين نزلاء الخرابة ولد فلسطينى حدق وعينه مفتوحة ، وناصح كالعفاريت الزرق .. صحيح ان عبدالوارث كان قد عاهد نفسه على أن يكون

النزلاء من كفر الغناوة أو من العب المجاور ، ولكن الشيطان شاطر ، اغرى عبدالوارث بفتح الخرابة للجميع ، وهذا الولد الفلسطينى ارتاحت له نفس عبدالوارث ، فهو ودود وطيب ويكتم السر .. ولذلك قبلت نفس عبد الوارث أن يشاركه ابوياسر عشاءه .

والولد ابو ياسر (الحق يقال) حى وعنده دم ، دفع هو تكاليف الورقة الثانية وجاء معه بشاى وسكر وبن كمان ، فهو يعشق القهوة ويشربها على الريق ، يسمون الإفطار (الترويقة) غريبة .. صنف العرب واحد فى كل بلد ، اللغوة واحدة ، وإن كانت مختلفة قليلاً إلا أنها مفهومة ، وعبدالوارث بعد اسابيع صار يفهم كل اللغات ، لغوة العراقيين صعبة ولكنها ليست اصعب من لغوة أهل الصعيد الجوانى ، لو طابت الحياة فسيأخذ عبدالوارث لفة فى أنحاء العالم العربى ، وسيأخذ البنت نعيمة ويتفرج على بلاد الله وخلق الله ، المهم الولد أبو ياسر بعد أن توثقت صلته بعبدالوارث ، همس له ذات مساء وهم يرتشفون الشاى :

ـ الناس هنا بتكسب ألوف فى لحظة !

ورد عليه ابن بهانة فى استسلام :

ـ حظوظ ياخويا يابو ياسر !

نفخ أبو ياسر بشدة وقال وهو يصرخ فى وجه عبدالوارث :

ـ حظوظ إيه ياتعبان .. العالم اللى بتكسب عندها مخ !

وتساءل عبد الوارث :

ـ آمال احنا عندنا إيه ؟

مد ابو ياسر رجله وقال :

ـ اتكلم عن نفسك بس .

تمطى عبد الوارث وقال لأبو ياسر :

ـ طيب وانت عملت إيه ياشاطر .

رد ابو ياسر فى فتور :

ـ لو ألاقى راجل جنبى اعمل كتير .

وضحك ضحكة طويلة قبل أن يقول عبد الوارث :

ـ مانى جنبك أهه .

وضحك أبو ياسر هو الآخر وهو يقول قبل أن ينهض :

ـ بقولك راجل .

● ● ●

انتهى الحوار ولجأ كلا الرجلين للنوم ، ولكن النوم لم يعرف طريقه إلى عينى عبدالوارث ، ماذا يقصد ابوياسر الله يخرب بيته .. هل يخطط لسرقة

بنك ، البنوك كثيرة فى الفيحاء ، والفلوس فيها على قفا مين يشيل ، ولكن حول البنوك توجد عساكر كثيرة ، وحمار من يقدم على سرقة بنك ، فمصيره الموت حتماً ، فإذا نجا من الموت فمصيره السجن حتى الموت فى الفيحاء ، والحكومة هنا لاترحم أحداً من الغرباء ، إذا كسر إشارة مرور رحلوه الى الخارج ، وإذا اعتدى على مواطن كسروا له ضلوعه وسجنوه .

هل الولد ابو ياسر مجنون ؟ لاشك انه عاقل ، وعقله مرتب ، كما أنه راكز ولايمكن أن يتهور .. إذن ماذا يقصد بكلامه الذى همس به فى قعدة الليل ؟ هل ينوى الاتجار فى الخمر ، الخمر فى الفيحاء ممنوعة ، والزجاجة بالشىء الفلانى .. والطلب عليها شديد ، وهو يسمع ان بعض الهنود يقطرون الخمر فى بيوتهم ويكسبون الألوف ، هل يريد أبوياسر تقطير الخمر فى الخرابة ؟ طيب والنزلاء الذين يقيمون معنا فى الخرابة ؟

وحتى الصباح ، لم يعثر عبدالوارث على جواب يشفى غليله .. آه لو عرف من أبوياسر خطته بصراحة .. ما أحلى أن يصبح الانسان من الأغنياء فى طرفة عين .. لو معه عشرين ألف جنيه لنزل مصر على الفور ونصب من نفسه عمدة على الكفر والكفور المجاورة .

ولكن من أين يحصل على هذا المبلغ دفعة واحدة ، وحتى الاتجار فى الخمر يحتاج إلى وقت ، وسرقة البنوك محفوفة بالمهالك ، وعبدالوارث لن يورط نفسه فى شىء من هذا القبيل .. عبدالوارث سيأكلها بالملح ولن يقبل المال الحرام ، وسيعود إلى مصر مهما طال الزمن ، وسيتزوج من البنت نعيمة ، وسيقيم قعدته عند الجسر فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه الخواجة مخالى فى سالف الزمان ، وسيفطر مثله فول غرقان فى الزيت ، وطعمية سخنة ، وعيش مقمر ، ويحبس بشاى تسبح على وجهه اعواد النعناع .

وعندما تصاعد فى الجو صوت المؤذن يدعو لصلاة الفجر ، نهض عبد الوارث لتنبيه النائمين ، ويفتح البوابة ، ويجلس أمامها فى انتظار مساء جديد .

نعيمة

انتفض كفر الغناوة على زغاريد تتصاعد من بيت نعيمة بنت حنكوش ، كان الصباح لايزال يحبو وفى الجو نسمة طرية والشمس تتسلق الأفق خلف الرياح ، ثم شاع فى الكفر كله أن نعيمة تلقت حوالة من ابن بهانة بألفين جنيه مرة واحدة ، وانه أوصى نعيمة بدفع ألف جنيه عربون لخمسة فدادين ملك الحاج محمد مرزوق ، وشراء اجزاء من جهاز العروسين بالألف الأخرى ، وقيل أن نعيمة اشترت خمسة قناطير قطن لزوم الجهاز .. ولغط الكفر كله فى المساء بأخبار نعيمة وعبدالوارث . وقال شيخ عجوز وهو يجلس مع جماعة على حرف الترعة - لابد ان ابن بهانة قتل واحدا من اهل الفيحاء ، انهم جميعا اغنياء هناك ، واقل واحد فيهم يحتكم على عشرات الألوف .

وصاح احد ابناء الكفر من جيل ابن بهانة :

- ألف جنيه ياعالم عشان شوية عفش ، الله يرحم ابوه كان بينام على قالب طوب .

وقال الحاج عثمان مأذون الكفر :

- الولد مرزوق ياجماعة ، والاعمال بالنيات ، وربنا اعطاه من واسع فهو طيب وابن حلال وكان بارا بأمه .

ولكن الكفر لم يكف عن سيرة ابن بهانة وما جرى له فى الفيحاء ، واشتعلت النار فى الكفر عندما وفد من الفيحاء صادق الأقرع ، واكد للجميع أن ابن بهانة باضت له فى القفص وافتتح لنفسه لوكاندة فى الفيحاء ، لوكاندة مرة واحدة يا ابن بهانة .

الله يرحم امه كانت تنام على السطح اغلب ايام السنة ، وكانت تتغطى ايام الشتاء بغبيط وسخ من الخيش المجدول ، ولكن كيف حصل ابن بهانة



على اللوكاندة ؟ البعض افتى بأنه كان يخدم عند صاحب اللوكاندة العجوز ؟ وكان الرجل وحيدا لا بنت ولا ولد ، وقبل أن يموت اوصى باللوكاندة لابن بهانة نظير قيامه بخدمة الرجل العجوز فى مرضه الطويل ، ولكن البعض قال : الرواية صحيحة ولكن اللوكاندة كانت تملكها امرأة عجوز وليس رجلا ، وانها رغم العجز والمرض كانت شبقة ومتصابية ، وانها وجدت مايطفىء لهيبها فى ابن بهانة الذى لم يقرب امرأة منذ عشر سنوات ، ولكن نعيمة لم تحفل بكلام الناس ، وكانت تتعمد اغاظتهم ، لقد جاءت بالقطن وبالقماش وبعض آوانى النحاس من البندر ودخلت به الكفر على ثلاث عربات نصف نقل ، وامام العربات موتوسيكلان ، وارتفعت فى سماء القرية صوت الكلاكسات واختلطت بصوت الشكمانات المعطوبة وكانت ليلة ليلاء فى كفر الغناوة ، والبنت نعيمة ازدادت حلاوة وازدادت لحما وصارت بهية وعفية ، ولذلك لن تطول عشرتها بابن بهانة ، هكذا افتى عجوز القرية .

– دى عاوزة محرات يابا ، والواد ابن بهانة مقطوع قلبه .

ورد عليه الحاج شلبى بقال الكفر :

– لا واللى زاد وعاد حكاية المرة صاحبة اللوكاندة .

– حاكم عيال مصر هبل ومخبوطين فى عقلهم ، تعرف لو واد من الشام عثر على مرة زى دى ، كان كل اللى وراها واللى قدامها .

ورد صادق فى صوت مبحوح :

– إيش قولتك ، حاكم احنا رخاص .

وتنحنح المأذون ، وقال موجها كلامه لصادق :

– وانت ياواد ماشوفتلكش مرة زى دى ليه ؟

وهتف صادق على الفور :

– حد الله ياعم الشيخ بينا وبين الحرام .

وقال البقال فى لهجة تهكمية :

– بقيت بتعرف الحرام يابن الحرامية ، طيب ادفع اللى عليك .

وقال صادق :

– وانا علىَّ حاجة ؟

وقال البقال :

– دهده ، دانت ماشى من الكفر وعليك فلوس .

وقال صادق فى عصبية :

– يعنى علىَّ كام ؟

ورد البقال وهو ينفض هدومه ويتأهب للرحيل :

- إن كنت ناسى افكرك ، أهو الدفتر موجود !

O O O

استدارت البنت نعيمة وتقلوظت ، واصبحت كالبطيخة الناضجة .. حمار وحلاوة .. وكان من عادتها ان تنزل مرة كل شهر الى البندر لتشترى مستلزمات الزواج .. وهمست خالتى هدية الداية إن الفلوس التى معها تشترى الكفر كله ، وأن نعيمة تنوى الهجرة الى مصر بعد الزواج وعدم الاقامة فى الكفر ، ولعل هذا هو السبب فى ان نعيمة لم تدفع الألف جنيه عربونا للأرض التى اوصى عبدالرازق بشرائها ، فهى لا تحب الارض ولا تحب الكفر ولا تطيق رائحة الفلاحين ، ولديها تشكيلة من زجاجات العطر لم تر خالتى هدية مثلها على الاطلاق ، عطر ليمون وعطر مسك وعطر دم الغزال وعطر الياسمين . وفجرت خالتى هدية قنبلة ، عندما اكدت ان نعيمة خلعت السروال الطويل ابو تكة وارتدت سراويل حرير فى حجم الكف ، وانها شاهدتها مرات عديدة وهى فى هذه الملابس الفضيحة واقفة امام المرآة تشاهد اوراكها الممتلئة البيضاء وبطنها المستديرة وصرتها التى فى حجم الفنجان .

شخص واحد فى القرية كان يكتم غيظه ويتحين فرصة للانتقام من نعيمة ، انه يوسف ابن العمدة الذى سبق له التقدم لخطبة نعيمة وفرحت الأسرة طبعا ولكن نعيمة رفضت بغباء ، والسبب ان يوسف بعين واحدة وضاعت الأخرى فى طفولته بسبب مرض ألم به وترك ندوبا فى وجهه ، لم يصدق يوسف أن نعيمة تذهب الى البندر للتجول فى الأسواق ، لابد أن هناك سرا وراء نعيمة ويوسف سيتعقبها حتى يكشف سرها ..

ويوسف رغم ان أباه لا يمتلك النصاب القانونى .. فإنه يكسب كثيرا .. فالعمدة تقدم فى السن ولم يعد يقوى على العمل فهو يعانى عناء شديدا اثناء المشى ، وركبته اليمنى تزن عليه كلما سار على قدميه ، وهو احيانا يصرخ من شدة الألم ، وقد داخ دوخة الارملة بحثا عن دواء يشفى ركبته من دائها اللعين .. ومن اجل ذلك سافر الى البندر وزار عم احمد المجبراتى ، ثم اكتشف بعد عدة زيارات ان المجبراتى يستنزفه ، وأن حال ركبته يسوء يوما عن آخر ، واضطر ايضا الى السفر مرة الى بنها وعرض نفسه على طبيب عظام فى المستشفى الميرى ، ولكن جهود الطبيب باءت كلها بالفشل ، واضطر أخيرا الى أن يسلم امره ونفسه الى رجل من اهالى الناحية يعالج المرضى بالسحر ، وهو يتردد على العمدة عدة مرات فى الشهر ، ولكن

العمدة لا يشعر بأى تقدم ، ومع ذلك لايجرؤ على طرد الساحر لانه اكد له ان مايشكو منه ليس مرضا ولكنه لعنة من الله لاعمال اغضبت رب السموات ، وسلم العمدة امره الى رب الكون ولزم داره ولم يعد يخرج منها إلا للشديد القوى ، للعزاء أو لعيادة احد المرضى من الاعيان ، وتفرغ يوسف لأداء مهمة ابيه ، صار هو العمدة يقبض على المجرمين ويسلمهم للمركز ، وهو الذى يخاطب البيه المأمور اذا دعت الحاجة ويزور ضابط النقطة ويحرر المحاضر ، ولا بأس من أن يقوم ابن العمدة بكل هذه المهام ، ولكنه يصبح هناك بأس إذا كان الابن ليس سر ابيه ، فالعمدة كان رجلا يخشى الله ، وكان يسير فى عمله بما يرضيه ويرضى الناس ولكن الولد كان نهما وطموحا وشرها ، ولذلك بدأ فى فرض الاتاوات على الناس ، وبدأ من صنف الناس بالغلابة ، ثم بأصحاب الحاجات ، ثم باللئام الذين يطمعون في الحصول على حق ليس لهم ، او الذين يريدون انجاز معاملة لم يحن وقتها بعد ، ثم تدرج ابن العمدة فى فنون الرشاوى حتى وصل فى النهاية الى فرض الاتاوة على المجرمين والاشقياء ، وكان يحدد التسعيرة المطلوبة حسب نوع الجريمة وحجم المسروقات .

ويوسف الآن هو العمدة بالفعل ، والفلوس تجرى بين اصابعه كالرز ، وهو لابد سيصل الى نعيمة مهما كلفه الامر ، واستأجر واحدا من صياع الكفر وهو السيد على ابن هدية لكى يقتفى أثرها عندما تنزل البندر ، وزوده بكل مايلزمه من مصروفات ، حتى الكيف لم يبخل به عليه ، وسرعان ما جاءته الاخبار بأن نعيمة لا تنزل البندر لوجه الله ، ولكن دائما يكون فى انتظارها ولد سواق معه عربية ٧ راكب بيچو تبرق وتلمع على الدوام والولد كما قرر ابن هدية عايق وله قصة شعر تتأرجح على جبهته بإستمرار ، كما انه عريض وطويل ويرتدى ملابس الافندية ويدخن سجاير بفلتر من النوع الفاخر الذى يدخن منه الاعيان والبيه المأمور ، لقد جاءتك فرصة العمر يايوسف ، والبنت نعيمة ستدفع ثمن رفضك غاليا ، وهى إما أن ترضى بك عشيقا فى السر أو ستكون فضيحة تتحدث بها العزب والكفور .

ولكن ماذا لو رفضت البنت نعيمة وتحدت يوسف وفضحته امام الجميع ؟ فى هذه الحالة سيطلق عليها رصاصة ويدفنها فى المقابر البعيدة ، او يسلط عليها واحدا من عرب اجهور يذبحها من الوريد إلى الوريد ويدفن جثتها فى رمال الصحراء ، ولكن ماذا يفعل يوسف بالعاشق بتاع مصر ، الذى يملك سيارة بيچو سبعة راكب ويرتدى ملابس الافندية ، ولابد انه على علاقة

وطيدة ببعض الافندية وبعض الشاوشية ، وربما يكون على علاقة ببعض الضباط ، على أية حال كل شيء مرهون بأوانه يايوسف ، المهم الآن هى الخطوة الاولى ، وهى خطوة هامة ، إذا تمت بنجاح فلن تكون هناك خطوات أخرى سوى العيش فى سعادة والاستمتاع بنعيمة الى آخر الزمان ، اما اذا فشلت ، فكل عقدة ولها حلال ، ودعا يوسف ربه من اعماق قلبه أن يحقق له مايخطط له مع نعيمة ، فهى حرقت قلبه بنت الكلب عندما رفضت أن تكون زوجة له ، فهو ابن العمدة ووحيده ، وعمدة الكفر فى قادم الايام ، ولكن كل شيء سيكون على مايرام اذا احتكمت نعيمة الى العقل وارتضت حبه هذه المرة ، وهى سترضى حتما لانها طموحة ومتطلعة ، وماذا يضيرها اذا حصلت على كل شيء ، تصاحب الواد الافندى بتاع مصر ، وتمد جسر الود مع يوسف فى الكفر ، وتتزوج من الواد عبدالوارث ابن بهانة ، ويتمتع الجميع بفلوسه ، انها صفقة العمر للبنت نعيمة ولن ترفضها على الأطلاق ، فهى بنت كلب مشيها عوج ونيتها سودة ، وهى تحب اللبط وتعشقه . ارتاحت نفس يوسف لهذه النتيجة التى وصل اليها وهو يحدث نفسه قبل أن يأوى الى فراشه لينام ، وعندما وضع رأسه على المخدة لم يستطع النوم ، هاجمته كوابيس واشباح فنهض من فراشه وجلس على الدكة امام الدار والظلام يحيط بالكفر كله ، وليس هناك إلا ضوء النجوم الخافتة ، ولاصوت هناك إلا صوت الذئاب العاوية ونباح الكلاب الجائعة ونقيق الضفادع التى تتكاثر بغير حدود فى كفر الغناوة ، العقدة التى يريد حلها يوسف ابن العمدة هى نقطة البداية ، كيف يبدأ الكلام مع نعيمة وحبل الود مقطوع بينهما منذ رفضت خطبته بنت الكلب ؟ هل يلقاها فى الطريق فيلقى السلام عليها ويصافحها ؟ ولكن لو حدث هذا ستكون هزيمة ساحقة ليوسف ابن العمدة أمام بنت شردوحة لا هنا ولا هناك ، لابد أن تكون البداية عكس ذلك على طول الخط ، لابد أن يكون يوسف فى موقف الأقوى ونعيمة فى موقف المسحوق الذى لا يملك من امر نفسه شيئا ، ثم يعفو يوسف فتصبح له اليد العليا ، ثم تأتى بعد ذلك الملاطفة والمناغشة والكلام ، ولكن كيف ؟ كيف يايوسف يا ابن العمدة ؟ وهل ستجيد رسم الخطة وحبك العقدة ؟ أم ستفشل وتضيع كرامتك بين الناس ؟ ونهض يوسف من مكانه على الدكة امام الدار وألقى بنفسه على الفراش وحاول جاهدا أن ينام ولسان حاله يردد .. اعقلها وتوكل ..

الســـــــــر

.. يموت ابن بهانة ويندفن فى التراب بشرط أن يعرف سر ابو ياسر ، وابو ياسر عينة من البشر لا يبدو على جلد وجهه اى شىء ، وتحتار فى معرفة الحال الذى هو عليه الآن .. هل هو مبسوط ؟ هل هو زعلان ؟ هل هو فى سعادة ؟ هل هو فى شقاء ؟ وهو منذ ان فتح الموضوع مع ابن بهانة لم يعد اليه على الاطلاق ، وكل محاولات ابن بهانة باءت كلها بالفشل ، ذات مساء كان ابو ياسر يعد الشاى وابن بهانة متمدد على الأرض ، والجو حلو ونسمة طرية ـ على غير العادة ـ تهب من ناحية الصحراء ، قال ابن بهانة :

ـ ياسلام لو الواحد يلاقى كنز .

لم تكن أمنية حقيقية ، ولكنها كانت محاولة لجر رجل ابو ياسر لفتح الموضوع من جديد ، ولكن ابو ياسر تجاهل الامر بمعلمة وقال :

ـ هى الدنيا بقى فيها كنوز دلوقت ؟ الكلام ده كان ايام هارون الرشيد .

واستمر ابن بهانة فى محاولته فقال :

ـ طيب ماعندك الواد المهندس اللى ماسك الشغل راكب عربية كشفة ولابس حرير .

ورد ابو ياسر وهو يقلب الشاى فى الكوب :

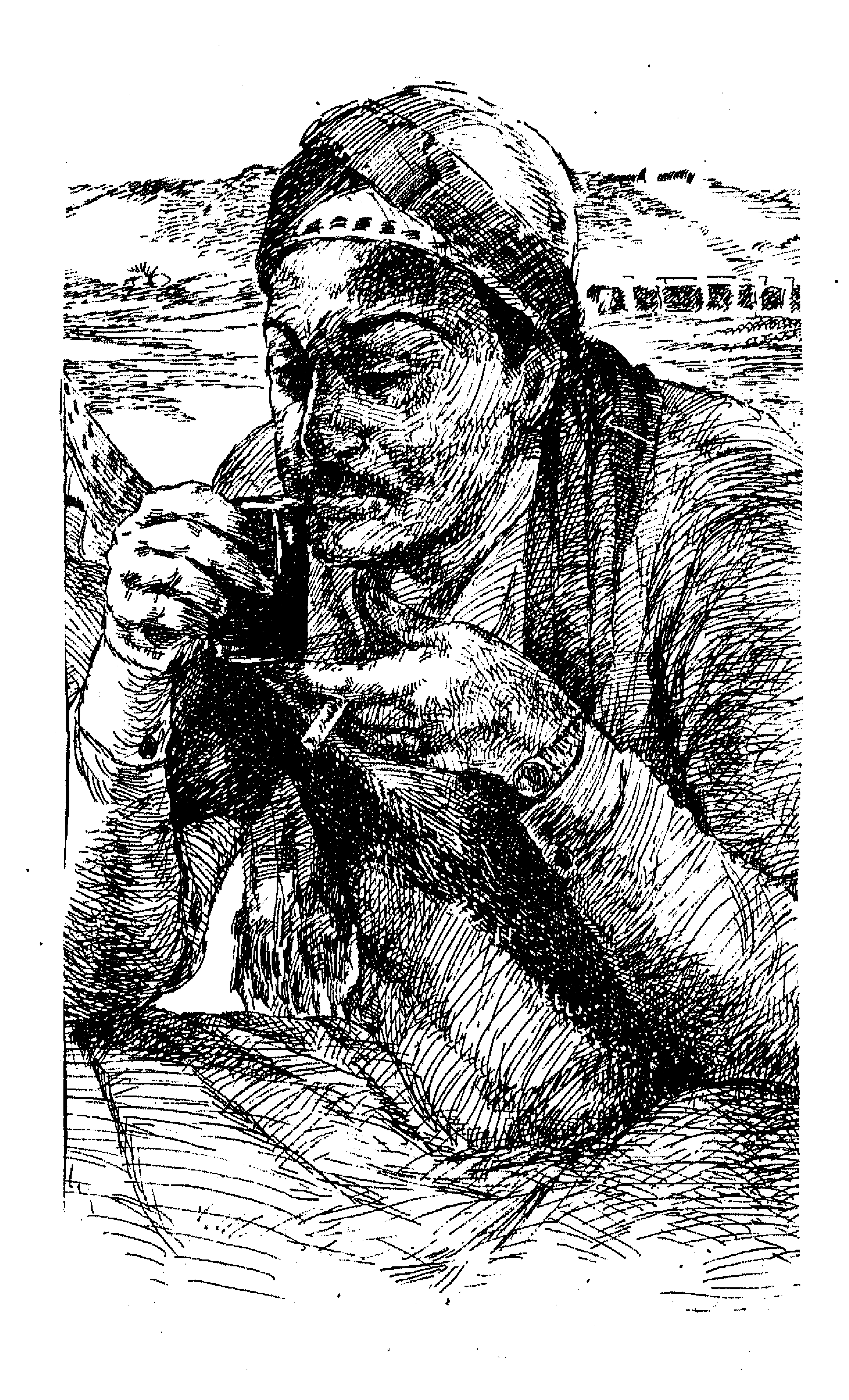
ـ اهو اللى بتقول عليه مهندس ده .. ولا مهندس ولا حاجة .

واعتدل ابن بهانة فى جلسته وقال بحدة :

ـ مش مهندس ازاى .. ده خمسين مهندس مع بعض .

كان ابو ياسر قد انتهى من اعداد الشاى فاقترب من ابن بهانة ومد له الكوب ثم جلس فى مواجهته ، وقال وهو يشفط عدة شفطات متلاحقة :

ـ زى مابقولك انا هادا مش مهندس ولا اى شىء ، هادا زيك وزيى ، على باب الله ، لكن حظوظ !



وبدت الدهشة على وجه ابن بهانة ثم عض على شفتيه قبل أن يقول :
ـ حظوظ ازاى بقى ، يعنى احنا لو حظنا ضرب ، نبقى زى المهندس ده .
ـ ماهو المشكلة مش ممكن نبقى زى ده .
واشاح ابن بهانة بيده وقال فى غضب :
ـ ليه وقعنا من قعر القفه ، ولا وقعنا من قعر القفه .

وكان ابو ياسر قد انتهى من شرب الشاى فتمدد على الأرض واضعا رأسه على راحة يده وقال لابن بهانة :
ـ مش دى القصة ، المهندس هادا بيعمل عمل انت ما تقدر تقوم به .

قال ابن بهانة معترضا :
ـ والله مابيعمل حاجة ، أهو بيجى الصبح شوية يقف يهنكر ، ويأخذ بعضه ويتوكل على الله ، وساعات يطل بعد الظهر ، وادى وش الضيف .
ـ بقولك انت ما تفهمش شىء ، هادا مش العمل بتاعه .
ـ يوه .. أمال ايه العمل ؟
ـ الله وحده هو اللى يعلم .

قالها ابو ياسر وهو يضع رأسه على الأرض كمن يستعد لنوم طويل .
راح ابن بهانة بعد أن داخ فى اكتشاف سر ابو ياسر يسأل بعض الذين فى الخرابة عن اصل وفصل ابو ياسر ، وقال له البعض انه من بير سبع ، واندهش ابن بهانة عندما عرف أن هناك بلدا فى فلسطين بهذا الاسم ، وانه ولد فيه قبل احتلال اليهود له بأيام وعاش فى معسكر لاجئين خارج فلسطين ، ومات ابوه فى احدى الغارات على المعسكر ، فتولت أمه تربيته ، ثم ماتت هى الأخرى وهو فى الخامسة فتولاه بعض الأقارب ، فلما صار حدثا تسلل الى الفيحاء ويعيش فيها منذ ذلك التاريخ ، وش مصايب ابو ياسر هذا ، ضيع بلده وضيع اهله ثم ضيع نفسه بعد ذلك ، ولكن هذه الحياة التى عاشها هى التي جعلت منه هذه الصخرة التى لا تترك الاحداث اى اثر لها على وجهه المشدود ، ولكن كلمة ترددت كثيرا فى حديث الناس حول ابو ياسر هى القضية ، فهذا الولد الشارد الساهم الساكت دائما له قضية ، وهو يعمل من اجل القضية ، ويعيش للقضية ، ومستعد للموت من اجل القضية ، وابن بهانة يفهم هذا الامر ويقدره ، فجده الحاج قطب كانت له قضية ظل يتعقبها من محكمة الى محكمة حتى وصلت الى محكمة البندر امام المستشارين ، وبعد سنوات طويلة من الاطلاع والمرافعة والتأجيل والشطب وإعادة القيد خرجت روحه وهو يصعد سلالم المحكمة ، وحفظت القضية حتى جاء احد الورثة فحركها من جديد ، ولا زالت منظورة حتى اليوم امام

المحاكم وإن كان من المؤكد أن اجيالا كثيرة ستموت قبل أن تصل القضية الى بر الامان !

لابد انها قضية عويصة هذه التى جعلت ابو ياسر يبدو حزينا على الدوام ، ولكن عيب اهل بر الشام انهم ليسوا من النوع الذى يتحمل الصبر ، بعكس اهل بر مصر ، المصرى صبور ، يصبر على الجار السوء حتى يرحل او تحط عليه مصيبة ، ولكن الشامى يتعجل النتائج ، ويثور لأتفه الاسباب ، والواد غسان الشامى الذى يشتغل فى السوق كاد يسبب لابن بهانة كارثة لا يعلم مداها إلا الله ، فذات مساء احضر معه لفافة بها شقف وتبولة ، وغاب

فى المرحاض فترة ، وعندما عاد اكتشف ان اللفافة اختفت وانكر الجميع فى الخرابة انهم عثروا عليها ، وفتش عنها فى كل ركن ولم يجد لها أثرا ، وجلس فى ركن وقد ركبه ألف عفريت والشرر يطق من عينيه ، واشفق عليه ابن بهانة فذهب اليه يطيب خاطره ، ودعاه لتناول العشاء معه ..

قوم ياغسان كل معايا ، انا عامل شوية فول بقوطة حلوين قوى ، ولكن غسان هب كالاعصار ودفع ابن بهانة دفعة تراجع بسببها عدة خطوات .
ـ فول بقوطة ، دا مأكولك ومأكول ربعك ، شو فاكرنى انا حمار زيك .

يخرب بيتك يا غسان ، سريع الغضب سريع الغلط ، ولولا ان ابن بهانة يخاف أن يفتضح امره لدخل فى عاركة مع الشامى المفجوع ولقنه درسا ، وجميع الناس الذين من بر الشام يسخرون من ابن بهانة ويتهمونه احيانا بأنه رمة ، عُبط هؤلاء الشوام لانه صبور وليس مكسورا وصبره من عينة صبر الجمل ، ولا يغضب إلا اذا كان هناك سبب وعندما يأتى الوقت فإن غضبه يزلزل الجبل ، ولكن عيال الشام طيبون ومحبون للمرح ويعشقون الحياة ويعيشونها بالطول والعرض ، وهم مغرمون بالظهور امام الناس بمظهر طيب ولو كلفهم ذلك غاليا . ولذلك هم احيانا يكذبون لايهام الاخرين بأنهم فى افضل حالة ممكنة ، والولد غسان لايكسب كثيرا ، وينام نومة مهببة ، ومع ذلك اشترى فى الجراچ سيارة امريكية طويلة ، وهو يسافر بها الى الشام فى الاجازات ، واجازاته كثيرة لانه يشتغل لحساب نفسه : وعندما يصل الى هناك يتصورون انه من شيوخ الفيحاء ، مع انه على باب الله يشتغل فى السيارات المستعملة ، ويربح مايكفيه ولكن ليس بالقدر الذى يتصوره الغرباء ، وابن بهانة لم يعد الى مصر منذ فترة طويلة ، وكيف يعود والتذكرة بالشىء الفلانى ، ولابد أن يقطع قماش ويشترى شباشب زنوبة ، ويحمل معه كمية من شاى ابو ربيع لزوم عدل المزاج فى كفر الغناوة ، السفر غ امة ومن

الافضل أن يواصل ابن بهانة فى الفيحاء حتى اذا حان الوقت سيذهب الى كفر الغناوة ليشعل النار فى الكفر ويغيظ الواد يوسف ابن العمدة ، الخايب النايب الذى لم يفلح فى صنعة ويعيش تلقيحة على حساب العمدة .

● ● ●

جاءت اللحظة الحاسمة التى كان قد انتظرها ابن بهانة طويلا ، كانت ليلة ليلاء ، هبت فيها (الطوز) وردمت الفيحاء كلها بأطنان من الرمال الناعمة فصار كل شىء فيها ، اصفر بلون الخيار المخلل ، وجاء سكان الخرابة مبكرين ، وعاد الولد ابو ياسر ومعه كيس جوافة وكيس تمر .

ـ جوافة فى الوقت ده ؟

هكذا سأل ابن بهانة صديقه ابو ياسر ، وهو يقلب بين اصابعه حبة من حبات الجوافة التى يفضلها عن كل فاكهة فى الحياة .

ورد أبو ياسر وهو منهمك فى غسل الجوافة :

ـ دى م الهند .

ونظر ابن بهانة اليه نظرة استنكار ، ثم قال :

ـ انت فاكرنى حمار ، هوه فيه جوافة فى الدنيا إلا فى بر مصر ؟

ولم يرد عليه ابو ياسر ، وواصل غسل حبات الجوافة ، فقال ابن بهانة وهو يعض بقسوة فى حبة الجوافاية :

ـ هند مين يابا .. دا انت اللى هندى ، طيب ما عندك الفيحاء اهه ، فيها صنف الجوافة .

كان ابو ياسر قد انتهى من غسل الجوافة ، فجلس الى جوار ابن بهانة ومدد رجليه ، وقال وهو يحدق فى وجه ابن بهانة :

ـ تعرف ياعبدالوارث ، لو معى عشرة مثلك ، بأفتح العالم ، ورد ابن بهانة فى ندرة لا تخلو من سخرية :

ـ ياسلام ، عشرة منى تفتح العالم ؟ دا ولا ابو زيد الهلالى ..

ـ ما يساوى شىء ابو زيد ، هادى حكاوى ، مالها اصل ، لكن المصيبة انك موجود معانا وعايش .

ـ ومصيبة ليه بقى ؟ هيه دى المكافأة اللى خدناها منك ؟

ـ مصيبة لاننا مش عارفين نستفيد منك .

وألقى ابن بهانة الجوافاية على الأرض ، وقال :

ـ طب ماتستفيد ، مانا قدامك اهه .

وهرش غسان فى سمانة رجله وقال :

- ماهو انا خايف يطلع تقديرى مش مظبوط .
- لا مظبوط .. بس اتوكل على الله .

كان غسان قد انتهى من اكل الجوافة ، فقام واشعل النار ووضع كنكة الشاى ، ثم ملأ الاكواب ، وناول كوبا لابن بهانة واخذ كوبا لنفسه ، وزحف حتى صار مجاورا له ، ثم ألقى نظرة فاحصة فى انحاء الخرابة ليتأكد أن كل السكان قد ناموا ، ثم قال بصوت خفيض :

- يعنى انت نفسك تكسب كام ياعبدالوارث ؟

ورد عبدالوارث بسرعة :

- انا مش عاوز اكسب اكتر م اللى باكسبه دلوقت ، انا طالب من الله يحفظها نعمة ، ويكملها بالستر .

ولكزه الولد غسان لكزة شديدة فى ضلوعه وهو يشخط فيه :

- هادا هو الكلام اللى لا يودى ولا يجيب ، يابنى آدم باقولك ماتحب تبقى غنى زى الكلاب هادول ؟

وضربت الكلمة فى نافوخ عبدالوارث ، لقد عاد ابو ياسر الى الموضوع الاصلى الذى حيره كثيرا ، وهى فرصة ليكتشف السر ، فقال على الفور :

- وفيه حد مايحبش يبقى غنى ؟
- آيه اتكلم هيك زى البنى آدمين .

وهرش ابن بهانة فى قفاه قبل أن يقول :

- وهو يعنى كل واحد عاوز يبقى غنى ينول اللى هو عاوزه ؟

وقال ابو ياسر فى حسم :

- لو عنده عزيمة .

وضرب ابن بهانة صدره بيده وقال :

- العزيمة موجودة والحمد لله .
- يبقى اتفقنا ..

وقال ابن بهانة بلهفة :

- على أيه ؟

ورد ابو ياسر فى هدوء :

- على أن العزيمة هيه الاساس .

وقال ابن بهانة فى سره :

- عزيمة ياابن النصابة ، لا تعرف لهم ظهر من بطن اولاد الشام ، عندما تتصور انك عرفته تكتشف انك اصبحت اكثر جهلا به ، لماذا لا يكشف سره

ويخلصنا ابن المديوبية ، والى متى سنظل فى هذا العذاب المكتوم ؟

انتبه ابن بهانة على صوت شخير ابو ياسر يتصاعد فى الجو .. فلكزه فى صدره لكزة قوية بأصابعه ، وعندما افاق ابو ياسر نهره ابن بهانة عن النوم فى الساحة ، ورد ابو ياسر قائلا :

ـ مين قالك انا نايم ؟ هادى تعسيلة .

ـ انت عاوز تودينا فى داهية ، إفرض حد شافنا واحنا نايمين يقول ايه ؟ فاتحينها لوكاندة ؟

وضحك ابو ياسر ضحكة ذات مغزى ، وقال :

ـ شو فاتح انت آمال ، جامع ؟

ـ اهو دا اللى بناخدوا منكو ، شاطرين فى القر يابتوع الشام ، وضرب ابو ياسر الأرض بيده وقال محتجا :

ـ ميت مرة قولتلك انا مش م الشام ، انا من بير سبع ، الشام هايدى دمشق واجوارها .

ـ شوف العبط ، الشام ياجدع انت ، من رفح لحد تركيا ، كلها شام .

ـ هادا فى الاطلس بتاعك انت .

ورد ابن بهانة مستنكرا ..

ـ اطلس مين ، وانا آيه اللى ودانى اطلس دى ؟ انا باقولك على حاجات عارفها انا ، انا جدى لما خدته السلطة فى حرب ١٤ ودّوه على الشام ، هو اللى كان بيحكى لأبويا ، وابويا حكالى انا .

ونهض ابو ياسر وراح ينفض جلبابه وقال لابن بهانة :

ـ على كيفك ، ولا يهمك ، كله شام ، إيش راح يحصل يعنى ؟ وقال وهو ينصرف نحو العنبر الذى ينام فيه :

ـ تصبح على خير .

وشعر عبدالوارث بالغيظ فجره من الجلباب قائلا :

ـ رايح فين ؟

ـ رايح انام ؟

ـ يعنى ماقلتش الواحد يغتنى ازاى ؟

ـ ما انت اللى مش عاوز تعرف ، مش انت قلت ماتريد غير الحال اللى انت فيه والستر .

وقال ابن بهانة وهو يدارى لهفته الشديدة :

ـ ايوه .. لكن برضه مايمنعش إن الواحد يعرف .. واللا حرام يعرف يعنى ؟

وقال ابو ياسر وهو يجر قدميه نحو العنبر :
ـ المعرفة دى مش ببلاش ، هادى تكلف كتير .
ـ الله .. انت حتاجر فيه واللا أيه ؟ هو انتو ماتعرفوش غير التجارة . هوه الكلام كمان بقى بفلوس ؟

لم يرد ابو ياسر على ابن بهانة ، راح يجر قدميه فى اتجاه العنبر ، ولم يلبث أن ابتلعه الظلام .

● ● ●

ولم يذق ابن بهانة طعم النوم حتى شقشق الصبح ، سرح فى كل شىء ، وذهب بعيدا الى كفر الغناوة ، وفكر فى البنت نعيمة التى لابد انها استدارت الآن وأينعت ، يود ابن بهانة لو كان الى جانبها الآن ، ولكن يقطع الفلوس وسنينها ، كلما حصلت على بعضها كلما اردت المزيد ، يشبع الانسان من الاكل ويشبع من الشرب ويشبع من كله ، ولكن الخازوق انه لا يشبع ابدا من الفلوس .

الفلوس تفتح شهية الانسان الى فلوس اكتر ، ابن بهانة نفسه صارت معه فلوس لم يكن يحلم بها فى المنام ، ولكنه يشعر الآن انه افقر من ذى قبل ، لا يشفى غليله إلا اكتشاف سر ابو ياسر واغتراف الكنز معه .

وتذكر فجأة انه لم يرسل نقودا الى نعيمة منذ فترة ، فقرر أن يخطف رجله الى الصراف ليرسل لها حوالة .

ونهض مسرعا لايقاظ الجثث النايمة .. إنه يوم آخر جديد !

أبـــو لحــــاف

أخيرا .. جاء الوقت يا يوسف يا إبن العمدة الذى تستطيع فيه أن تضع أنف نعيمة فى التراب .. ولديه الآن كشف كامل بتفاصيل مشاويرها إلى المدينة ، وعلاقتها بالواد السواق العايق أبو قصة تتدلى على جبينه .

وفوق هذا معه العنوان الذى تذهب إليه ، والبيت الذى تغيب فيه بالساعات ، ومطعم الكباب الذى تتردد عليه وتأكل فيه ، وغير ذلك معه كشف كامل بالفلوس التى أرسلها ابن بهانة لنعيمة من الفيحاء .. حانت فرصة العمر ليوسف ابن العمدة لكى يذل نعيمة كما أذلته من قبل ، وستقبل به صديقا بعد أن رفضته زوجا .. واللى ما يرضاش بالخوخ يرضى بشرابه .

شعر ابن العمدة بهدوء غريب داخل نفسه ، فجلس وانجعص على الدكة أمام الدوار ، وأرسل الخفير ليحضر نعيمة ، ولكن الخفير غاب ، ربما لم يجد نعيمة هناك ، ولكن هذا اليوم ليس يوم سفرها إلى البندر ، لابد أنها تتزوق وتلطخ وجهها بالأبيض والأحمر ، فهى لئيمة وتعلم أن يوسف هو الذى يطلبها فى الدوار .

وانشغل يوسف فى لف سيجارة ، ثم نهض من مكانه وغاب لحظات فى الداخل ألقى خلالها نظرة على نفسه فى المرآة ، الهيئة مضبوطة يا ابن العمدة والعباية على سنجة عشرة ، والشال الكشمير ينسدل على الكتفين فى جلال ، عمدة بصحيح يا يوسف ، والعمدة الكبير مريض وقد يتوكل إلى حال سبيله فى أية لحظة ، وتجلس مكانه يا يوسف وتصبح العمدة الحقيقى .. آخر مهابة واحترام . ولكن المشكلة أن النصاب القانونى ليس متوافرا . والعمدة الوالد رغم ضعفه ومرضه وجهله كان بينه وبين الناس وشائج وصلات ، وكانت الناس فى كفر الغناوة تتودد إليه وتبادر بمساعدته ، ليه ؟ لسر لا يعلمه أحد إلا الله ، وتنازل له أكثر من فلاح عن ملكية أرضه لكى يكتمل له النصاب



القانونى ويتربع على عرش العمدًية ، صحيح أن التنازل شكلى ومن باب الاحتيال ، ولكن هل يرضى هؤلاء أن يتنازلوا ليوسف كما تنازلوا لأبيه ؟ ويوسف طيب وابن ناس وجدع ، ولكن بينه وبين الناس حجاباً ، يبدو أن محبة الناس هى الأخرى حظوظ وأرزاق ، حتى الذين أحسن إليهم يوسف يشعر أن بينه وبينهم جدارا .

لا أحد يحبه فى كفر الغناوة إلا عتريس الخفير وأم خميس الكفيفة ، وهو يشعر بأنه قوى والفضل لأم خميس وتقاريرها التى لاتخر المية ، فهى تدخل بيوت الكفر لتبيع المناديل الحرير والشيلان القطيفة وتزوده بالأخبار .. وأخبارها لاتخر المية . والعمدة الوالد على نياته ، يكره أم خميس ويستنكر العلاقة التى بينها وبين يوسف ، ويتساءل أحيانا فى دهشة .. إيه اللى زنقك على معرفة المرأة اللى زى العقربة دى ؟ على العموم ، هل ينجح يوسف إذا نفذ أمر الله فى أن يحصل على النصاب القانونى لكى يجلس على كرسى العمدًية ؟ على كل حال الوالد له حكمة قديمة يرددها دائما .. بلاش تقدر البلا قبل وقوعه . والرجل العاقل لا يحمل الهم قبل الآوان ، وكل شىء بميعاد ، وقد حل الميعاد الآن لكى تتجرع نعيمة ثمن رفضها ليوسف ، وأمامك الفضيحة يا نعيمة أو الرضا بما قسمت به المقادير ، ويوسف ابن العمدة ليس من هواة الفضايح ، صحيح هو يريدها ويتمناها ، وهى بالقطع ستذعن وترضى ، فهى بنت كلب عينها غليظة ، كما أنها من صنف مفترى ولا يملأ عينها غير التراب . وقطع حبلَ أفكار يوسف مرور فلاح على السكة الزراعية ألقى عليه السلام ، ورد يوسف عليه بالكلمات المعتادة ـ اتفضل .. تعالى خد الشاى .

كلمات ليس لها معنى يرددها يوسف فى اليوم ألف مرة ، ولكن لا أحد يتفضل ولا أحد يشرب الشاى ، حتى يوسف نفسه لم يذق طعم الشاى منذ الصباح الباكر ، فأسعار الشاى أصبحت نارا ، كما أنه لم يعد شايا كشاى زمان نشارة خشب مصبوغة أو أوراق ملوخية أو حفان تبن مغلى مع تفل شاى ، الدنيا كلها أصابها القحط وحط عليها الخراب ، لم يعد شىء على حاله ، حتى نعيمة بنت الفقرية أصبحت ترتدى المحزق والملزق وتدلدل من كتفها شنطة وبها مناديل وأصباغ وأوراق .. أوراق يا بنت حنكوش ؟ وهى لاتقرأ ولا تكتب ولا تعرف الرغيف من الجورنال ! حكمتك يارب .. شقلبت الدنيا لأمر غاب عن علم البشر ، ولسر لا يعلمه إلا رب السماوات .

ثنى يوسف ابن العمدة ساقه على الدكة وجلس عليها ودعك فى الساق الثانية بكلوة إيده ، فهو يعانى من وجع شديد فى الساق أسفل الركبة وفى

الورك بعد الركبة بقليل ، وهو داخ دوخة ينى .. أحيانا بين الأطباء ، وأحيانا بين المنجمين ، ولكن لا أحد اكتشف داءه على الاطلاق ، وهو يعوى من الألم أحيانا خاصة فى ليالى الشتاء .

والأفيون يسكن الألم ، وهو جربه فى حالات كثيرة ، ولكن كل أفيون العالم لم ينجح فى زوال هذا الألم الملعون ، يقال إنها خبطة قديمة خبطها له ولد من الكفر ، كان يلعب معه الحكشة فى الجرن أيام زمان .. أيام كانت هناك أجران فى الكفر ونوارج وسواقى ، لم يعد هناك شىء من هذا كله ، والمكنة تحصد وتدرس فى نصف يوم كل محصول القمح فى هذه الجهات .

اختفت البركة من الدنيا بسبب العجلة التى هى من الشيطان ، ولكن على رأى المثل .. كل عصر وله أذان .. وهذا عصر نعيمة بنت حنكوش وعبدالوارث ابن بهانة ، ولسه اللى يعيش ياما يشوف ، وألقى نظرة على السكة الزراعية فلمح من بعيد شبح الواد الخفير عتريس قادما وحده ، إذا كان هو عتريس فعلا فأين نعيمة هل رفضت المجىء ؟ وإذا كان هذا قد حدث بالفعل ؟ فما هو العمل يا ابن العمدة ؟ وكيف يكون التصرف ؟ بشرط أن تضمن عدم انتشار الأمر حتى لا يصل خبرك إلى البيه المأمور . وخاصة أنه حدق وفهيم وقارش ملحتك ، رغم العلاقات الخادعة التى تربطك به ، وهى أشبه بمداعبة القط للفار قبل أن ينقض عليه . حدق يوسف طويلا فى القادم من بعيد حتى تأكد له أنه الخفير عتريس ، وتأكد له أيضا أن عتريس وحده وليس معه أحد ، ولابد نعيمة رفضت الحضور ، أو لعلها أمهلته حتى تستعد على سنجة عشرة ، وصل عتريس إلى حيث يجلس يوسف على الدكة ثم وقف ساكنا كأنه ممنوع من الحديث ، وبادره يوسف قائلا فى غير اهتمام :

ـ الخبر إيه .. أمال نعيمة فين ؟

ورد عتريس والغيظ يأكل قلبه :

ـ نعيمة مين يا عمدة .. هى دى نعيمة دى السفيرة عزيزة .

وتجاهل يوسف سخرية عتريس وقال فى صوت خفيض :

ـ إيه اللى حصل يعنى ..

ـ الست اتقصعت وقالت .. أنا ما بروحش عند حد .. اللى عاوزنى يجينى ..

وصمت يوسف وزم شفتيه بعصبية ، ثم عض عقلة إبهامه وزام كالذئب الجزع قبل أن يقول :

ـ طيب يا نعيمة يا بنت حنكوش الأقرع .. يبقى نجيبك رسمى بقى إن شاء الله .

ونهض يوسف من مكانه على الدكة وهو يئن من فرط الألم وأشاح لعتريس :

ـ روح أنت شوف شغلك .. اللى يريده ربنا هيكون .

لم يجر الأمر فى هدوء كما اشتهى يوسف ، فالبنت نعيمة فضحية وبنت كلب ، ما أن اختفى عتريس من أمامها حتى وقفت على الباب تكلم نفسها بصوت عال يسمعه المارة والجيران .

ـ عاوز منى إيه بسلامته ؟ قال إيه تعالى كلمى العمدة .. عمى الدبب .. العمدة يا ضنايا نايم على جنبه بقاله شهور .. وهو فاهم نفسه عمدة .. سلامات يا عمدة .. عمدة ايه الصايع الضايع ده .. هو كل من حط عباية على كتفه بقى عمدة .. طب وسيدى عويس لأكون قايلة لشيخ البلد وشيخ الخفر وكل الناس .. ثم أطلقت ضحكة طويلة مموجة رنانة قبل أن تعيد الأسطوانة من جديد .

● ● ●

كانت ليلة ليلاء ليس لها مثيل فى كشف الحياء ، المساء كان رائعا ، والجو لطيفا ، وعبدالوارث ابن بهانة يجلس مع أبو ياسر وطاجن اللحم بينهما ، يفوح بروائح تجعل العقل يشت من مكانه ويتبدد فى الهواء . والواد أبو ياسر يفضفض عن سره شيئا فشيئا ، فهو مشغول بالقضية ، ويشقى من أجل القضية والقضية كبيرة ومتشعبة ومعقدة وتحتاج إلى جهد كل إنسان ، وعندما استقسر ابن بهانة من أبو ياسر عن المحكمة التى تنظر القضية ، ابتسم أبو ياسر ابتسامة ذات معنى وقال له وأصابعه تغوص فى طاجن اللحم .

ـ محكمة إيه يا راجل أنت يا طيب .. القضية تبعنا مش منظورة أمام محكمة .. هادى منظورة أمام التاريخ .

وسرح ابن بهانة فى كلمات أبو ياسر .. منظورة أمام التاريخ ؟ لابد أن دوسيهاتها تفوق الحصر ، والمحامين فيها بعدد شعر الرأس ، ولابد أن تكلفتها عالية ومصاريفها ينوء بحملها الرجال ، وانتبه ابن بهانة على صوت أبو ياسر وهو يلكزه بأصابعه :

ـ أنت ذات نفسك اشتركت فى القضية وساهمت فيها .

ولم يفهم ابن بهانة شيئا ، ولكنه رد بسرعة :
ـ هه ؟
ـ أنت مش بتقول حاربت فى فلسطين ؟
ـ أيوه حاربت فى فلسطين .. وهى فلسطين دى إيه ؟ . دى جبل .
ـ هادا اللى عملته أنت أفضل ألف مرة من اللى عملوه كل المثقفين وكل الشعراء وكل الأدباء على مستوى الوطن العربى .

ورد عبدالوارث بلا مبالاة :
ـ وأنا عملت حاجة ؟ أنا حاربت بس .
ـ وشو ماعملت حاجة .. أنت عملت كل شىء .
ـ ما تفضنا م السيرة دى وتحكى لى على الشغلانة اللى كنت عاوز تقوللى عليها .
ـ هادا اللى كنت عاوز أكلمك فيه .

ولم يقاطعه ابن بهانة ولزم الصمت ليشجعه على الاستمرار فى الحديث .. وواصل أبو ياسر حديثه قائلا :
ـ تعرف أنت القضية محتاجة جهد كل إنسان عربى شريف .. ولازم كل واحد يحارب عشانها .

وقال ابن بهانة معقبا :
ـ احنا لسه هنحارب ، دنا حاربت لما قلت يا كفا .
ـ ما الحرب مش لازم فى الميدان .. المهم الحرب تستمر فى كل الجبهات .. كل واحد يحارب فى المكان اللى هو فيه .

وحدق ابن بهانة فى وجه أبو ياسر ليتبين إذا كان الرجل يمزح أو يقول الجد ، وعندما وجد أن وجهه صارم وجامد وليس فيه أية إشارة واحدة تنم عن المزاح ، قال له :
ـ يعنى أنت عاوز الواحد يمسك بندقية هنا ويضرب نار على فلسطين .
ـ يا بنى آدم قلتلك مش لازم تضرب نار .. والحرب فيها كل شىء .. واحد يضرب نار .. واحد يعاونه من وراه .. واحد يساعده من بعيد .. واحد يمده بمعلومات .. هيك الحرب فيها أشياء كثيرة .

وأراد ابن بهانة أن يفتح رأس الدمل فقال له :
ـ يعنى اللى زينا إحنا يعملوا إيه ؟

وقال أبو ياسر :
ـ هيك جبت المفيد .. أنا قلبى انفتحلك .. عشان كده هقولك السر .. إحنا

تنظيم تموز الأحمر .. واحنا بنشتغل للقضية وبنعمل لحساب القضية .. ومعانا رجال من كل العرب .. وأنت من النهاردة معانا .. ويكون اسمك من اليوم أبو لحاف .

وضحك ابن بهانة ضحكة صافية عميقة وقال :

ـ إلا أبو لحاف دى .. اشمعنى أبو لحاف يعنى .

ورد أبو ياسر دون أن يضحك :

ـ هادا اسمك الحركى .. علشان لما نتكلم عنك قدام ناس ما حد يعرف مين أنت .

شمل الصمت كل شىء فى الخرابة ، وراح الرجلان يأكلان من طاجن اللحم فى صمت ، ولكنه صمت مريب ، لقد راح عقل ابن بهانة يعمل بسرعة النفاثة يراجع كلام أبو ياسر ويقلب فيه .. هل هذا هو السر الذى كان يخفيه ، طيب لماذا لم يذكر حرفا واحدا عن الفلوس التى ستهبط عليهم كالرز والنعيم الذى سيرفلون فيه ؟

هل هى خدعة من أبو ياسر ؟ ثم ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة عندما تذكر أنه من الآن وإلى زمن قادم طويل سيكون اسمه أبو لحاف .. لو عرف الناس فى كفر الغناوة اسمه الجديد سيفطسون على أنفسهم من الضحك !

الضـــــيـــاع

طابت الحياة لابن بهانة ، والولد أبو ياسر شهم وجدع وصديق صديقه ، وهو يقوم بالعمل في الخرابة بدلا من عبدالوارث ، الذى يحلو لأبو ياسر أن يناديه دائما بلقبه الجديد أبو لحاف ، وهو فوق ذلك يمنح عبدالوارث مائة دينار كل شهر نظير خدماته ، مع أنه لم يقدم خدمة واحدة لأبو ياسر ، والعكس صحيح ، فخدمات أبو ياسر تغرق عبدالوارث وتغمره ، ووجد عبدالوارث فرصة للتجوال في أنحاء الفيحاء . صحيح أنها صغيرة ولكن فيها العجب ، فأهل الفيحاء يعيشون فى أحياء لا يشاركهم فيها أحد من الغرباء ، ولم يفهم عبدالوارث لماذا يكرهون الغرباء إلى حد هذا الحد مع أنهم يحتاجون إليهم ، واكتشف عبدالوارث حقائق جديدة عن الفيحاء لم يكن فى مقدوره اكتشافها وهو قابع طوال الوقت داخل الخرابة .

الغرباء هنا يتصرفون بأدب شديد ، وأهل الفيحاء يسبونهم أحيانا ويضربونهم أحيانا ويزجرونهم أحيانا ، والغرباء يصبرون ويحتملون .. وكل شيء يهون فى سبيل جمع الدنانير . وتعرف عبدالوارث أثناء جولاته على مدرس بلدياته يعمل ويقيم هناك منذ مدة ، وانشرح قلب عبدالوارث عندما رأى بلدياته وقد انعدل حاله وصار واحدا من الأعيان . عندما كان مدرسا فى الكفر لم يكن يغير الجلباب إلا مرة كل عام ، وكان يلبس الحذاء مجروحا ومبطوحا ، ولكنه فى الفيحاء يمتطى العربية المرفرفة ويرتدى الجلابية السكروتة ويشرب السجائر ذات الفلتر المذهب ، والأكادة أنه يلقى نصفها على الأرض ويدهسه بالأقدام . وعندما توطدت بينهما الصلات ، كان عبدالوارث يتردد على منزله كل أسبوع ، وأخذ عبدالوارث يقترب من الزوجين أكثر ، لدرجة أنه تجرأ مرة واشترى لحما وبصلا وطماطم وصنع لهما طاجنه الشهير ، وشاركاه الطعام مع الامتنان الوفير ، واندهش عبدالوارث جدا ، لأنهما لم يحتجا ولم يترددا على جلبه لطعامه معه ، وشعر

عبدالوارث بتشجيع له على أن يفعل ذلك في المستقبل وكثيرا إذا استطاع ، وكاد عبدالوارث يجن عندما اكتشف فتورا بين الزوجين وإن بدت العلاقة بينهما عادية أمام الآخرين ، كانا يشتركان فى مصروف البيت وبالورقة والقلم حتى لا يجور أحدهما على الآخر ، أو يغالط أحدهما الأخر ، واكتشف ابن بهانة ان الفتور بينهما امتد إلى كل شيء ، فقد شعر من حركات الزوجة أنها غلبانة ووحدانية ومحرومة من كل شيء ، وبالرغم من ذلك فقد كانت معرفته ببلدياته تثرى حياته البائسة فى الفيحاء ، وكان يتمنى أن تدوم العلاقة لولا أنه اضطر إلى قطع العلاقة وهو آسف عليها بعد أن هددته زوجة بلدياته بالإبلاغ عنه كذبا بمحاولة الاعتداء عليها إذا لم يلب رغباتها ونزواتها ، ولكن عبدالوارث يموت ولا يخون بلدياته ، ويذهب إلى السجن ولا يرتكب الحرام ، وهمس عبدالوارث لنفسه وهو جالس بالليل داخل الخرابة لوحده يقلب الشاى .. يا سبحان الله .. يا سبحان الله .. هل تغير الفيحاء الناس إلى هذا الحد ؟ وجاءه صوت أبو ياسر الذى لم يتبين عبدالوارث وجوده بسبب الظلام :

ـ شو صابك ياأبو لحاف .. محتاج تروح العصفورية ؟

وفهم عبدالوارث تلك الليلة أن العصفورية هى الترجمة الحرفية للخانكة ، وأبو ياسر عنده حق ، فالحياة هنا تقود إلى الجنون . والبنت نعيمة أخبارها انقطعت ، مع أنه لم يقصر فى إرسال النقود ، وضرب عبدالوارث يده فى جيبه وأخرج منه كشفا ألقى عليه نظرة ، لقد بلغ مجموع ما أرسله إلى نعيمة ألف دينار ، ولم يدخل الكفر مبلغ مثل هذا فى المائة سنة الأخيرة .

لابد أن نعيمة وضعت يدها على الأرض وهيأت عش الزوجية ، أما المفاجأة الكبرى فستكون السيارة اليابانى التى سيعود بها إلى نعيمة عندما يأذن الله .

● ● ●

مرت الشهور الحلوة كالحلم .. الفلوس تتضاعف وبدل جيب واحد فى السروال أصبح لعبدالوارث ثلاثة جيوب ، ولكن قر الناس ليس له دواء والعين الشريرة ليس لها ترياق ، ذات مساء مهبب وأسود سمع عبدالوارث عند الباب لغطا شديدا ، وسمع أصواتا مثل إطلاق نار ، وشاهد عبدالوارث الولد أبو ياسر وهو يقفز من مكان إلى مكان ، ثم شاهده وهو يقص جزءا من السلك الشائك المحيط بالخرابة بمقص لم يره معه من قبل ، واختفى أبو ياسر فى الظلام وتوغل فى الصحراء الفسيحة ، وأدرك عبدالوارث أن شرا مستطيرا فى الطريق إليه ، حانت اللحظة التى انقطع فيها عيشه ، وهؤلاء المهاجمون



لابد من رجال المباحث ، لابد أن الواد أبو ياسر يشتغل فى الممنوع ، وسيفتشونك يا عبدالوارث ، ووضع يده على سرواله ، بحركة لا إرادية ، ثم جرى إلى ركن قصى فى المغارة وأخرج كل ما معه من نقود وراح يحفر بأظافره فى الرمل ثم دفن النقود ، وعندما انتهى من دفنها ، كان المهاجمون قد أصبحوا فى داخل الخرابة ، وترامى إلى مسامعه أسمه يتردد بين المهاجمين ، فتقدم إليهم وقد أدرك أنه مطلوب ، لابد أنهم كشفوا الملعوب بينه وبين أبو فادى وسيذهب فى ستين داهية ، لأنه يعمل بالليل والنهار ، ويؤجر الخرابة لعشرات من الغرباء .

●●●

داخل مبنى لا يرى النور على الإطلاق بدأت عملية استجواب عبدالوارث ، وأحيط الاستجواب بجو متوتر ، ولكن عبدالوارث ضحك من الأعماق بالرغم من هذا التوتر عندما سأله المحقق سؤالا مباغتا :

ـ هل اسمك الحركى أبو لحاف ؟

وكادت دهشة عبدالوارث كبيرة عندما لم يضحك أحد ، لقد كانوا جميعا متجهمين ومتوترين ، ولولا العيب لانهالوا عليه جميعا ضربا بالكرابيج ، ومع ذلك حكى لهم الواقعة كما حدثت بالضبط ، فهو فى جلسة فرفشة مع أبو ياسر داخل الخرابة التى يطلقون عليها مخزنا ، قال له أبو ياسر أنت من الآن اسمك أبو لحاف ، كان أبو ياسر يمزح معه ، وإن كان عبدالوارث يشك أنه لئيم ، لأن كفر الغناوة ظهر به رجل يدعى أبو لحاف منذ عشرات السنين ، كان موضع سخرية الكفر ، وقد اعتقد عبدالوارث أن أبو ياسر عندما أطلق عيه لقب أبو لحاف كان يقصد السخرية منه ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يلتفون حول عبدالوارث لم يصدقوا القصة ، وانطلقوا هذه المرة كالكلاب الجائعة ، ولم يستطع عبدالوارث النوم عدة ليال بسبب الجروح والقروح التى انتشرت فى جميع أجزاء جسمه . يقولون لعبدالوارث أن أبو ياسر قائد تنظيم فدائى يقوم بأعمال إرهابية وأن عبدالوارث عضو فى هذا التنظيم وأنه أصبح عضوا منذ أن حمل الاسم الحركى أبو لحاف . الله يخرب بيت أبو ياسر وبيت الذين نسلوه ، جاب الكافية لعبدالوارث ، وقطع عيشه وخرب بيته وضيع عليه تحويشة العمر التى دفنها فى التراب ، هل تحصل عليها مرة أخرى يا عبدالوارث ، أم أن الذى فات مات ، وتصبح كارثة كبرى إذا كان أحدهم قد شاهده وهو يدفن الفلوس فى الخرابة ، والخرابة تشغى بكل أنواع البشر .. هنود على بنجلاديش على بلوش ، وأى واحد منهم يحصل على هذه العكمة

لن يبيت ليلة واحدة فى الفيحاء وسيعود فورا إلى بلاده ، يا خيبتك يا عبدالوارث .. والطمع يقل ما جمع كما يقولون ، وربنا يخلصنا منها على خير .

كانوا يسألونه كل مساء عن أعضاء التنظيم وعناوينهم وعن الأمكنة التى يحتمل اختفاء أبو ياسر فيها ، وعبدالوارث لا يعرف شيئا عن هذه الموضوعات على الاطلاق ، حمير هؤلاء الناس ، لأنهم لم يسألوه عن اشتغاله فى الخرابة بالليل والنهار ، وعن تأجير الخرابة للغرباء ، وعن الفلوس التى هبرها أثناء إقامته فى الفيحاء ، فجأة توقف المحققون عن توجيه الأسئلة وعلم بعد أيام أنهم عثروا على أبو ياسر ، جدع أبو ياسر وراجل وصديق ، لقد اعترف لهم بكل شىء ، وأخيرا تأكدوا أن عبدالوارث مظلوم وأنه لا دخل له بشىء مما يتوهمون ، وأنه برىء من كل التهم التى وجهوها إليه ، وبالفعل جاءوا إليه وأخرجوه ، وأمهلوه أسبوعا واحدا لكى يغادر البلاد .

كانت الخرابة هى أول مكان قصده عبدالوارث بعد اطلاق سراحه ، لم يجد أبو فادى مكانه عند البوابة ، ولكنه اكتشف أن شخصا آخر يجلس عند البوابة ، وعندما عرفه بنفسه تجهم وجه الرجل وسأله عن غايته ، وعندما شرح له الأمر ، استدعى مسئول الأمن فى الخرابة الذى أخذه إلى الداخل ، ولم يكن لعبدالوارث فى الخرابة شىء إلا جلبابان وبعض الملابس الداخلية وحذاء نصف عمر والطاجن الذى كان ينضج فيه اللحم بالطماطم أيام العز التى عفى عليها الزمان ، وتمكن عبدالوارث من مغافلة الذين يحيطون به ووصل إلى المكان الذى دفن فيه الفلوس ، وانقبض قلبه وكاد يسقط ميتا عندما رأى مكانه حفرة ، وفى الحفرة بعض قطع الحديد الخردة ، وبعض أجزاء سيارات مستعملة ، عندئذ أيقن أن الكنز قد ولى إلى غير رجعة ، وأدرك أنه عاد كما كان فى كفر الغناوة قبل أن يبدأ رحلته إلى الفيحاء .

● ● ●

خلال الأسبوع الذى قضاه عبدالوارث فى الفيحاء قبل ترحيله منها استطاع أن يحصل على مستحقاته من صاحب الخرابة التى كان يعمل بها ، واستطاع أن يشترى بعض الأغراض من السوق حتى لا ينزل الكفر إيد ورا وإيد قدام ، وزار بلدياته المدرس ثم أقسم ألا يراه بعد ذلك مهما كانت الأسباب . واكتشف أن حكاية القبض عليه وسؤاله يعرفها كل الناس فى الفيحاء ، وأنهم لذلك يتحاشونه باعتباره صار مشبوها لدى الشرطة .

ولكن .. أين ذهبت الفلوس التى دفنها فى الحفرة ؟ وأين ذهب الناس الذين كانوا ينامون فى الخرابة ؟ وكيف سيذهب عبدالوارث إلى مصر ؟ وكيف سيواجه الناس فى كفر الغناوة ؟ هل يحكى لهم ما حدث بالتفصيل ؟

هل يخفى الأمر عنهم ؟ هل يحكي لهم قصة مختلفة عن ضجره ومله فى العمل الذى كان يقوم به فى الفيحاء ، وكيف أنه قرر أن يعمل لحسابه الشخصى فيقيم مشروعا استثماريا يدر عليه دخلا كبيرا وخاصة أنه أصبح خبيرا بإدارة المشروعات بعد تجربته العريضة فى الفيحاء .

استقر رأى عبدالوارث على هذا الحل الأخير ، فهو يحفظ له ماء وجهه ، وهو يحقق له الاحترام فى كفر الغناوة ، كما أنه سيجعل نعيمة أكثر تعلقا به وستتبعه كظله إلى آخر الأرض .

كان قد مضى خمسة أيام ولم يبق إلا يومان على موعد الرحيل من الفيحاء ، عندما جاءه شاب يبدو فى هيئته ولهجته أنه من أصل فلسطينى ، وبالفعل اتضح أنه من أهل غزة وأنه يعرف مصر بالشبر ، وفهم عبدالوارث من الولد الغزاوى ما خفى عنه خلال التحقيق وما أعقب ذلك ، فأبو ياسر سيحاكم فى الفيحاء لأنه أطلق الرصاص على أحد زعماء المنظمات الفلسطينية وكان فى زيارة رسمية للفيحاء .

مجنون أبو ياسر هذا وألف مجنون .. لهذا كان يقول لعبدالوارث :

إن كل فرد يستطيع أن يقاتل ضد اليهود فى فلسطين وهو قابع مكانه فى أى أرض ، فهل الفلسطينى الذى أطلق عليه النار من اليهود ؟ أو على علاقات معهم .. وأجابه الولد الغزاوى :

ـ بالعكس ، إنه زعيم مناضل لم يكف لحظة واحدة فى حياته عن النضال .

ـ وكيف يطلق النار على رجل مهنته النضال ؟

ورد الولد الغزاوى :

ـ كان خلافا عقائديا .. وهل يكون التحرير من النهر إلى البحر ؟ أم من النهر إلى أريحا ؟

ولم يفهم عبدالوارث شيئا ، ولكنه تساءل بينه وبين نفسه :

ـ وهل يستحق مثل هذا الخلاف أن يقتل الناس بعضهم بعضا ، إنه مجنون ولاشك .

المهم الولد الغزاوى شهم هو الآخر مثل أبو ياسر ، قال لعبدالوارث :

ـ لقد قدمت لنا خدمة جليلة يا عبدالوارث ، ثم ضحك قائلا .. يا أبو لحاف .

ـ يخرب بيتك وبيت أبوك .

وسارع عبدالوارث فوضع يده على فم الولد الغزاوى ، فهذه التسمية هى التى كادت تقصف عمره فى هذا السرداب الذى لا يرى النور على الاطلاق .

ولكن الولد الغزاوى استأنف حديثه قائلا :

ـ نحن لا ننسى الذين قدموا خدماتهم لنا ، وها هو شيك بألف دينار يا عبدالوارث ، وستجد فى المظروف عنوانا أذهب إليه وسلمهم الشيك هناك وسيصلك راتبك كل شهر فى مصر .. خمسون دينارا بالتمام والكمال .

وقبض عبدالوارث بأصابعه على الألف دينار ، ولم يعلق على مسألة المرتب . فلابد أن هذا الولد الغزاوى يسخر منه ، ولابد أنه عثر على كنزه الذى دفنه فى الخرابة وأراد أن يخلص ضميره فأعاد إليه جزءا منه ونهب الباقى .

المهم أن الولد الغزاوى لم يمكث طويلا بعد ذلك ، مد يده فصافح عبدالوارث ، ثم قال له :

ـ سنراك فى مصر وسنعرف كيف نعثر عليك ، المهم أن تستقر فى مكان واحد .

ثم ألقى بقنبلة قبل أن يمضى :

ـ أبو ياسر يسلم عليك ، ويوصيك بالطاجن عندما يذهب إليك حيث تكون .

مضى الولد الغزاوى وبقى عبدالوارث وقد وقع فى حيص بيص ، هذا الولد الغزاوى يعرف أبو ياسر بالتأكيد ، ويبدو أن أبو ياسر هو الذى عثر على الكنز ، وربما رآه وهو يدفن الكنز بينما كان مختبئا فى الصحراء القريبة ، ولكن حسبه عينه أن يتصل به فى مصر ، كفاه ماجرى له بسببه فى الفيحاء ، لقد تعاطف معه من أجل القضية ، ولكن ملعون أبو القضية إذا كانت من هذا النوع ، قتل وتعذيب وتشريد وخراب بيوت .

وفى الموعد المحدد .. وقبل أن تنقضى المدة التى حددتها المباحث لعبدالوارث لمغادرة الفيحاء ، وقف عبدالوارث على باب المطار الفخيم ، وألقى نظرة طويلة على الفيحاء ، التى كانت تبدو من بعيد ، لقد عاش هنا فترة لا يستطيع وصفها ، ليست جميلة وليست كئيبة ، ولكنه لم يعرف طعم الفلوس إلا خلالها ، ولم يشعر فى حياته بالطمأنينة إلا وهو يعيش لياليها وأيامها .

الطمأنينة .. ؟ نعم ، وهى مسألة غريبة أن يشعر الإنسان بالطمأنينة بالرغم من فزعه الدائم من المباحث ، ومن أهل البلاد ومن أى خطأ يقع فيه

ومن عقوبة التسفير ، الطمأنينة إذن لا تعنى أى شىء إلا الاطمئنان للغد ، ولا شىء يطمئن البنى آدم على غده إلا الفلوس ، لقد جرب ابن بهانة هذا الشعور وعرفه ، وهذه الطمأنينة التى عرفها فى الفيحاء ربما لن يشعر بها بعد ذلك .

على العموم .. ها هى ألف دينار فى جيبه ، وهى كفيلة باستئناف الحياة باحترام ـ فى كفر الغناوة .

وألقى عبدالوارث نظرة أخيرة على الفيحاء ، هى بالتأكيد آخر نظرة فى حياته ، فهكذا يقضى قانون الفيحاء ، من خرج منها مطرودا لا يعود إليها مهما امتد به العمر ..

يـــوســــــــــــف

لحظة وصول ابن بهانة إلى كفر الغناوة ، لم تكن الأحوال فى الكفر كما كانت عندما تركه فى طريقه إلى الفيحاء ، بالنسبة للأرض ، حل شجر الموز محل أعواد القمح ، وحلت السيارة النص نقل محل الحمار ، (والمكنة) حلت محل الشادوف والنورج ! بالنسبة للناس .. لم يعد فى كفر الغناوة أحد يرتدى السواد إلا خالتى نفيسة التى كانت تبيع الترمس أمام مكنة الطحين . التليفزيونات الملونة دخلت الكفر ، ونصف الكفر يشجع الأهلى . والنصف الآخر موزع بين بقية النوادى ، وفرد واحد من أهل الكفر يشجع نادى جمهورية شبين .

ولكن التغيير الذى حدث بالكفر بالنسبة لعبدالوارث كان رهيبا وإلى الحد الذى لم يحتمله عبدالوارث ، فأقسم ألا يبيت ليلته فى الكفر ، وأصر على العودة للبندر فى منتصف الليل ، وأصل الحكاية أن يوسف ابن العمدة راح يفكر فى طريقة للانتقام من البنت نعيمة ، اتصل بأمين شرطة بالمركز واتفق معه على إصدار أمر بالقبض على نعيمة وإحضارها لمقابلة البيه ضابط المباحث ، وافق أمين الشرطة ولكن بعد أن أخذ كل الضمانات من يوسف ، بأن العملية كلها مجرد تهويشة ، وقال له يوسف وهو يطمئنه :

ـ حط فى بطنك بطيخة صيفى .

ـ أنا خايف للضابط يشم ريحة أو البيه المأمور .

ـ وها يشمو ريحة منين ؟ دى عالم سكة ويخافو من خيالهم .

ـ والواد اللى ماشى معاها ؟

ـ ده حتة سواق لا هنا ولا هناك .. ولو شاف عسكرى هايموت فى جلده .

ـ المهم تاخد بالك .

ـ أنا ها جيب البنت عندى فى الدوار وهاخوفها وأقطع الورقة بعد كده وخلاص ..

وضع يوسف الورقة فى جيبه وعاد إلى الكفر . وبدأت كلاب الانتقام تنبح فى صدره المجروح .

وعندما أصبح يوسف على مشارف الكفر ، كان فى نيته أن يختلى بنفسه أسبوعا يرسم الخطة ويمهد لمسرح الرواية التى سيقوم بتمثيلها مع نعيمة ، ولكن الظروف التعيسة أحيانا تجعل الانسان يذهب إلى قدره بمحض إرادته ، وهذا هو ما فعلته الظروف التعيسة مع يوسف ، عندما عبر يوسف الجسر الممتد على الرياح المنوفى وأصبح داخل الكفر ، لمح سيارة تاكسى تقف أمام بيت نعيمة .

ـ يا بنت الأبالسة .

هكذا صرخ يوسف وقد تدفق الدم فى عروقه هادرا ، لدرجة أن يوسف شعر بالاعياء وتمنى لو يربط رأسه بشال صوف لكى يمنع الطبل الذى يدق فى نافوخه ، وداس على الفرامل بقسوة وتعمد أن يقف بسيارته النصف نقل أمام السيارة التاكسى ، ثم غادر مكانه فى السيارة وهو ينفخ من شدة الضجر ، ثم ضرب الباب بقبضة يده ضربات عنيفة ، فلما برزت نعيمة عند الباب ازداد هياجه ، فلما جاء السائق ووقف خلفها ازداد غيظه ، وقال لنعيمة وهو ينفخ :

ـ اتفضلى ياست السفيرة .. قدامى ع الدوار .

وتقصعت نعيمة وهزت أردافها بشدة وصرخت فى وجهه :

ـ أروح الدوار أعمل ايه يا دلعدى ؟

ـ ها تروحى ورجلك فوق رقبتك .

وتدخل السائق الذى كان صامتا حتى هذه اللحظة :

ـ ما فيش حاجة اسمه حد يروح ورجله فوق رقبته .. فيه قانون وفيه نظام .

ونظر يوسف بوجهه الكالح الكئيب الذى ازداد كآبة من فرط غيظه باحتقار إلى السائق وقال له باشمئزاز شديد :

ـ وعرفت القانون أنت كمان يا بتاع التاكسى ؟

وقال السائق فى هدوء وبثقة شديدة :



ـ أيوه أعرف القانون ودارسه كمان .. إرتبك يوسف عند سماعه هذه العبارة ، فزايله حرصه وضرب يده فى جيبه وأخرج الورقة التى زورها له أمين الشرطة وناولها بيده المرتعشة للسائق وقال له فى تهكم واضح :

ـ خد يا خويا يا بتاع القانون .. إقرأ .

وألقى السائق نظرة على الورقة وقال :

ـ طيب ما فيش مانع .. اتفضل معانا نركب كلنا نطلع على المركز نقابل ضابط المباحث .. فقد يوسف صوابه وانطلق كالإعصار يقذف بالكلام من فمه كأنه رصاص ينطلق من مدفع رشاش :

ـ هى ها تروح الدوار ورجلها فوق رأسها ، وأنت مالكش مصلحة واتفضل إمشى .

ـ لأ .. دنا رجلى على رجلك .. وهى مش هاتروح أى حتة من غيرى .

ـ بصفتك إيه يعنى إنت ؟

ـ ها تعرف فى المركز بصفتى إيه .

الولد السواق يتكلم بطريقة هادئة وواثقة جعلت النار تشتعل فى أحشاء يوسف ، وفكر يوسف لحظة فى التراجع ، فهذا الولد السواق يبدو من هيئته ولهجته أنه مختلف بعض الشىء عن أبناء كاره .. ويبدو أنه مجرم معتاد إجرام .. وقد يكتشف موضوع الورقة التى زورها أمين الشرطة ليوسف ، وهنا تكون الكارثة الكبرى فيضيع يوسف فى الكازوزه .

فقال للسائق :

ـ طب هات الورقة دى .

وقال السائق وهو يطوى الورقة ويدسها فى جيبه :

ـ الورقة دى ورقة استدعاء .. يعنى تفضل معانا إحنا لحد ما نقابل ضابط المباحث ..

انتفض يوسف مكانه كأنه أصيب بالحمى ، هذه ستكون نهاية يوسف بلا أدنى شك ، ولابد من انتزاع الورقة المزورة من السائق ، حتى ولو أدى الأمر إلى قتله داخل الكفر ، ونظر يوسف إلى السائق الذى أمامه ، كان شابا وقويا

مفتول العضل وصدره بارز من فتحة القميص ، وفى أى عراك ينشب بين الرجلين سينتهى بهزيمة منكرة ليوسف ، وتلفت يوسف حوله فوجد بعض الناس يلتفون حول السيارات الموجودة خارج الدار ، فنادى على رجل عجوز يقف مع الجمع المحتشد ، وطلب منه أن يذهب سريعا إلى الدوار لإحضار الخفراء المتواجدين هناك ، وعندما بدأ العجوز رحلته نحو الدوار ، راح يوسف يتوعد السائق :

ـ الوقت لما يحضر الخفر هاوريك القانون على أصوله .. مش إنت بتاع قانون .

رد السائق فى هدوء :

ـ وماله .. نحب نشوف القانون .

ـ دانت هاتشوف القانون وأم القانون وأبو القانون وها تنبسط خالص .. بس إياك بقه ما تعيطش .

ـ وها نعيط من إيه ؟ حد يعيط من القانون ..

ألقى يوسف نظرة على السكة الزراعية ثم قال :

ـ أهم الخفر جم أهم .. دلوقت بقى هاتشوف القانون صحيح .. قانون ميرى .. اللى نعله عشرة سنتى ..

وقال السائق محذرا يوسف :

ـ بلاش تغلط في كلامك .. لأنك لو غلطت مش حايحصل كويس .

ـ ها تعمل إيه يعنى ، ها تأدبنى .

ثم التفت إلى الخلف ونادى على الناس الذين كانوا يتفرجون على المعركة وقال :

ـ تعالوا يا بتوع الكفر .. تعالوا شوفوا سواق التاكسى ها يؤدب العمدة بتاع الكفر بتاعكم .

ولكن الناس الذين نادى عليهم يوسف لم يبد أحد منهم اهتماما بالموضوع ، وبدا على بعضهم الشماتة فى يوسف ، كان الخفير الذى أرسل يوسف فى طلبه قد وصل إلى بيت نعيمة ، كان متقدما فى السن .. ظهره محنيا بعض الشىء وعيناه تدمعان باستمرار وشخط يوسف فى الخفير العجوز قائلا :

ـ أمال فين الخفر ؟

ورد الخفير العجوز :

ـ أهم سارحين كل واحد فى ناحية .

وقال يوسف :

ـ سارحين فين ؟

ـ أنا إيش عرفنى .. هو ده يعنى حال جديد علينا .. ما حنا كده من زمان .

عاد يوسف إلى الشخط من جديد فى وجه الخفير العجوز :

ـ جر المتهم ده من قفاه وهاته ع الدوار .. ثم أردف :

ـ هو والبنت نعيمة .

نظر الخفير إلى المتهم ، وكانت النظرة كافية لكى تقنع الخفير بأن يتناول الموضوع بطريقة تختلف عن طريقة يوسف ، فقال للسائق :

ـ اتفضل يا سعادة البيه .. معانا ع الدوار .

وقال السائق للخفير :

ـ أنا مش رايح الدوار يا عم الحاج .. وإذا كان هو عاوز ياخدنى الدوار .. يورينى شطارته .

وقال يوسف وقد استفزه السائق :

ـ يا سلام .. ليه إنت ابن مين ؟ طب أنا هاجرك ع الدوار وأجر اللى يتشدد لك كمان .

وهجم يوسف على الخفير وخطف منه البندقية ، فلما حاول الخفير أن يحول بينه وبين البندقية ، دفعه يوسف فى صدره فوقع على الأرض ، فلما أصبحت البندقية فى يده ، حذره السائق قائلا :

ـ إرم البندقية من إيدك أحسن لك .. لأنى لو خدتها منك .. ها حطها فى بقك .. وضع يوسف يده على الزناد كأنه يريد أن يطلق النار ، ولكن البندقية كانت خالية من الرصاص ويوسف يعلم ذلك ، فاضطر يوسف إلى استخدامها كعصا وهوى بها على رأس السائق ، ولكن البندقية لم تصل إلى هدفها ، فقد خطفها السائق وانهال بها ضربا على يوسف ، كان الولد يضرب بمعلمة جعلت الخفير الذى ضربه يوسف يتأوه من شدة الإعجاب ، وبعض شهود الحادث طالبوا بالمزيد ، بينما يوسف كان يصرخ بشدة طالبا النجدة من

طوب الأرض ، وعندما أصبح يوسف ممددا على الأرض كالفسيخة الميتة والدم ينزف منه بغزارة ، ركب السائق سيارته ومعه نعيمة وانطلق بها خارجا من الكفر فى طريقه إلى المركز .

●●●

عندما كان يوسف فى سيارة الإسعاف التى أقلته إلى المستشفى الأميرى ، كان السائق فى المركز أمام ضابط المباحث يشرح الأمر كله وكما حدث بالتفصيل ، ولم تمض ساعات حتى كان مدير الأمن قد اتخذ قراره بوقف العمدة أبو يوسف عن العمل ، أما أمين الشرطة الذى زور الورقة ، فقد أصدر قرارا بحبسه وتقديمه إلى محاكمة عسكرية ، ولكن الذى جرح يوسف ووجعه هو ما كشف عنه التحقيق ، فقد تبين أن السائق حاصل على شهادة جامعية وسبق له الاشتراك فى حرب أكتوبر ، وأنه سافر مرة إلى ليبيا ومرة إلى العراق ، وأنه رفض الوظيفة واشترى سيارة أجرة ، وأن السيارة تضمن له دخلا ممتازا ، ولكن القنبلة التى انفجرت فى يوسف ، هو اكتشافه لسر خطير ، وهو أن السائق زوج نعيمة ، نفس السر الذى جعل ابن بهانة يقسم على عدم المبيت فى الكفر تلك الليلة التى وصل فيها من الخارج وعاد فى منتصف الليل إلى البندر .

●●●

عندما وصل عبدالوارث إلى كفر الغناوة رآه بعض أهل الكفر فأخذوه بالأحضان .. وبعضهم عرض عليه مساعدته فى حمل ما معه من حقائب ، ولكنه شكرهم جميعا وهمس فى أذن أحدهم بالذهاب إلى بيت نعيمة وإبلاغها بحضوره والتنبيه عليها بضرورة إرسال شابين من أهلها لحمل ما معه من حقائب ، ونظر إليه الشاب نظرة رثاء ، ولم يستطع أن يحيطه علما بما جرى لنعيمة ، واكتفى بأن هز رأسه بالموافقة ومضى من أمامه إلى غير عودة .

عندما يئس ابن بهانة من حضور المرسال أو أحد من طرف نعيمة ، نادى على أول شخص مر به ، ومن حسن الحظ أن الشخص الذى مر كان إمام ابن خالة نفيسة ، وفى الطريق عندما علم إمام أن ابن بهانة فى طريقه إلى بيت نعيمة ، نظر إليه نظرة بلهاء وقال له فى صراحة قائلا :

ـ نعيمة مين يا واد عبدالوارث .. إنت انخبطت فى عقلك ؟

ـ وها تجيبلى الخابط فى عقلى ليه يا واد يا بن نفيسة .

ـ هوه أنت ما عندكش خبر باللى حصل لنعيمة ؟

ـ حصل إيه يا وله ؟

ـ دهدى .. إنت ماحدش قالك ؟

ـ يا أخى ما تقوللى إنت وتخلصنى .

ـ مش نعيمة اتجوزت .

تسمر ابن بهانة مكانه وألقى بالحقائب على الأرض وأطبق بأصابعه العشرة على رقبة ابن نفيسة ، وصرخ ابن نفيسة بشدة طالبا النجدة ، وهرع إليه بعض الرجال الذين كانوا يمرون بالقرب ، واستطاعوا تخليص رقبة ابن نفيسة من قبضة ابن بهانة .

وقال أحدهم معاتبا ابن بهانة :

ـ حرام عليك .. دالواد ابن نفيسة ده غلبان .

ـ ده غلبان ده .. أول ما يقابلنى يقوللى نعيمة إتجوزت .. مش عيب .

ـ وهو الجواز عيب ياابن بهانة ؟

ـ أيوه عيب .. لما يقوللى إنها اتجوزت وهو عارف إن أنا متكلم عليها وهاتجوزها .

ـ هو أنت ما حدش قالك .

ـ ها يقوللى إيه يا عم الحاج .

ـ يا بنى الجواز قسمة ونصيب .. هو يعنى اللى خلق نعيمة ما خلقش غيرها .

إذن الحكاية جد ، والواد ابن نفيسة كان يقول الحق ، وشعر ابن بهانة بأنه يريد أن يسند ظهره إلى أى حائط فجلس على الأرض ، وبينما وقف الواد ابن نفيسة يبرطم بكلام ، فى الوقت الذى شرع فيه الآخرون بالانصراف ، ونادئ ابن بهانة على ابن نفيسة ، فاقترب منه الأخير ولكن بحذر ، وقال له ابن بهانة بصوت ضعيف :

ـ ماتزعلش منى يا واد يا بن نفيسة .. أنا أصل جاى تعبان وقرفان .

ـ لهو إنت ما حدش قالك .. والكفر كله عارف والدنيا كلتها عارفة ..

ودعاه عبدالوارث إلى الجلوس بجانبه .. ولكنه آثره على نفسه فهيأ له إحدى الحقائب ليجلس عليها ثم مد يده فى جيبه وأخرج علبة سجائر مستوردة تفوح منها رائحة الدخان النقى حتى وهى مغلقة ، وناول ابن نفيسة

سيجارة أخذها شاكرا . فأقسم ابن بهانة أن يحتفظ ابن نفيسة بالعلبة كلها ، فقبلها دون كلام ، وقال ابن بهانة لابن نفيسة يرجوه :

ـ إحكيلى يا بن نفيسة إيه اللى حصل بالضبط ، إحكيلى ربنا يخليك .

● ● ●

عندما انتهى ابن نفيسة من سرد القصة كلها بالتفاصيل ، كان الليل قد انتصف والكفر لفه الصمت والظلام ، وكانت الوقائع التى نفذت إلى عقل ابن بهانة ، هى ما جرى فى المرحلة الأخيرة من قصة نعيمة وابن العمدة ، فالنيابة قررت حبس زوج نعيمة أربعة أيام على ذمة التحقيق ، وعندما ثبت من خلال التحقيق أن ابن العمدة هو الذى اعتدى على حرمة بيت نعيمة دون وجه حق ، وأنه استغل نفوذه وقام بتزوير ورقة بالاشتراك مع أمين الشرطة ، أفرجت النيابة عنه بضمان مسكنه ، بينما بقى ابن العمدة فى المستشفى وتحت الحراسة متهما بالتزوير والشروع فى ارتكاب جريمة خطف نعيمة مستغلا الورقة المزورة . ولكن نعيمة وزوجها لم ينتظرا طويلا ، تركا مصر وغادرا البلاد إلى القادسية .

خلال الأيام التالية تذكر ابن بهانة الشيك الذى ينام فى جيبه منذ فترة . بحث طويلا عن العنوان حتى اهتدى إليه ، واكتشف وهو جالس مع الشاب الغزاوى الذى وجده فى العنوان أن الشيك الذى يحمله لم يكن بألف دينار ولكن بألف دولار ، وهو فرق رهيب .. ولكن ماذا يهم الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ المهم .. خرج عبدالوارث من المقابلة بفوائد كثيرة .. أهمها ان السفر إلى القادسية سهل لا يحتاج إلى تأشيرة ، والعمل هناك لا يحتاج إلى كفيل ، والأهم من ذلك أن البقاء فى القادسية لا يحتاج إلى إقامة ، قال له الولد الغزاوى :

ـ هذه بلاد الوحدة والقومية .. وكل عربى هناك على العين وعلى الرأس .. يبيع يشترى .. يبنى يقتنى .. يتزوج .. يطلق .. كل شىء مباح له .. وكل السكك مفتوحة أمامه .. وكل الطرق ممهدة .

واطمأنت نفس عبدالوارث ، سيلحق بنعيمة وسيشرب من دمها هناك ، وسينتقم من الأفعى التى بددت عرقه وشقاه ، وغدا ، وربما بعد غد ، وبالكثير قوى بعد أسبوع سيكون فى القادسية ، ومن يدرى ؟ ربما يستطيع ابن بهانة أن يبدأ الحياة من جديد !

القادسية

انتهت الإجراءات بسرعة شديدة وبدون تعقيدات . ووجد عبدالوارث نفسه في المطار وفي يده تذكرة إلى القادسية . ما أبعد الفارق بين السفر للفيحاء والسفر للقادسية "السفر إلى الفيحاء استغرق عدة أشهر قضاها عبدالوارث في انتظار تأشيرة دخول للفيحاء . ولكن القادسية لا تحتاج إلى تأشيرة ، ويقولون إن هناك فروقاً كثيرة .. سيلمسها عبدالوارث عندما يصل إلى هناك . كانت الطائرة مزدحمة بشكل ملحوظ ، والجميع من مصر ، وبعض الذين كانوا يجلسون داخلها من قرى تجاور كفر الغناوة . في هذه المرة لم يشعر عبدالوارث بالخوف من ركوب الطائرة . لقد جربها مرتين من قبل ، وهذه هي المرة الثالثة ... والثالثة ثابتة كما يقولون . ولو لعبت البلية مع عبدالوارث فسيركب الطائرة بمناسبة وبدون مناسبة أيضاً .. وهل هناك مناسبة أسعد من ركوب الطائرة ؟ في المطار وقف عبدالوارث يلقي نظرة على ما حوله ، العساكر هنا يختلفون عن العساكر في الفيحاء .. وهم يختمون على الباسبور ويقولون .. حمداً لله على السلامة ، مرحبا بكم في أرض العروبة .. ياسلام .. لماذا لم يحضر عبدالوارث هنا من البداية ؟ يقولون أن الفلوس هنا على ودنه والشغل هنا على الكيف . ويستطيع عبدالوارث أن يشتغل أجيرا . فإذا لم يعجبه الحال يستطيع أن يفتح لنفسه دكانا .. إن كل المجالات مفتوحة وكل التجارات مباحة . والمصري هنا كصاحب البلد له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات . وزفر عبدالوارث زفرة حادة ... آه لو أنه جاء إلى القادسية للعمل والتجارة ، إذن لكان له شأن آخر . ولكنه في الواقع جاء إلى هنا للانتقام من نعيمة بنت حنكوش ..

استولت على شقا عمره واختفت كأنها فص ملح وداب .. لن يهدأ لعبد الوارث بال إلا إذا ظفر بنعيمة وشرب من دمها . وهو يعرف أنها في القادسية



وسيبحث عنها فى كل ركن ، وسيصل إليها حتى ولو اضطر إلى الحفر فى التراب .

على أية حال لقد بدأت ياعبد الوارث الخطوة الأولى ، وهأنت الآن على تراب القادسية ، ومن صباح الغد ستبدأ رحلة البحث عن نعيمة ، ولن تكف حتى تقبض عليها من شعرها وتمسح بها الأرض .

على العموم هذه إذن القادسية أخيرا ، وهو يقيم فى منطقة الخالق الناطق مثل مناطق شاهدها فى حى الحسين . وجميع المقيمين فيها من مصر ، وعلى الجانبين قهاوى بلدى ومطاعم فول ومطاعم كباب ، وحكمة الله إن اللحمة هنا لها شمخة كلحمة كفر الغناوة أيام زمان . وعبدالوارث لم يحصل على عمل بعد ، ولكنه يرزق ، والفضل لنصيحة أسداها له ولد طيب .. نصحه بأن يأخذ معه عند سفره للقادسية كمية من الليمون البنزهير وكمية من الثوم وكمية من علب السجاير . واندهش عبدالوارث بشدة لإقبال الناس على الليمون البنزهير . وتساءل بينه وبين نفسه .. لماذا لا يزرعون شجر الليمون فى الشوارع ؟

عندما انتهى عبدالوارث من بيع ما معه من بضاعة ، كان قد توفر له مبلغ من المال لا بأس به ، وخصوصا أنه ينام فى دكان فول وطعمية مقابل تنظيف المحل آخر الليل . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، فقد سافر أحد العمال إلى مصر ، فحل عبدالوارث محله ، الأجر خمسون ديناراً بالإضافة إلى الأكل والشرب والنوم بالدكان . ولكن أسوأ مايعانيه عبدالوارث هو عدم وجود وقت للبحث عن نعيمة . وهو لم يحضر إلى هنا لكى يأكل ويشرب ويقبض خمسين ديناراً كل شهر . ولكنه جاء من أجل هدف واحد هو البحث عن نعيمة وانتزاع تحويشة العمر منها ، ثم الانتقام منها . لن يصرفه عن هذه المهمة دنانير ولو وصلت حتى إلى الألف دينار .

الحرب قامت فى القادسية ، والمصريون أصبحوا على قفا من يشيل ، وتحولت القادسية إلى جزء من مصر ، لا تقابل فيها إلا مصريين ، فلاحين على عمال على أفندية . المصريون أصبحوا أكثر من الهم على القلب ، ولكن الفلوس نقصت والأشيا لم تعد معدن كما كانت من قبل ، ولكن وبالرغم من ذلك فعبدالوارث يشعر بالراحة وبالسعادة ايضا ، فهو حصل على الاستقرار والطمأنينة وراحة البال التى لم يحصل عليها من قبل .

وأصل الحكاية أن الزقاق الذى يقع فيه الدكان ينتهى بدحديرة تقوم على جانبيها بعض البيوت . وهذه البيوت يسكنها قادسيون .. رفضوا أن يتركوها

رغم الإغراءات التى عرضت عليهم ، ولكن يشهد عبدالوارث أنهم ناس طيبون وفى حالهم ولم يضبط أحدا منهم يكلم أحدا إلا إذا كانت هناك مصلحة وحتى عندما يتكلمون فحديثهم همس ونظرتهم فيها حياء . ويسمع عبدالوارث أنهم خواجات ... معقول ؟! قادسيون وخواجات ؟ ولكن نقول إيه لصنف أولاد العرب ، كلامهم كتير ورغيهم ليس له حد . وها هى الظروف تشاء أن يتعرف عبدالوارث عليهم وأن يدخل بيوتهم . فقد مات أحدهم وجاءت سيدة فى منتصف العمر ، فى الأربعين .. ربما بعدها بقليل وطلبت من عبدالوارث أن يحضر إليها ليساعدها . وعبدالوارث خدوم وحاضر وجاهز وخصوصاً فى أمور الموت . لا شىء يعادل ثواب أن تساعد فى تجهيز ميت ، هكذا كان يردد دائما واعظ كفر الغناوة .. والأكادة أن عبدالوارث لم يضبط الواعظ مرة واحدة يقدم المساعدة لميت أو لحى !

المهم ذهب عبدالوارث واكتشف أن الست وحدانية ، والذى مات هو والدها ، وهو رجل عجوز تعدى السبعين أو الثمانين . والست رغم حسنها إلا أن عينها غليظة وباكسة ولا يهمها من أحد . عبدالوارث رغم عدم خبرته وقلة تجربته ألا أنه فهم بالمحسوس ماذا ترمى إليه وماذا تقصد . على العموم .. كل شىء مرهون بوقته ، والأيام كفيلة بكشف كل الأسرار .

● ● ●

طرأت تغييرات على كفر الغناوة ، مات العمدة الطيب أبويوسف ، ودخل يوسف السجن مع أمين الشرطة ، وتولى الأمر فى كفر الغناوة شيخ البلد .. وهو رجل طيب ومن عائلة ميسورة والنصاب القانونى متوافر عنده ، وأخبار الكفر تؤكد أن الأحوال هناك أحسن مما كانت من قبل ، وأن جوا جديداً أخذ يسرى فى الكفر لم يكن له به عهد . أخبار الكفر وصلت إلى نعيمة وزوجها عاصم . أما عبدالوارث فلم يسمع شيئاً ولن يعرف شيئاً إلا إذا جاء أحد من كفر الغناوة أو عاد هو إلى هناك . حتى البنت نعيمة التى عرفت أخبار الكفر لم تهتم بها ، داهية تاخد الكفر واللى فيه .

استقرت نعيمة فى بيت تحيط به حديقة فى حى جديد من أحياء القادسية ، والفضل لزوجها عاصم ، معارفه كثيرون ، واتصالاته هنا واسعة . وهو سبق له العمل والإقامة فى القادسية . وكل شىء هنا متوافر وبالتسعيرة الجبرية . المشكلة الوحيدة التى تعانى منها نعيمة هى ندرة وسائل المواصلات . ولكن عاصم وعدها بحل المشكلة ، وسيشترى سيارة مستعملة حتى يحين الوقت لشراء سيارة جديدة . القضية الوحيدة أنه لكى يشترى

سيارة مستعملة .. لابد أن يذهب إلى الفيحاء . ودخول الفيحاء صعب ، خصوصاً على من كانت ظروفه تشبه ظروف عاصم .

ولكن .. كل عقدة ولها حلال . وعاصم ناصح ويعرف كيف يحل المشاكل . ولو نجح فى حل المشكلة ، فسيروق الجو هنا ، وسيبقى هنا فى القادسية .. ربما إلى آخر الدهر .

ولقد استطاع عاصم أن يجد لنفسه عملاً سريعاً كسائق فى إحدى الشركات . وهو عمل لايتفق مع مؤهلاته ولا مع إمكانياته ، ولكنها خطوة على كل حال من أجل الاستقرار . وهو رغم الإرهاق الذى يشعر به فى العمل ، إلا أنه مصر على الاستمرار فى العمل ولن يتركه إلا اذا وجد العمل المناسب . المهم الآن أنه وجد مسكنا لائقاً وعملا لا بأس به وأجراً يكفيه .. على الأقل يكفى ضرورياته .

أما مايحلم به بالفعل .. فليس هذا وقته على كل حال . والبنت نعيمة فرحانة بوجودها فى القادسية . فقد صارت فرخة بكشك مع جاراتها القادسيات . واندهشت نعيمة عندما سألتها إحداهن عن بدلة الرقص ، وشفعت سؤالها بطلب بدلة الرقص كاعارة مضمونة مردودة بعد أيام . وضحكت نعيمة عندما علمت بأن الفكرة السائدة بين نسوان القادسية أن بدلة الرقص هى جزء من جهاز كل عروس مصرية ، وأن كل مصرية راقصة ، إذا لم تكن فى الأفلام ففى البيوت ، وإذا لم يكن للجمهور فللزوج . كانت الست نضال هى اقربهن إلى قلب نعيمة ، وإذا كانت نعيمة قد استنكرت اسم نضال فى بداية الأمر ، إلا أنها تعودت عليه بعد ذلك ، وعندما عرفت سر التسمية أشفقت على الاسم وعلى صاحبته . وأصل الحكاية أن والد نضال الذى هو عبدالجبار دخل السجن أكثر من مرة ، وشهدت نضال الحياة عندما كان عبدالجبار يعانى كل أنواع التعذيب فى سجن أبو غريب . لذلك أطلقت أمها عليها اسم نضال ، تكريما لنضال عبدالجبار الذى كان يعانى الأمرين خلف الأسوار . وكادت نعيمة تبكى عندما عرفت نهاية عبدالجبار . فلقد أكرمه الله ووصل حزب عبدالجبار إلى السلطة ، وصار عبدالجبار متسلطا على حى بأكمله .. الشورة شورته والرأى رأيه .. وتقلبت أسرته فى النعيم وذاقت طعم الحياة لأول مرة ، كان من المفروض أن عبدالجبار سيواصل شق طريقه إلى القمة فيصبح مسئولاً عن مدينة ثم يصير واحداً من المسئولين عن الأمة كلها . ولكن الخلاف سرعان مادب بين قادة حزب عبدالجبار ، ولسوء الحظ ـ حظ نضال ـ خسرت المجموعة التى كان ينتمى إليها عبدالجبار . وفى خلال ساعات قليلة أعدموا قادة المجموعة ، وخنقوا عبدالجبار فى السجن ودفنوه

سراً ، ولا تعرف نضال مكان التراب الذى يضم رفات أبيها حتى الآن .

ما أكثر حكايات الرعب التى سمعتها نعيمة من النسوة المترددات عليها . حكايات كلها ضرب وقتل وسحل ، ولأسباب لا تفهم نعيمة معناها .

هذه المآسى كلها لم تقع بسبب خلاف على ملكية أرض أو نزاع حول فلوس ، ولكن المصيبة فى القادسية أنهم يقتلون بعضهم البعض لخلاف على كلام . ولا تفهم نعيمة لماذا اختلفوا ولا كيف اختلفوا ، ولكنها مع ذلك حزينة لما أصاب نضال ونيران وساجدة .. أسماؤهم غريبة ، وحياتهم أغرب .. ولكن قلوبهن طيبة ، وسلوكهن يعجب نعيمة !

● ● ●

ذات صباح انفتحت طاقة القدر لعبدالوارث . أرسلت السيدة فى طلبه ، فأسرع إليها ظنا منه أنها تريده فى خدمة سريعة ، ولكنه اكتشف أنها ليست فى حاجة إلى مثل هذه الخدمة وأنها استدعته ليشرب معها القهوة ، إذا كان لديه بعض الوقت لشرب القهوة .

واعتذر عبدالوارث للسيدة لضيق ذات الوقت ، وأخبرها بأنه يملك وقته فى المساء ، وأنه يستطيع أن يشرب معها القهوة فيما بين التاسعة والعاشرة مساء وقبل الذهاب إلى الشغلة الأخرى التى اضطر إلى مزاولتها لكى يضاعف من دخله . ورحبت به السيدة الطيبة فى الموعد الذى حدده عبدالوارث .

وفى الموعد المحدد ارتدى عبدالوارث الجلابية المغسولة ولف الكوفية حول عنقه وراح يقطع الدرب الضيق على عجل إلى بيت السيدة الطيبة .

ســـــــعـــــاد

عندما فتحت السيدة الباب ، لم يصدق عبدالوارث نفسه ، كانت شيئا آخر غير الذى رآه من قبل . شعرها مفكوك ومنسدل على كتفيها وظهرها ، وعلى شفاتيرها أحمر ذكره بالبنت نعيمة بنت حنكوش . وحكمة الله أن صدرها بارز والجزء الأسفل من ظهرها أيضا ، بينما وسطها مخنوق يكاد يستغيث أن ينقذه أولاد الحلال حتى لا تنكتم أنفاسه ويموت !

وعبدالوارث علمته قعدته فى الفيحاء أن ينظر دائما إلى الأرض ، خصوصا إذا كانت الست التى ينظر إليها من أهل البلاد .. فأى شكوى من أى ست كفيلة برمى المشكو فى حقه فى السجن أو على الأقل ترحيله خارج البلاد . ولكن عبدالوارث بالرغم من ذلك راح يتطلع إلى السيدة أم هناء بينما لحمها المكتنز يبدو من خلال ثوبها الشفاف وكأنه طبق بالوظة يدعو الآكلين إلى التفضل .. وبالشفاء والهناء .

صنعت المرأة المشتاقة القهوة بيدها وقدمتها لعبدالوارث . وشفط عبدالوارث من الفنجان شفطة ثم هتف من شدة الانشكاح ..

ـ الله .. تسلم إيدك .

وقالت المرأة :

ـ زينة القهوة ؟

ورد عبدالوارث :

ـ دا إيدك اللى حلوة .

وضحكت الست وقالت :

ـ عجايب عليكو يامصريين .. كلامكم حلو وطيب وأنتم أطيب .

كانت ليلة ليلاء لم يذق فيها عبدالوارث طعم النوم ، ومع ذلك كان عليه أن يغادر البيت فى الموعد المحدد الذى يذهب فيه إلى عمله فى القهوة ، ولكن



قبل أن يغادر البيت كان قد دخل الحمام وأخذ دشا سريعا ، ثم تناول إفطارا لم يذق مثله من قبل ، وكاد يموت على نفسه من الضحك عندما اكتشف أنهم فى القادسية يأكلون البلح فى الإفطار . البلح يؤكل فى رمضان فقط وفى موعد إنتاجه ! وفوجىء عبدالوارث وهو عند الباب بالست أم هناء تجرى خلفه وتسأله أن يتوقف لحظة ، وبعد أن خطفت منه قبلة ، دست فى يده بحفنة من النقود . عبدالوارث لا يعرف كم كان عدد هذه النقود . لكنها بالتأكيد ، وحسب تجربة عبدالوارث فى كنز الفلوس فى جيب السروال ، لا تقل عن خمسمائة دينار . خمسمائة دينار ياعبدالوارث تعادل كنزا ، خصوصا فى القادسية ، حيث الأسعار مهاودة والعيشة مرتاحة والتسعيرة محترمة . وهى أول مرة يرى فيها تسعيرة محترمة فى أى مكان . ذات مرة أخطأ عبدالوارث فترك عشرة فلوس زيادة عن السعر المقرر فى يد البقال ، ولكن الرجل انتفض كمن لدغه عقرب وقبض بأصابعه القوية على ياقة جلباب عبدالوارث وراح يرتعش وهو يعاتب عبدالوارث على فعلته السودة ، ولما كان عبدالوارث لم يفعل أى شىء يمكن أن يعاتب عليه ، فقد ظن أن البقال مجنون ، فخلص جلبابه من أصابعه بصعوبة ومضى إلى حال سبيله ، ولكن ذعر البقال جعل عبدالوارث يروى القصة للجميع ، وكان دائما ينهى الحكاية قائلا :

ـ أنا عارف إيه اللى زعله ؟ قرش هنا وألا هناك .. فيها إيه .. المهم أن عبدالوارث ألقى نظرة على الفلوس ثم فكر قليلا ، إنه فى حاجة إليها بلاشك ، بل إن مبلغا مثل هذا كفيل بحل جميع مشاكله ، ومع ذلك نفرت عروق رقبته من شدة الغيظ ، وقذف بالفلوس فى صالة البيت وقال للست أم هناء وهو يغادر الدار بالفعل :

ـ عملتلك أيه وحش علشان تهزئينى ؟ وصرخت أم هناء متوسلة إليه أن ينتظر ، ولكن عبدالوارث انطلق فى طريقه مسرعا . ولاحقته صرخات المرأة التى اندفعت خلفه كالمجنونة تريد أن تلحق به وتحاول أن تشرح له الأمر ، ولكن عبدالوارث أسرع فى خطوه حتى اختفى من الدرب وغاب فى الزحام .

● ● ●

سرعان ما تبدلت أحوال عاصم ، فارتقى بسرعة وانتقل من وظيفة سائق إلى وظيفة مشرف أمن ، وانحصرت دائرة اختصاصه فى مراقبة العمال المصريين الذين يعملون بالشركة ، وكان عددهم يبلغ عدة مئات . ولم يكن عاصم سوط عذاب على المصريين العاملين فى الشركة ، ولكنه كان سندا لهم وعونا ، كما كان بلسما للقروح والجراح . أما كيف انتقل عاصم هذه

النقلة ؟ فأصل الحكاية أنه التقى بالصدفة برجل من معارفه القدامى من مسئولى محافظة القادسية ، وأصيب الرجل بالدهشة حين علم أن عاصم يعمل بوظيفة سائق بالشركة ، وقال له فى حسم :

ـ مثلك لا ينبغى أن يشتغل بالأعمال العضلية ، فأنت مثقف ومرتب التفكير . وفى خلال ثلاثة أيام كان عاصم قد ترك مكانه خلف عجلة القيادة فى السيارة النقل ، واتخذ له مكانا فى مكتب فخم داخل الشركة ، وتحققت أحلامه دفعة واحدة ، فخصصوا له سيارة ، صحيح أنها سيارة لادا روسية الصنع ، ولكنها سيارة على أية حال . وصار يأخذ نعيمة كل يوم عصرا ويتنزه معها على شاطىء النهر . وأحيانا يشترى شيئا من السمك الذى اشتهرت به القادسية منذ قديمْ الزمان .

عجيبة هى الحياة ، إذا عبست بال الحمار على الأسد ، وأذا ابتسمت باض الحمام على الوتد . وها هو الحمام يبيض على الوتد ويبيض على سن الإبرة بالنسبة لعاصم . لقد عهدوا إليه بهمة جليلة ، هى اختيار عشرة من المصريين العاملين بالشركة ليدربهم على أعمال الأمن تمهيدا للاستعانة بهم فى مصانع الشركة المنتشرة فى أنحاء القادسية . وعلى الفور بدأ عاصم فى اختيار العناصر التى يرى أنها صالحة لمثل هذا العمل ، ثم بدأت فترة التدريب ، وبدأت المكافآت تنهال على عاصم .. وبعد ثلاثة أشهر انتهى عاصم من تدريب العمال الذين أختارهم بنفسه ، وطلب إجازة يقضيها فى الشمال بعيداً عن زحمة الشركة وضوضاء المدينة . وفوجىء عاصم بأن الشركة سمحت له بالسفر بالسيارة التى خصصتها له ، كما فوجىء بمكافأة مالية كبيرة تكريما له لإنجازه هذه المهمة على أكمل وجه .

وقضى عاصم عشرة أيام بالشمال .. الجو هنا بارد ولطيف ، والسكان هنا خواجات يرتدون ملابس تشبه ملابس اولاد البلد الاسكندرانية ، وتمنت نعيمة أن تعيش بقية عمرها فى هذه الروابى الجميلة والسهول الخضراء ، ولكنها بالرغم من السعادة المحيطة بها ، فقد شعرت بالفتور من جانب عاصم نحوها ، ولم تصدق ما قاله عاصم من أن السبب هو الإرهاق . وتشك نعيمة بأن هناك امرأة أخرى . آه لو كانت هناك امرأة أخرى بالفعل ، سيندم عاصم على فعلته كثيرا . فليس كل الطير الذى يؤكل لحمه . ولحم نعيمة مر . وستجعله يدفع الثمن . ولكن نعيمة لن تتعجل الأمور ، فكل شىء مرهون بوقته .

لم تطق أم هناء صبرا على فراق عبدالوارث ، فجاءت أكثر من مرة إلى القهوة . ولم تجد حرجا فى الاعتذار إليه أمام الجميع . وراحت أم هناء وهى

تعتذر لعبدالوارث تربت على كتفه مرة وعلى ظهره مرة ، واسبغت عليه من الأوصاف ما أخجله كثيرا .. مرة وردة ، ومرة عينى ، ومرة فدوة ، واضطر عبدالوارث الذى لم تدلله امرأة من قبل إلى قبول اعتذارها ثم التردد عليها فى بيتها .. وعادت ليالى الأنس من جديد . ولكنها لم تستمر . سرعان مادب الخلاف بين صاحب القهوة وعبدالوارث . صاحب القهوة قال له :

ـ إما الست وإما القهوة ، لكن دى مع دى مش ممكن .. وقدامك أسبوع تختار . وشاب عراقى يسكن بجوار الست أم هناء افتعل مشاجرة مع عبدالوارث وصرخ فى وجهه :

ـ شوف أقولك أنا .. ياغريب كون أديب .

مشكلة القهوة تغلب عليها عبدالوارث ، فقد دفعت أم هناء (سقف قفليه) أو خلو رجل للمصرى الذى يدير القهوة . وصار عبدالوارث هو المعلم وهو صاحب الأمر ، وإن بقيت أم هناء هى صاحبة الفلوس .

ولكن بقيت مشكلة الجيران من أهل القادسية ، إنهم غاضبون لأن مصرى يعيش مع سيدة من أهل القادسية بدون زواج . ولكن الست أم هناء عرضت حل المشكلة بالزواج . الزواج ؟! ومن أين لعبدالوارث تكاليف الزواج ؟ ولكن الست أم هناء فتحت علبة كبيرة تحتفظ بها وأفرغتها فى حجر عبدالوارث . وقالت وهى تغمزه فى فخذه :

ـ يامعود ما تهتم .

ها هو عبدالوارث صار عمدة بحق وحقيق فى القادسية . له زوجة شبقة وشقية وإن كانت كبيرة بعض الشىء فى السن . وله قهوة تدر دخلا ممتازاً . وهو لايذهب إليها إلا فترة قصيرة كل مساء يلاحظ أحوالها ويراقب عمالها ويشرب كوبا من الشاى على الرصيف قبل أن يعود إلى أم هناء .

وأم هناء من أسعد منها على ظهر الأرض ، فالزوج عبدالوارث يبدو أنه لم يكن فى حياته نساء من قبل . وهو قوى كالثور ، وطيب كشجرة مثمرة ، ومطيع كعبد مملوك . وأم هناء حريصة عليه حرصها على نفسها ، وستذيقه من ألوان الحياة ما لم يكن يحلم به . وبالفعل أخذت أم هناء عبدالوارث وذهبت به إلى لندن .

ياقوة الله .. بلاد الخواجات نظيفة والناس هنا ذوق ومؤدبين ، ولكن المعيشة غالية وأم هناء تدفع كل يوم الشىء الفلانى فى اللوكاندة .. ولو الود وده لنام على الرصيف أو فى الحديقة أو فى الشارع نفسه .. ولكن أم هناء (شلبية) وتعشق الحياة اللذيذة ، وتنفق ماتملكه من أجل الاستمتاع بوقت طيب . ليست أم هناء وحدها ، ولكن كل أهل القادسية حتى أفقرهم وأغلبهم .

لا أحد فى القادسية يصبر على الجوع او يصبر على الفقر . لا يصبر إلا المصرى لحكمة يعلمها الله . يقولون إن الصبر مفتاح الفرج ، ولكن المصرى يصبر منذ عصر العمدة محمد الجمل دون أن يأتى الفرج . هل الصبر طبع ؟ ربما ، على كل حال الله عوض عبدالوارث خيرا عن صبره . وها هو فى بلاد الانجليز والدنيا كلها تضحك له وتغنى . ومهما حدث لن ينسى عبدالوارث نعيمة بنت حنكوش وافعالها السودة . ولو ملك عبدالوارث أموال وكنوز الدنيا كلها ، فلن يترك المبلغ الذى استولت عليه نعيمة . وهو يوما ما سيتفرغ للبحث عن نعيمة ، وسيعثر عليها لا محالة ، وسيأخذ حقه منها أو يذبحها بيديه ويشرب من دمها . فليس أكثر إيلاما على نفس الرجل من خيانة امرأة .

انتهى عاصم من تدريب عشرة ليبدأ فى تدريب عشرة آخرين . وبعد كل عشرة يأخذ عاصم مكافأة وأجازة . وفى البداية كان يصطحب معه نعيمة ، ولكن بعد ذلك انقطع عن هذه العادة . والسبب أنه تصادف وجود سعاد فى إحدى المجموعات التى جاء الدور عليها لتدريبها . كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، عيونها سود وشعرها قصير وعودها نحيف ، ولكنها من نوع العرسه . وكانت خفيفة ومتحركة وذكية وشقية فى نفس الوقت . وهى فى الأصل كانت الوحيدة من أعضاء المجموعات التى تفهم فى السياسة وتتحمس للوحدة . واستطاعت سعاد أن تشد انتباه عاصم فى أول جلسة ، ثم تعلق بها بعد ذلك . ثم شعر أنه لا يطيق البعد عنها ، وأن الحياة بدونها تصبح شيئاً كالماء .. بلا طعم ولا لون ولا رائحة . وعندما انتهى عاصم من تدريب المجموعة التى تضم سعاد ، اتفق معها على أن تحصل على إجازة للسفر إلى القاهرة ، وتواعد معها على اللقاء هناك .

ومضت أيام الإجازة سريعة فى القاهرة ، وشعر عاصم بأنه اكتشف حياته على يد سعاد .. وأن دقات قلبه تقول .. سعاد سعاد .. سعاد .. وتمنى لو يردد قلبها .. عاصم .. عاصم .. عاصم !!

ولو حدث هذا .. فسيكون كل ما تمناه عاصم قد تحقق فى دنياه .

وانقبض قلب عاصم بشدة ، فهو رجل يؤمن بأن الحياة لا تعطى كل شىء لأحد إلا إذا أخذت منه أشياء وهو يخشى إذا أعطت له كل شىء أن تأخذ منه الصحة أو تسلبه الحياة نفسها .

ولكن ماذا يفيد ابن آدم إذا فقد حياته نفسها مادام قد تحقق له كل ما كان يطمح إليه قبل الرحيل

وتمنى عاصم أن يتحقق له كل ما يحلم به ، وتصبح سعاد من نصيبه فى قادم الأيام .

باصى

عرفت نعيمة بما يجرى من وراء ظهرها بين عاصم وسعاد ، وقررت البنت المجربة ان تنتقم لنفسها وبطريقة لا تخطر على بال أحد .

ذات مساء ذهبت فى خطوات واثقة إلى مكتب شئون مصر بالقادسية ، ولم تجد احدا هناك إلا موظفا بسيطا يدعى (باصى) كان شكله يدعو إلى الضحك ، له عينان ضيقتان تنبىء عن نفس غشاشة وفم واسع وجبهة ضيقة ووجنتان بارزتان ، ووجه مسحوب يشبه وجه فأر .. كان الصلع قد أخذ يزحف فى فروة الرأس ، فبدا منظره اشبه بكومبارس فى رواية كوميدية يلزقه الأبطال على قفاه لانتزاع الضحك من صفوف المتفرجين ، وقدم باصى نفسه لنعيمة بأنه مسئول أمن المكتب وانه قادر على صنع المعجزات ، وانه موجود لخدمتها وخدمة أى مصرى يلجأ إليه .

كانت نعيمة قد ارتدت افضل ثيابها ، وتزوقت وتعطرت واستعدت لكسب هذه الجولة بكل ما تملك من انوثة وإغراء .

بدأت نعيمة تحكى لباصى عن وحدتها بعد أن هجرها زوجها عاصم ، وليته هجرها بالفعل ، ولكنه موجود معها وبعيد عنها فى نفس الوقت ، وهى كما يرى باصى شابة وصغيرة وفى حاجة إلى ذراع رجل يضمها ، وإلى حضن رجل يحتويها ، وإلى انفاس رجل تلفحها ، ولكن عاصم فى واد آخر بعيد ، ولو كان العمل هو الذى ابعد عاصم عنها لهان الأمر ، ولكنها سعاد .. بنت مفعوصة لا تعرف كيف ترضى الرجال ، ثم أنها بنت ملعب خطافة أزواج وخرابة بيوت ، قالت نعيمة ذلك ونهنهت ببكاء حاد وبدموع اشبه بدموع التماسيح ، وباصى طبعا بنى آدم وعطوف ، ولذلك احتضن نعيمة برفق ، والتصقت نعيمة به وهى تضغط على فخذه بساقها التى بدت ممتلئة ومستديرة وبيضاء من غير سوء ..



عندما غادرت نعيمة مكتب مصر ، كان باصى قد اصيب بالاغماء .... لم يعد باصى يدرى اين هو على وجه التحديد ، فهو لم يدخل تجربة مثل هذه من قبل ، لم يحدث فى حياته قبل الآن ان غازلته امرأة او القت شباكها عليه ، لقد كان مرفوضا تماما من صنف الحريم ، وكان هذا هو السبب فى انضمامه فى فترة مبكرة من شبابه الى حزب النهضة ، ولعل هذا هو السبب ايضا الذى جعل باصى يترقى فى سلك الحزبية حتى صار مسئولا فى مكتب مصر . صحيح انها مسئولية بسيطة ، ولكنها تتيح له استعمال سيارة خاصة بسائق ، والسكنى فى بيت تحيط به حديقة على حساب الحزب ، ثم هو ايضا يحصل على رحلة ، واحيانا على رحلتين إلى خارج القادسية كل عام ، وهى تتيح له فوق الفسحة كمية من الفلوس تساعده على المعايش ، وحققت له مشاركة قريب له فى الريف فى قطيع من الضأن ، وهاهى ذى البنت المصرية جاءت اليه فى مكتبه وعطرها المختلط برائحة جلدها جعله يدوخ ، وقد عرضت نفسها بصنعة لطافة ، فى منتهى الذكاء حريم مصر ، انهم يكتشفون الرجال بغريزتهم ، بغض النظر عن الشكل ، القادسيات حمقى ويخدعهن الغلاف الخارجى وتأسرهن المظاهر ، لايزال باصى يذكر تلك الأيام السود من حياته حين ذهب لخطبة شذى ، ووافقت الأسرة ، وبدأ باصى يتردد على بيت الاصهار ، وكان يصطحب معه دائما صديقا له هو جبار السعدون ، وكان طويلا عريضا وأنيقا وله شارب رفيع يعتنى به كثيرا إلى جانب شعره الذى يتدلى على جبهته . وبعد اسابيع لاحظ باصى فتورا من شذى ، وعندما فاتحها فى الموضوع ، بكت بشدة ، وصارحته بانها كانت على علاقة بشخص آخر ، واصيب باصى بطعنة فى قلبه ، ولكنه آثر الانسحاب من حياتها ، وكان من الممكن أن يتحمل باصى الضربة ويعاود النهوض من جديد ، لولا انه بعد اسابيع قليلة علم أن شذى تزوجت من صديقه جبار السعدون ، ناقصات عقل ودين بنات القادسية ، ولكن بنات مصر اعقل ، وتجربتهن اكبر ، وهن بالفعل كذلك ، حتى على حسب المعطيات الموضوعية وفى ضوء الواقع الحى ، ومن خلال الرؤية التاريخية نجد ان المصريات برزن فى التاريخ منذ زمن طويل ، عندك الملكة تى ونفرتيتى وكليوباترة وشجرة الدر وأم كلثوم وفاتن حمامة ، الخطر الوحيد ان ينزلق باصى مع نعيمة إلى ما لا يحمد عقباه ، خوف باصى أن تنزلق رجله مع البنت فتنزلق رجله من الحزب ويسقط فى القاع . وباصى حريص على مكانه الذى وصل إليه ، فهو موضع احترام الناس فى الشارع الذى يقطنه ، حتى الجزار

الغليظ يقطع اللحم المشفى ويذهب به بنفسه إلى بيت باصى ، وعمال الزراعة فى حديقة مكتب الحزب يشرفون على حديقة بيته ، وهو سعيد بدوره السياسى المحدود ، ولكنه ينتظر فرصة لكى يقفز الى الصفوف الأمامية ، ولم لا ، ربما يصبح مثل ابو نادية ، الذى كان مجرد عسكرى نفر فى الجيش ، ثم صار عضوا فى مجلس قيادة الثورة ، او مثل ابو علاء الذى كان يبيع الماء المثلج فى شارع الرشيد ثم صار عضوا فى القيادة القطرية ، وياسلام لو استطاع باصى أن يحقق المستحيل فيجمع بين نعيمة وسمعته الطيبة فى اوساط الحزب ، لن يورط باصى نفسه لشىء يجلب له المتاعب ، سيبذل باصى جهده كله وسيستخدم خبثه كله فى الحصول على نعيمة ، ثم يتخلص منها دون متاعب من اى نوع ، واطمأنت نفسه لهذا الحل السعيد الذى وصل إليه ، واخرج باصى من جيبه سيجارة اشعلها ، وراح يتابع حلقات الدخان التى انتشرت فى جو الحجرة وراحت تتلاشى حلقة وراء اخرى ، بينما كانت رائحة نعيمة تملأ خياشيمه وتنقله الى عالم لذيذ ..

كانت ساعة عصرية والجو خريف فى القادسية ، ونسمة هواء طرية تهب من ناحية النهر ، وعبد الوارث الذى استبدل ملابسه بملابس افرنجية ، واشترى لنفسه بدلة جديدة من اوروزدى باك ورباط عنق ثمين ، كان يجلس على مقعد امام المقهى ، وفكره سارح فى رحلة بلاد الانجليز ، لو يتعلم اللغة ، عبد الوارث ، لو يرطن بلسان ، إذن لاختار الحياة فى تلك البلاد الباردة ، ولكن كل مخلوق فى الحياة يأخذ حظه .. وحظك ياعبد الوارث فى برج السعد هذه الأيام ، فقط لو يستطيع الاعتماد على نفسه ، انه يعيش الآن فى فضلة خير الست أم هناء ، وعبد الوارث لم يتعود ان يعيش على كد النساء ، ولكنها الظروف حكمت ، والبنت نعيمة هى السبب وعلى العموم ، فكل شىء حتى الآن يسير على مايرام ، والحياة هنا أفضل منها فى الكفر .... ولكن .. هل يبقى عبد الوارث هنا إلى الأبد ؟ فهل يدفن فى هذا التراب ؟ انه تراب مسلمين على كل حال ، وإن كانت احوال المسلمين هنا ليست على مايرام ، وابتسم عبد الوارث ابتسامة خفيفة عندما تذكر أن احدهم قال له إن المسلمين هنا نوعان ، تصوروا الكفر ؟ ! المسلمون كما يعرف عبد الوارث امة واحدة ونوع واحد ، ولكن صحيح اللى يعيش ياما يشوف واللى يمشى يشوف اكتر ، وقد عاش عبد الوارث وأمعن فى المشى ... ولذلك قدر له أن يشوف كثيرا ، ولكن اغرب ما شافه عبد الوارث هو أن المسلمين انواع ، والغريب أن كل نوع يكره النوع الآخر اكثر مما يكره اسرائيل ، أم هناء تقول إنها من المسلمين الحقيقيين .. وتقسم برأس العباس فى كل مناسبة ، وعلاقتها مقطوعة تماما بجيرانها فى الشارع لأنهم

مسلمون من نوع آخر ، فى الاسبوع الأول من زواجه لها سألته : هل انت سنى ؟ وتعجب عبد الوارث من سؤالها .. وكيف يكون سنيا وهو لايحلق شاربه ولا يطلق ذقنه ؟ وفى كفر الغناوة يكرهون اعضاء الجمعية السنية ، لأنهم حنابلة اكثر من اللازم ، ولأنهم يخوفون الناس دائما بالنار وعذابها ، ولكن أم هناء بدا عليها السرور عندما سمعت منى اننى لست سنيا ، ولكن بعد ايام توسلت أن اعود اليها مبكرا ، ولما وعدتها خيرا ، قالت : احلف بالعباس .. فلما سألتها عمن يكون العباس ، ظهر الذهول على وجهها ، ولكنى لم افهم شيئا !

فجأة .. وعبد الوارث سارح في افكاره ، لمح البنت نعيمة تمشى امامه فى شارع الرشيد .. هرع عبد الوارث خلفها ، ومشى يتعقبها فى الشارع ياقوة الله ... الشكل شكل نعيمة ، ولكن نعيمة مختلفة ، آخر مرة رأى فيها نعيمة كانت ترتدى الجلباب البلدى والمنديل ابو قوية ، ولكن نعيمة التى يراها امامه الآن ترتدى ملابس خواجاتى وشعرها يشبه شعر ممثلات السينما ، هل تغيرت نعيمة إلى هذا الحد ؟ ولم لا ؟ لقد تغيرت انت الآخر ياعبد الوارث ، فصرت ترتدى البدلة وتربى كرشا . وقرر عبد الوارث أن يقطع الشك باليقين ، فعزم على ان يناديها باسمها ، ولكنه عدل عن ذلك ، ونادى عليها بشكل غير مباشر ، وصرخ قائلا : يابو نعيمة ، ولكنها بنت الفرطوس لم تهتز ولم تلتفت . عاد ينادى ... ياعبد الوارث .. ولكنها لم تهتم ، هل يمسك بخناقها ويفضحها أمام الناس ؟ هذه اللصة الشقية معتادة الأجرام ، ولكن من يدريك ياعبد الوارث ان التى تمشى أمامك الآن هى نعيمة بنت حنكوش من كفر الغناوة ولا احد سواها ؟ وتصبح كارثة الكوارث لو اتضح انها ليست نعيمة بنت كفر الغناوة ، سيأخذونك من الدار للنار ، وسيضيع مستقبلك ، وتعود للصياعة يابن بهانة ، وفكر عبد الوارث فى طريقة يكتشف بها امر هذه السنيورة التى تخطر امامه ، لقد قرر أن يتعقبها حتى بيتها ، وسيراقبها اياما ليصل الى الحقيقة ، وعندما يكتشف امرها ، سيكون لكل حادث حديث ، وصلت المرأة التى تشبه نعيمة الى بيتها ، بيت عز ، حديقته واسعة ، واشجاره باسقة ، وعلى الباب الرئيسى تكعيبة عنب تمتد عشرة امتار الى الداخل ، والفيللا التى تتوسط الحديقة من دورين ، سرعان ما سبحت فى النور بعد دخولها مباشرة ، وكان الشارع الذى يقوم فيه البيت واسعا وهادئا ، والفيلات التى على جانبيه كبيرة وشامخة ، وامام كل فيللا سيارة واحيانا سيارتان ، وألقى عبد الوارث نظرة على الشارع وحفظ المعالم جيدا

قبل أن يعود ادراجه إلى المقهى .. لو ثبت انها نعيمة ، سيكون حظه من السما ، سيقتلها ويشرب من دمها إذا لم ترد له نقوده كاملة غير منقوصة ، وسيقتل زوجها ايضا اذا وقف فى طريقه . ولكنه سيدبر الأمر بحيث لايتعرف عليه احد . ياسلام لو كان معه الولد ابو ياسر الآن ؟ لسهل له مهمته . وهو ولد ناصح وقلبه ميت ، ويستطيع أن يتخلص من كل المشاكل بطلقة رصاصة واحدة ، ولو كان لعبد الوارث قلب ابو ياسر ، لأصبح له شأن آخر .... ياترى اين هو الآن ابو ياسر ؟ هل لايزال فى سجنه ؟ إن السجن فى الفيحاء سيىء ، وهو بالنسبة للغرباء أسوأ .. ولكن من يدرى أن أبو ياسر ليس وحده ؟ ان وراءه عشرات ومئات من أمثاله ، وهم بالتأكيد سيخرجونه من هذا الجب ، المشكلة أن عبد الوارث الذى ظل يمشى وحده طول العمر ويمرق وحده ، وعندما دخل السجن لم يسأل عنه احد ولم يزره مخلوق ، ولو مات هناك ما عرف بنبأ موته إنسان ..

ألقى عبد الوارث نظرة على ساعته الذهبية ، كان الوقت منتصف الليل ، وهى اول مرة يغيب فيها عبد الوارث عن بيته منذ تزوج بأم هناء ، وشعر بالقلق ، وانتابه حزن مفاجىء فراح يحث الخطى فى طريقه الى البيت ..

العمدة

يالعثرات الزمان يايوسف يا ابن العمدة ، انتهت فترة العقوبة ، وعانيت فى سجن شبين ما لم يعانيه كلب جربان ... وتحالف ضدك السجن والنزلاء والقدر ايضا ، مات ابوك وأنت خلف الأسوار ، وانقطعت الزيارات فلم يتردد عليك فى سجنك احد بعد موت ابيك ..... ولم يفكر بنى آدم واحد فى إرسال حوالة باسمك ، وتخلى عنك الجميع وكأنك لم تكن عمدة كفر الغناوة فى واقع الأمر ..

والبنت نعيمة بنت الأبالسة عملتها فيك يايوسف ، خربت بيتك وحبستك كالفأر فى المصيدة ، وحصلت على كل ما تريد وهربت على بعيد .

ويوسف ابن العمدة لا يعنيه السجن ولا يهتم لموت الوالد ، ولكن الذى يعنيه ويهمه ويؤرقه ويغيظه ايضا هو هروب نعيمة دون أن ينال منها شيئا ، لقد رفضته فى البداية زوجا ، ورفضته فى النهاية صديقا ، وهربت بنت المركوب واختفت عن الانظار ، ولكن .... هل يهرب الانسان من قدره ؟ لو ذهبت نعيمة إلى آخر الأرض ، فيوسف لن يعتقها ، سيذهب وراءها ولو ذهبت إلى برك الغمام ... وسينفق اخر قرش فى سبيل العثور عليها ، وسيعثر عليها ولو كانت النتيجة هى موت يوسف على المشنقة او حرقا بالنار ، لم يمض وقت طويل حتى عرف يوسف ان نعيمة فى القادسية ، وهى لا تقيم هناك وحدها ولكن مع الولد أبو قصة سواق التاكسى ، وهو شىء طيب ، لان يوسف إذا عثر عليهما سيقتل نعيمة ، وسيشرب اولا من دم السواق المفترى !!

وعاش يوسف عدة اشهر فى كفر الغناوة يعد نفسه للسفر إلى القادسية ، لابد انهم فى القادسية يعرفون كل شىء عن مصر ، ولابد انهم يعرفون كفر الغناوة وبالطبع سيرحبون بيوسف عندما يعرفون أنه ابن عمدة الكفر ... يقول



بعض الذين استفسر منهم عن احوال القادسية انها تختلف عن الفيحاء ... وانها بلد تشبه مصر وبها كفور وعزب ولها عمد وخفر ومديريات ومحافظات وبلد مثل هذه لابد تعرف اقدار الناس ، وقد يستضيفون يوسف عندهم وقد تروق الحياة له هناك ، فيقيم فى القادسية ويبدأ الحياة من جديد ، وتمنى يوسف فى اعماقه لو تحققت احلامه فعاش فى القادسية على الدوام ، فكم اختلفت الحياة فى الكفر بعد سجن يوسف وموت الوالد .. العمدية طارت من بيت يوسف ، وحتى الخفراء امتنعوا عن زيارة يوسف وكفوا عن تحيته كلما التقى بهم فى الطريق . اهل الكفر لم يعد احد منهم يود يوسف او يزوره ... حتى الولد توفيق شقيقه تصرف فى بعض الأملاك بعد موت الوالد وغياب يوسف فى السجن .. الناس تغيرت يايوسف حتى الأهل والاشقاء والعيال الجدد فى الكفر لايحترمون احدا ولا يخافون من احد .. وهم احيانا يشتمون يوسف فى مواجهته دون ان يستطيع الرد عليهم او حتى الاحتجاج لانهم يشتمونه بالانجليزية ، وهو جاهل فى اللغات ولايستطيع ان يراجعهم لانه لايعرف ماذا قالوا على وجه التحديد ..

وبالطبع ستسوء الحياة فى الكفر بالنسبة ليوسف فى قادم الأعوام ، وخصوصا ويوسف لايستطيع ان يمارس الحياة إلا كعمدة ، ولا يجيد شيئا إلا الجلوس على الدكة والصياح فى وجه الغفر ، والتشويح لبقية خلق الله ، على كل حال ... الله سبحانه وتعالى يسبب الأسباب ... وربما تكون البنت نعيمة سببا فى سعادة يوسف ، ربما تكون رحلته الى القادسية هى بداية فرج الله .. ومادام فى القادسية فلاحون من مصر ، فما المانع من استخدام عمدة مصرى ... على الأقل لرعاية شئون الفلاحين المصريين .

كانت البداية سيئة بالنسبة ليوسف ابن العمدة ، عندما هبط من الطائرة القادساوية ووقف امام موظف الجوازات ، اخذ منه الموظف جوازه بلا اهتمام .. وبالرغم من انه القى نظرة على اسم يوسف فى الجواز إلا انه القى بالجواز على الأرض ، وعندما حاول يوسف الأحتجاج ، امتدت يد من خلفه وصافحت قفاه عجايب .. هل هذه اخلاق اهل القادسية .. هل يليق بابن العمدة اهانته على هذا النحو ، رُبما يكون هؤلاء الموظفون من الجهلة الذين لايعرفون اقدار الناس ... ربما كانوا من جنس آخر غير جنس اهل القادسية .. فهو يعرف ان بلاد العرب التى امتلأت خزائنها بالمال تستخدم موظفين من غير جنسها .. على العموم كل تأخيرة وفيها خيرة ، والعبرة ـ يا ابن العمدة ـ بالخواتيم وليس بالبدايات ـ وإذا كانت البداية بالنسبة ليوسف

كانت صعبة فى المطار ، فالبداية فى المدينة كانت اصعب .. اكتشف ابن العمدة أن الفلوس التى معه لاتكفى للحياة فى مكان يليق بعمدة كفر الغناوة . ولذلك خرج من فندق الى اخر حتى استقر به المقام فى الشارع .. واين ؟ بجوار قهوة ابن بهانة .

عبد الوارث صاحب قهوة ؟!

هكذا هتف ابن العمدة وهو شديد الدهشة .. صحيح ما اشبه الحياة بالساقية وما اشبه الناس فيها بالقواديس .. احيانا تهبط بها الساقية حتى تغرقها فى الماء ، واحيانا ترتفع بها حيث النور والماء والهواء ، وهاهو ذا عبد الوارث ابن بهانة صار معلما وصاحب قهوة ، واللى زاد وعاد انه يرتدى البدلة الافرنكى ويلف رقبته بالكرابته ودائما اشكال على ألوان .. وعندما سأله ابن بهانة عن السبب الذى جاء به إلى القادسية اجاب يوسف ابن العمدة :

ـ ولا حاجة ، الزهق ، الوالد مات والعمدية طارت إلى بيت العتامنة ، ولم تعد الحياة كما كانت ولا الناس مثل الناس ولذلك خطفت رجلى الى القادسية ..

وسأله ابن بهانة :

ـ وهاتشتغل طبعا ؟

ـ وأبطأ ابن العمدة فى الجواب ، ثم تمطى ، ثم تثاءب ، ثم قال :

ـ يعنى ، لو كانت شغلانة تليق

ملعون ابوه ابن بهانة لايستحى ولا يجامل ، انطلق كالمدفع الرشاش يضع النقط فوق الحروف ، فالحياة هنا فى القادسية صعبة ، والعيش هنا بمضاربة خصوصا للمصريين ، فهم هنا على قفا من يشيل ، واللى مايرضاش بالخوخ يرضى بشرابه ، وأهل القادسية يبيعون فيهم ويشترون على الكيف وعلى المزاج . وعلى يوسف ابن العمدة إذا كان محتاجا للأقامة فى القادسية أن يقبل بالموجود ، وإلا فعليه ان يرحل اليوم قبل الغد ، والغد قبل الاسبوع القادم .

وابتلع يوسف الكلام كأنه الزلط ، ولكنه احتمل سفالة ابن بهانة وقال يسأله كأن كلام عبد الوارث لم يؤثر فيه :

ـ ويعنى الواحد يشتغل ايه ؟

- فراش .. كناس ... قهوجي .. اى حاجة ..

ثم بعد فترة صمت ، عاد ابن بهانة يقول :

- أمال هتشتغل إيه يعني .. دكتور ؟!

وبدأ على ابن العمدة انه لم يسمع شيئا .. ملعون ابوه زمن ، زمن يجعل ابن بهانة الأفندى يتكلم بهذه الطريقة مع ابن العمدة .

وشعر ابن العمدة بالنار تحرق قلبه .. ولكن ما الذى يستطيع ابن العمدة ان يفعله . والذى قتل يوسف بالفعل هو العرض الذى قدمه ابن بهانة .. عندما قال له تشتغل قهوجي ... يريده للعمل جرسونا فى قهوته ... هانت ورب الكعبة .. وعندما تضطر الظروف ابن العمدة للعمل مع ابن بهانة جرسونا فى قهوته ، يصبح بطن الأرض خيرا من ظهرها ، على العموم .. يموت ابن العمدة جوعا ولا يشتغل جرسونا عند ابن بهانة ، وإذا ضاقت الحياة فى وجهه فسيعود الى مصر على اول طائرة ويدخل منزله فى كفر الغناوة ويغلق الباب على نفسه حتى يحين الأجل .. لن يسمح لابن بهانة او غيره بالسخرية منه أو الشماتة فيه ..

ولكن اين يذهب ابن العمدة من ابن بهانة وهو يعيش على فركة كعب من قهوته ... إنها اللوكاندة الوحيدة التى يستطيع النزول فيها ، فهى تتقاضى دينارا واحدا كل يوم ، واحيانا تؤجل الدفع الى ميسرة ... وابن العمدة تعرف فى اللوكاندة على حشد من أبناء مصر جاءوا مثله هروبا من شىء وبحثا عن شىء .. وهم يقبلون احط الأعمال وأكثرها مشقة بالرغم من ان بعضهم تخرج فى الجامعة وبعضهم درس الحقوق والزراعة والمحاسبة . أين هو من هؤلاء ؟ وإذا كان هؤلاء يقبلون العمل كشيالين وكناسين ، فما الذى يمكن ليوسف أن يفعله .. وعض يوسف على شفته عضة شديدة ، كأنه يريد أن يؤدب نفسه .. فهو لم يقم بأى عمل فى حياته .. حتى الزراعة لايعرف عنها شيئا .. كما أنه لايستطيع ان يفرق فى الحقل بين القطن والفاصوليا !

ولكن الواد عبد الوارث ابن بهانة جدع رغم كل شىء .. فأبن العمدة تعود الجلوس على القهوة طول الليل هربا من الرائحة الكريهة فى اللوكاندة ، والواد عبد الوارث يطلب له الشاى اكثر من مرة والقهوة احيانا ... ولا يتقاضى منه شيئا ... حاول ابن العمدة الدفع مرة ، ولكن الواد عبد الوارث داعبه قائلا :

- مش عيب ياعمدتنا .

لايزال يتذكر أن يوسف هو عمدتهم ، الخبيث ابن الخبيثة .. ولكن معلهش .. طالما انه لايتقاضى ثمن المشروبات ، ولو انه فعل لما عاتبه احد .

وذات سهرة على القهوة سأل ابن العمدة ابن بهانة سؤالا عابرا .. او هو تعمد أن يبدو سؤاله كذلك :

- البنت نعيمة اخبارها ايه ؟

ورد عبد الوارث قائلا :

- الغايب حجته معاه يايوسف ..

ايوه صحيح حجته معاه .. ولكن ذلك ينطبق على الغائب وليس على الهارب .. وتجاهل ابن العمدة ، جواب ابن بهانة .

وقال له :

- انا افتكرت عترت عليها وخدت فلوسك ..

ورد ابن بهانة فى هدوء :

- وهيه هتروح فين ؟ مسير الحى يتلاقى !

لم يشأ ابن بهانة أن يكشف لابن العمدة عن اكتشافه لبيت نعيمة ، ولا عن محاولاته للانتقام منها ، فقد عزم ابن بهانة على الانتقام منها فى صمت وفى هدوء ، ثم الخروج من الأمر كله بلا عقوبة ، ولذلك حاول فى ليال كثيرة أن يقنع يوسف بأنه ترك أمر نعيمة للسماء .. وانه ترك عوضه على الله ، كما انه لم يعد يفكر فيها على الاطلاق ، فهو لايريدها كما انها لاتصلح له .

ولكن يوسف اخطأ ذات مرة فقال لابن بهانة :

- إذا كنت انت سامحتها أنا مش هاسامحها ، وأنا إن شاء الله وراها والزمن طويل ..

وقال ابن بهانة يسأله :

- وانت مصلحتك إيه فى كده ؟

واجاب ابن العمدة :

ـ مصلحتى إزاى .. مش هيه السبب فى سجنى .

وبعد ان شرح يوسف موقفه الاخلاقى عندما اكتشف علاقة نعيمة بالواد بتاع مصر سواق التاكسى ، لم يعجبه الحال بالطبع ، وانتهز فرصة وجود الواد السواق قريب نعيمة فهجم على الدار والقى عليها درسا فى الاخلاق ، والقى على الواد السواق درسا فى المروءة .. وعندما اصر على اصطحاب الواد السواق الى دوار العمدة ، اعتدى عليه الولد بلا رحمة ثم اتهمه بإنه زور امرا بالقبض عليه .. وكانت الفضيحة والسجن !!

وتجاهل ابن بهانة الموضوع كله ، وحرص على ان يتجاهل الموضوع مع ابن العمدة كلما حاول الأخير التعرض له .

وبالرغم من ذلك كانت الحياة تمشى عادية الى ان كان مساء صيف جاء واحد من اهل القادسية وهمس فى اذن ابن بهانة بكلمة فأسرع خارجا من القهوة ، ولكنه قبل ان يغادرها اشار إلى ابن العمدة وقال له :

ـ خد بالك من القهوة لحد ما ارجع .

واتخذ ابن العمدة مكانه محل عبد الوارث .. وراح يتلقى الماركات من جرسون القهوة ، ويكتب على الورق عدد الطلبات السفرى ، وفى الفجر حاسب الجرسون وناوله اجره ، كما ناول القهوجى الذى يدير (النصبة) أجره ، ولم يشأ أن يذهب الى الفندق ومعه ايراد القهوة ، فنام على الدكة حتى الصباح .

والذى حدث فى تلك الليلة حدث مثله فى الليالى التى تلتها . لأن ابن بهانة منذ خرج من القهوة تلك الليلة لم يعد إليها إلا بعد اربعة ايام . وعندما استبد القلق بابن العمدة ، ارسل الجرسون إلى بيت ابن بهانة ولكنه لم يعد بجواب شاف .

فالسيدة القادسية قالت للجرسون ، إن عبد الوارث فى مشوار ولم يعد منه بعد ..

وعندما عاد عبد الوارث جلس بعض الوقت مع ابن العمدة . وكان مجهدا وعليلا ويتثاءب باستمرار ، ولم يطلب ايراد القهوة ولم يسأل عنه .. وعندما مد له ابن العمدة يده بالايراد وضعه فى جيبه على الفور دون مراجعة ، وطوى ورقة الحساب باصابعه ودسها فى جيبه دون ان يلقى عليها نظرة ،

وارتاح ابن العمدة لهذا السلوك الطيب من جانب ابن بهانة .. وعندما غادر القهوة لم ينس أن يمد يده لابن العمدة ويدس فيها عشرين دينارا قائلا له :

ـ دى سجايرك ؟

وعندما حاول ابن العمدة أن يرفض ، اصر ابن بهانة ، ثم قال وهو يغادر القهوة :

ـ أنا هاغيب يومين كمان ، خد بالك م القهوة ..

ما الذى يقصده ابن بهانة .. هل أصدر فرمانا بتعيين ابن العمدة نائبا له فى القهوة ، وشعر ابن العمدة بالراحة ، وتمنى لو يصدر مثل هذا الفرمان من ابن بهانة . فهى شغلة حلوة على كل حال ، وهى لا تحتاج إلى أى مجهود ، تحتاج فقط الى عين مفتوحة وإلى فم يصدر الأوامر ... إنها اشبه بالمهنة التى كان يحترفها فى كفر الغناوة .. عندما كان يوسف ابن العمدة يمارس وظيفة نائب العمدة ، ولكن .. هل العشرون جنيها هى المرتب الذى حدده ابن بهانة لابن العمدة ، إذا كان الأمر كذلك ... فهذا يعنى ان ابن بهانة سيعطيه خمسة دنانير عن كل ليلة .. اى مائة وخمسين دينارا كل شهر .. لا بأس .. ويستطيع أن ينام فى القهوة ويوفر الدنانير الثلاثين التى يدفعها كل شهر لقاء النوم فى لوكاندة يأنف النوم فيها الحمار الذى كان يستعمله يوسف فى الركوب ..

ايام كثيرة مرت وابن بهانة لم يعد الى القهوة .. ويوسف يجلس خلف المكتب يحاسب الجرسون ويراقب الزبائن ..

يالعثرات الزمان .. من كان يصدق أن يوسف ابن العمدة يهاجر من كفر الغناوة ويذهب الى القادسية ؟

من كان يصدق أن يوسف ابن العمدة يشتغل بالأجرة فى املاك عبد الوارث ابن بهانة ؟

ولكن كل شىء ممكن وكل شىء وارد .. خصوصا فى هذا الزمن !!

والأغرب ان يوسف بما هو باك منه محسود ، وأكثر غرابة ان يوسف نفسه لم يعد يشكو .. ولكنه راض ومستريح ، ويتمنى لهذا الوضع ان يدوم .. دنيا !! ■

السجن

تحققت احلام ابن العمدة بأسرع مما كان يحلم ، ذهب ابن بهانة ولم يعد ، وحضرت الست القادساوية إلى القهوة وسألت عنه الجميع ولكن احدا من الذين سألتهم لم يكن لديه علم بما جرى لابن بهانة ، وجلس ابن العمدة على باب المقهى وقد تصنع الحزن على ابن بهانة ، فى نفس الوقت كان عقله يذهب ويجيىء يفكر فى المصير الذى يمكن أن يكون قد انتهى إليه ابن بهانة .

لابد أن سيارة نقل صدمته وسحقته على الطريق ، ولابد أن احدا لم يستدل على شخصيته فدفنوه فى مقابر مجهولة ، يستحق ابن بهانة ما جرى له ، فقد تنكر لأصله وفصله ، خلع جلبابه ابن بهانة وارتدي زى الأفندية وصار واحدا منهم وهاجر من مصر وتزوج فى القادسية ويبدو انه كان ينوى ان يستقيم على هذه الأرض إلى الأبد ، كل واحد يأخذ له يومين ، وتلعب له البلية لعبتين ، وتزهزه له الدنيا زهزهتين ، ولكن كل شىء ينتهى لا محالة ، فهكذا الدنيا لا تدوم لأحد ولا تستقر على حال وليس من طبيعتها الأمان ، على كل حال .. راحت ايام ابن بهانة وستقبل ايام ابن العمدة ، ولو ابتسم الحظ اكثر فسيستولى على القهوة ويتزوج ام هناء ، ولكنه لن يستقر في هذه البلاد .. سيحاول فقط ان يجمع قرشين كويسين ، وسيحاول البحث عن نعيمة لكى يشرب من دمها ، ثم يعود الى الكفر ويحاول أن يستعيد امجاد عائلته من جديد . ولكن .. احلام ابن العمدة صدمتها انباء عن ظهور ابن بهانة ، صحيح انه ظهر فى السجن ولكنه لايزال على قيد الحياة ، وأم هناء لاتزال زوجته ، والقهوة لاتزال مؤجرة باسمه ، وحلم ابن العمدة على وشك ان يتبخر فى الهواء .. ولكن الشىء الذى كاد يصعق ابن بهانة هو السبب الذى من اجله دخل ابن بهانة السجن ، دخل ابن بهانة السجن لانه اراد أن يقتل

نعيمة ، ولكن كيف عثر على نعيمة وكيف اهتدى الى مكانها ولماذا لم يخبر ابن العمدة بسره ، ولماذا لم يستطع قتلها رغم انه تمكن من الوصول إليها ؟ ابن بهانة طول عمره خبيث ولئيم ، ولكن كل شيء انكشف الآن فهو عثر على نعيمة ذات يوم فى الشارع وتعقبها الى منزلها ثم عاد إليها ، ولكنه قبل ان يصل إليها ألقوا القبض عليه ، صحيح .. صدق من قال انه فلاح ، والفلاح يفضل فلاح ولو اكلته كل يوم تفاح .. على العموم .. المراكب لم تغرق بعد ، وابن بهانة مرمى على الأسفلت فى السجن ، ومن يدرى قد يموت هناك وإذا خرج فلن يكون ذلك قبل سنوات وسنوات ، المهم ان يحتفظ ابن العمدة بمكانه امام القهوة وأن يحاول الحصول على ثقة ام هناء .. أما نعيمة فإذا كانت قد نجت من ابن بهانة فهى بالتأكيد لن تفلت من ابن العمدة .. ومهما طال الزمان .

• • •

خيبة ابن بهانة انه بالفعل فلاح وقليل التجربة ـ ومنذ اهتدى إلى بيت نعيمة وهو دائم التردد على الشارع الذى يقع فيه البيت ، وراح يسأل الجيران عن سكان البيت وعندما عرف أن سكانه من مصر ، ايقن ان البنت التى رآها هى نعيمة بعينها ، ثم راح يتردد على البيت لكى يحدد مداخله ومخارجه ، ثم استأجر شابا من القاهرة كان قد حضر إلى القادسية لتوه من أجل العمل وكلفه بمراقبة البيت ، حتى إذا حانت لحظة تأكد انها صارت وحدها فى البيت حضر إليه لكى يقوم بالتنفيذ ، قد حدث كل شيء حسب تخطيط ابن بهانة جاءه الشاب وهو جالس مع ابن العمدة ، وهمس فى اذنه بأن الوقت قد جاء وأن نعيمة اصبحت وحدها فى البيت فقد جاء صديق إلى زوجها واصطحبه معه إلى الخارج .. وبالفعل اقترب ابن بهانة من البيت ثم دخل مسرعا من باب الحديقة ، وقبل ان يضغط على جرس الباب الداخلى كانت اكثر من يد تقبض على عنق ابن بهانة وترفعه إلى سيارة سوداء ظهرت فجأة كأنما انشقت الأرض عنها ، وانطلقت به السيارة بعد أن ربطوا عصابة سوداء على عينيه .. وبعد فترة مرت كأنها الدهر كله ، وصل ابن بهانة إلى سجنه الرهيب ، ولم يتركوه يهدأ لحظة واخذوه على الفور للتحقيق واحاط به اكثر من محقق واسئلة كثيرة متلاحقة عن اصله وعن فصله وعن قصة حياته وكما حدثت بالتمام والكمال ، وحكى لهم ابن بهانة عن كل شيء منذ نفضته أمه على تراب كفر الغناوة ودوخة ينى التى عاناها فى طفولته وفى صباه ، وسفره الى الفيحاء ولقائه مع ابو ياسر واشتراكه فى القضية والاسم الذى اطلقوه عليه ، « أبو لحاف » ..

عندما وصل ابن بهانة فى حكايته إلى هذه النقطة بالذات توقفت الأسئلة وتراخت الأيدى التى كانت تكتب الأجوبة بحماس ثم تركوه يستريح . لم يفكر ابن بهانة كثيرا فى السبب الذى جعلهم يتوقفون عن التحقيق ويسمحون له بالراحة ، ولكن الذى حيره كثيرا هو كل هذا الأهتمام الذى يبديه هؤلاء الناس بنعيمة ، وهل نعيمة صارت مهمة إلى هذا الحد .

انقبض قلب ابن بهانة عندما طاف به هذا الخاطر ، ولو صحيح نعيمة بنت حنكوش أصبح لها هذا الهيلمان فى القادسية فرحمة الله عليك يا ابن بهانة ، فمنظر القوة التى ألقت القبض عليه وطريقة المعاملة والعنف الذى صاحب العملية كلها تشبه إلى حد بعيد عملية القبض عليه مع أبو ياسر فى الفيحاء .

ولكن الذى لم يكن يعلمه ابن بهانة أن نعيمة لم يكن لها دخل فى اهتمام السلطات ، وكل ما هناك ان امر ابن بهانة علمت به المباحث منذ اول خطوة خطاها نحو الانتقام من نعيمة ، فهو عندما وصل الى الشارع الذى تسكنه وبدأ يستفسر من السكان عن هوية سكان الفيللا التى رأى نعيمة تدخلها ، بعد ربما ساعة واحدة من هذا السؤال كان الخبر عند المباحث ، فأحد الذين سألهم ابن بهانة كان عضوا فى حزب النهضة ، وكان واجبه يحتم عليه ان يرفع إلى المستوى الأعلى كل ما يثير شكوكه فى الحياة ، وتضاعف اهتمام السلطة عندما اكتشفت أن باصى يتردد على الفيللا وانه على علاقة بساكنة البيت ، ولما كان باصى ليس من النوع الذى يفتن النساء ، فلابد أن يكون وراء العلاقة سبب ما ويصبح الحذر واجبا خصوصا والطرف الآخر من مصر ، وباصى رئيس مكتب مصر ، وقد تكون نعيمة عميلة للنظام المصرى ، ولأن الامر خطير فقد تم وضع كل شىء تحت السيطرة ، حتى الولد المصرى الذى همس فى أذن ابن بهانة تلك العصرية عن وجود نعيمة وحدها فى البيت كان يعمل لحساب حزب النهضة حتى العيال المصريين الذين يعملون فى القهوة تم تجنيدهم لاحكام الرقابة على تحركات ابن بهانة ، فقد تصورت السلطة فى القادسية أن ابن بهانة يخفى سرا خطيرا وراء هدوئه الزائف .

وقضى ابن بهانة عدة اسابيع فى سجنه فى عزلة تامة ، حتى الحارس الذى كان يقف على باب الزنزانة كان لايبادله اى كلام ، حتى السؤال عن الجو او عن الوقت كان الحارس يلزم الصمت .

وكأنه لم يسمع شيئا على الاطلاق ولكن برغم الخطر المحدق بابن بهانة ، كان يشعر فى اعماقه باطمئنان من النوع الذى لا يمكن تفسيره ، فهو فى

الحقيقة لايخفى شيئا ، ولم يكن يريد شيئا سوى الانتقام من نعيمة التى اكلت تحويشة عمره ثم خانته وهربت مع عشيقها الجبان ، وحتى لو أن ابن بهانة قتل نعيمة لما حكم عليه القاضى بأى حكم على الاطلاق ، فهو الذى اعتدت عليه نعيمة ، وقد جاء الوقت لتسديد الحسابات ! ومرت اسابيع قبل ان يستدعوا ابن بهانة من سجنه لاعادة التحقيق من جديد ، وعندما دخل غرفة التحقيق سمحوا له بالجلوس لأول مرة ، وعندما سأله المحقق عن علاقته بأبو ياسر اعاد ابن بهانة قصته معه بالتفصيل ، ولكن المحقق قاطعه فجأة وسأله :

ـ هل تستطيع التعرف على ابو ياسر لو رأيته ؟

وضحك ابن بهانة .. ربما لأول مرة منذ القبض عليه ، وقال وشبح ابتسامة لايزال على شفتيه :

ـ دا لو وسط مليون اجيبه ، دا صاحبى الروح بالروح ، دا حتى كان مدينى شيك ... ولسه معايا فى البيت ..

وقال المحقق يسأله :

ـ يعنى لو شوفته دلوقت تعرفه ويعرفك ؟

ـ هو يخون العيش والملح إلا ابن الحرام ، دا عيش وملح يابيه !

هنا أومأ المحقق للحارس الذى وقف زنهارا عند الباب ، ففتح الباب المغلق ونادى بصوت خفيض ، وكانت المفاجأة التى صعقت ابن بهانة ، دخول ابو ياسر بشحمه ولحمه إلى الغرفة .

ياحظك المهبب يا ابن بهانة .. وهذا الولد النحس ـ ابو ياسر ـ جلاب المشاكل والمصايب ، وإذا كنت قد نجوت من المهالك فى المرة الأولى ، فلابد انك ذاهب فى ستين داهية فى هذه المرة ..

لا عاصم اليوم لك يا ابن بهانة من قدرك ألا الله ... وهذه النهاية التى حلت بك هى تخليص ذنوب بلا شك ... ويبدو أن ذنبك كبير ورهيب ولا يغتفر .

ولكن كيف جاء ابو ياسر إلى هنا . هل هرب من السجن ، لابد ان الحكومة هنا اتصلت بالحكومة هناك فارسلوه إلى هنا . والحكومات سمن على عسل مع بعضها وسبرها باتع كلها ، وسيلهف حكما آخر هنا ، وسيضيع ابن بهانة فى الكازوزة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وافاق ابن بهانة من سرحته البعيدة ، وكاد يغمى عليه عندما نهض المحقق واقفا وصافح ابو ياسر ، ثم مد ابو ياسر يده وجذب ابن بهانة بقوة .. ثم احتضنه بحرارة ، ثم راح يضحك بصفاء ومن القلب قبل ان يجلس على كرسى فى مواجهة ابن بهانة ، وسأله المحقق سؤالا واحدا .

ـ هو ابن بهانة .. هو ابو لحاف ...

وقال ابو ياسر :

ـ هو بعينه .. ما حدا غيره .

وكاد ابن بهانة ان ينطق لكى يشرح للمحقق انه كان ابو لحاف بدون رغبته وبدون استشارته وبدون معرفة اى شىء عما كان ينوى ابو ياسر فعله ، ولكنه قبل ان ينطق ، التفت المحقق نحوه وراح يعتذر له بشدة ، ويؤكد له أن ما حدث هو مجرد خطأ فى المعلومات ، وأن هذا الخطأ هو الذى أدى إلى الأساءة لرفيق مناضل مثل ابن بهانة .. ثم قال فى النهاية ..

ـ لن اعكر عليكما صفو اللقاء الأول بعد طول فراق ، ولذلك سأعتذر وانصرف ، واكرر اسفى واعتذارى مرة اخرى للأخ المناضل ابو لحاف .

لم يصدق ابن بهانة نفسه وهو خارج بصحبة ابو ياسر من مبنى الأمن العام الى الشارع ، لكى تنطلق بهما سيارة فاخرة تنسدل على نوافذها ستائر تخفى الذين يجلسون بداخلها عن اعين الفضوليين .

ياسلام ياناس ... صحيح ما بين غمضة عين وانتباهتها ، وصحيح ايضا أن مع العسر يسرا ، وان الصبر مفتاح الفرج ... وبالتأكيد فإن فرج الله يبدو فى هذه اللحظة اقرب مما كان يتصور ابن بهانة .

وفى السيارة راح ابن بهانة يحكى لأبو ياسر عن وضعه الطيب واحواله المعيشية التى لابأس بها ، وعن زواجه بأم هناء والقهوة التى يديرها ، وتمنى لو ذهبت بهما السيارة إلى القهوة لكى يطمئن على سير العمل فيها ، ويطمئن على أم هناء . ولكن السيارة توقفت بهما أمام مبنى اضخم من مبنى الأمن العام ، طبعا دخول الحمام مش زى الخروج منه ، لابد أن هناك تحقيقا اخر قبل ان يسمحوا لابن بهانة بأن يتصرف على هواه . ولكن ابن بهانة فوجىء به فى لوكاندة ، ياقوة الله .. كل هذه لوكاندة ، وهل هناك لوكاندات على هذا الشكل ؟ والغرفة من الداخل بها كل شىء يلزم البنى آدم ، حتى دورة المياه لا مؤاخذة داخل الغرفة ، والمدهش ان الولد ابو ياسر حى طول عمره

وصاحب مفهومية ، فلم تمض دقائق على ابن بهانة داخل الفندق حتى طرق الباب احد الخدم وقدم له حقيبة بها عدة اطقم ملابس داخلية ودشداشة وبيجامة وبعض العطور ولم ينس الولد ابن الأصول فوضع فى مظروف صغير عشر ورقات من فئة العشرة دنانير .

ودخل ابن بهانة الحمام وخرج شخصا آخر ، ونزل مسرعا إلى بهو الفندق ليجد ابو ياسر فى انتظاره . ودخل المطعم مع صديقه القديم ، وعلى المائدة راح ابن بهانة يسأل ابو ياسر عن الطريقة التى خرج بها من سجنه فى الفيحاء ، وكيف عرف بوجوده فى القادسية وفى السجن ايضا ، ولماذا اطلقوه بعد ان ظن انه فى طريقه الى حبل المشنقة ؟

واجاب ابو ياسر عن اسئلة ابن بهانة اجابات مختصرة ولكنه لم يشف غليله ، ووعده بأن يشرح له كل شىء بعد ذلك ، المهم الآن أن يرتاح ابن بهانة من عناء السجن ، وان يستعد ويعد نفسه لمرحلة جديدة من النضال تتفق وطبيعة المرحلة !

حلو الواد ابو ياسر إلا عندما يتكلم بالنحوى ، وابن بهانة يفهم بالحداقة ولكنه يتمنى لو تعلم كفاية لكى يفهم بالضبط ما يريده أبو ياسر ، المهم أن أبو ياسر استأذن وانصرف على وعد منه بالمجىء فى اقرب وقت ، ولم يطلب شيئا من ابن بهانة إلا عدم الاتصال بأحد والبقاء اسبوعا فى الفندق لكى يسترد شيئا من عافيته المفقودة ، وألا يخبر احدا على الاطلاق قصة لقائه بصديقه القديم ابو ياسر ..

وعاش ابن بهانة يتقلب فى نعيم الجنة داخل الفندق الكبير ، تكفى إشارة او نداء خافت لكى يلبوا طلبه على الفور ، والذى زاد وعاد أن ابو ياسر ترك سيارته تحت أمر ابن بهانة ، واحيانا كان يقفز ابن بهانة بداخلها ويشير للسائق مجرد اشارة فيدور به على احياء القادسية ، ودفعه الشيطان الى المرور ذات مساء على الشارع الذى تسكن به نعيمة ، وألقى نظرة على البيت الذى تقيم فيه ، وبالرغم من أن الوقت كان متأخرا ، إلا أن البيت كان يغرق فى الأضواء ، واصوات عالية تنبعث من داخله . يبدو أنها تحتفل بمناسبة ..

ومعلهش .. يمهل ولا يهمل ، وابن بهانة وراءك يانعيمة وإلى آخر الزمن وحظك المهيب أن أبو ياسر ظهر على المسرح ، وسيكون ساعد ابن بهانة فى تدمير بنت حنكوش !

أبـــو الـمـقـطـم

تبخرت الاحلام يا ابن العمدة ، وهاهو الواد ابن بهانة يعود آخر قيافة وكأنه كان فى نزهة للبندر ، والمصيبة ان الولد رغم فقره ووضاعة أصله يبدو مثل ابناء الأعيان ، بينما يوسف هو ابن اعيان بالفعل يبدو كأنه ابن شحاتين ، للدنيا تصاريف تحتاج الى فهامة كى يدرك البنى ادم سرها ، على العموم .. بعودة ابن بهانة ينبغى على يوسف ان ينسحب ، ومن الأكرم ليوسف ان ينسحب قبل ان يطلب منه ابن بهانة الانسحاب .

ولكن الذى حدث ان ابن بهانة جاء ، وجلس صامتا بجوار ابن العمدة ، وسأله عن الأحوال ، وجد ابن العمدة نفسه دون ان يدرى مندفعا فى شرح الأحوال التى اصبحت عليها القهوة ، والانضباط الذى فرضه على الجميع ، والوفر الذى حققه فى الأجور ، وراح يحكى ويعيد ، ولكنه اضطر الى التوقف عن السرد حين اكتشف ان ابن بهانة سارح فى ملكوت بعيد ، كأن القهوة لم تعد تعنيه .

وليت ظنونك تتحقق يا ابن العمدة ويكون ابن بهانة يفكر فى الهجرة من القادسية ليخلو لك الجو فتلهف القهوة وام هناء ويروق لك الجو وتحقق الأحلام .

عندما تذكر ابن العمدة ام هناء ، قطب جبينه وزم على شفتيه ، فهذه المرأة المكتنزة التى تكبره فى العمر ، عندما راح يتودد اليها فى غيبة ابن بهانة ، لم يلحظ منها اى استجابة ، حمقاء كبقية النساء ، يرغبن الرجل الطويل العريض الحلو ، مع ان الرجال اسرار ، ولكن من يدرى ، فالأمر كما



يقولون يمكن ان يتغير بالتسلط على الأذان ، الذى له احيانا فعل السحر ، المهم ان يذهب ابن بهانة فى داهية ويعود الى مصر ، كانت الشمس قد غابت وراء الأفق عندما نهض ابن بهانة مودعا ابن العمدة ، ومضى فى هدوء وراح يصدر اوامر من اى نوع لابن العمدة كأنما ترك له امر القهوة يتصرف فيها كما يشاء ، حتى عندما مد له يوسف يده بالايراد ، دسه فى جيبه دون مبالاة ، ما الذى جرى لابن بهانة فى المشوار الذى غاب فيه ؟ هل اجبروه على كتمان ما حدث له ، فلا ينطق بحرف امام الناس ؟ هل صحيح ان غيابه كان بسبب نعيمة ؟ ام لسبب اخر ؟ وإذا كان هناك سبب آخر ، فما هو هذا السبب ؟ وهل يستطيع ابن العمدة الوصول الى هذا السر فى يوم من الأيام ؟ لاشك ان كل شىء ممكن مادام ابن العمدة سيبقى مكانه فى القهوة وبالقرب من ابن بهانة الذى تغيرت احواله كثيرا هذه الأيام ، الوقت فى صفك يا ابن العمدة والصبر سلاحك ، وفى النهاية ستنجح فى الانتقام من الجميع .

● ● ●

وقف ابن بهانة يتطلع إلى المكان الذى سيلتقى فيه بأبو ياسر ، كان المبنى ضخما وتحت الحراسة المشددة ونوافذة كلها مغلقة ، والصمت يلفه ، كأنه مهجور منذ أمد طويل ، الولد أبو ياسر صاحب وظيفة كبرى بلا شك ، وسره باتع هنا فى القادسية ، بعكس الحال الذى كان عليه فى الفيحاء ، ولولا ذلك لما استطاع إخراجه من الورطة التى وقع فيها بسبب نعيمة بنت حنكوش ، طرق الحارس الذى صحب ابن بهانة داخل المبنى على احد الأبواب ، ثم فتح الباب ودعا ابن بهانة إلى الدخول ، ورغم ان جو الحجرة كان معتما ، إلا أن عينه التقطت على الفور ابو ياسر وهو جالس خلف مكتب ضخم وأمامه شخص آخر هب واقفا فى عجلة شديدة عندما هم ابو ياسر بالوقوف .. كل هذه الأملة يا ابو ياسر ؟ ما الذى غير احوالك من النقيض الى النقيض ؟ من ولد صايع ينام فى الخرابة فى صحراء الفيحاء إلى مستوظف كبير ومكتب فخم ، وسعاة وحراس ... ما صادفه ابن بهانة فى الغربة سيجعله اشبه بالمجنون .. وقطع عليه افكاره صوت ابو ياسر وهو يرحب به فى مكتبه ، ويناديه بالمناضل .. لو يعرف ابن بهانة فقط معنى المناضل ، لارتاحت نفسه ، فهو يخشى أن تكون كلمة من نوع التريقة على عباد الله . جاءت القهوة العربية وارتشفها ابن بهانة على عجل ، واستأذن الرجل الجالس وانصرف . ودخل ابو ياسر فى الموضوع .. وفاجأ ابن بهانة بقوله :

- انت ايه اللى بينك وبين البنت نعيمة دى ؟

وحكى ابن بهانة قصته مع نعيمة وكيف استولت على شقا العمر وهربت مع الواد ابو قصة الذى يعيش معها الآن . وظهر على ابو ياسر عدم الأهتمام ، وانتهز فرصة توقف ابن بهانة عن الكلام لحظة وقاطعه قائلا له :

- أنا عاوزك تنسى الحكاية دى .. وتنسى نعيمة كمان .

فقال ابن بهانة :

- انسى .... انسى إزاى .. بقولك سرقت شقا عمرى .

وقال ابو ياسر وهو ينقر بإصبعه على المكتب :

- الفلوس مش مشكلة يا ابو لحاف .. هتاخدها وزيادة شوية كمان .

أنا عاوزك دلوقت تنسى الموضوع ده خالص ... علشان نلتفت للأهم ..

بردت نار ابن بهانة عندما سمع ابو ياسر وهو يعده بارجاع الفلوس التى ضاعت .... ابو ياسر ولد جدع طول عمره ... وإذا وعد أوفى .. ولكن ما هو الشىء الأهم الذى يعنيه ابو ياسر ؟ وعاود ابو ياسر الحديث فقال :

- إنت راح تنسى الموضوع كله .... هذه نصيحة يا ابو لحاف من واحد بيحبك .. ثم اللى زيك ما اتخلقش علشان هذه الأمور التافهة .. كما إن إحنا قدامنا قضية لازم نهتم بيها .

وكاد ابن بهانة يلطم على خديه عندما سمع كلمة القضية ...

تانى ؟ وهل هناك قضية اخرى غير التى كانت فى الفيحاء ؟ أم هى قضية واحدة وممتدة إلى كل البلاد ؟

ونهض أبو ياسر فجأة وجذب ابن بهانة من يده وخرجا معا وسارا فى ممر طويل يفصل بين مكاتب كثيرة ، ثم طرق ابو ياسر على احد الأبواب وفتحه ودخل وتبعه ابن بهانة ، حيث كان هناك رجل فى منتصف العمر يجلس خلف مكتب يشبه مكتب ابو ياسر ، وتبين من لهجته انه من مصر ويدعى عبادة .

وقدم ابو ياسر الرجلين بعضهما الى بعض .. ابو لحاف .. ابو المقطم .

وبعد ان شرب الجميع اقداح الشاى التى جاءت على عجل ، قال ابو ياسر على الفور :

- من الآن سيكون ابو المقطم مسئولك ، وستعمل معه مباشرة ، ولكنك لن

تداوم هنا ... ستداوم فى موقع آخر ، وقد احتطنا للأمر فقررنا تغطية العمل الثورى الذى سنقوم به بعمل تجارى لايثير الشبهات ، وانشأنا شركة كهرباء ، وسيكون لها هدف تجارى وهدف قومى .... أما الهدف التجارى ، فسيكون من مهام الشركة مد خطوط الكهرباء فى ريف القادسية ، وسيكون منصب ابو لحاف فى الشركة هو مدير العلاقات العامة ، أما ابو المقطم فسيكون هو المدير العام ، أما رئيس مجلس الادارة فسيتم التعارف به فيما بعد .. وعندما يحين الوقت المناسب للكشف عن هويته ، سيظل أمره فى طى الكتمان لدواع أمنية ولمصلحة العمل القومى الذى نقوم به .

لم ينبس ابن بهانة بحرف ، إنه منذ رأى ابو ياسر للمرة الأولى عند المحقق وهو يكاد يفقد عقله من المفاجآت التى تتوالى عليه بلا مقدمات ، هل هو فى حلم ؟ وماذا سوف يفعل فى شركة الكهرباء وهو لايجيد تركيب لمبة ؟ ثم كيف سيكون مديرا وهو لم يمارس فى حياته إلا الفلاحة ثم اشتغل خفيرا فى الفيحاء ، ثم صاحب قهوة فى القادسية ؟ وشغلة المدير تحتاج الى رجل متعلم .

وعندما صارح ابن بهانة ابو ياسر بما يجول فى نفسه ، قال له ابو ياسر فى بساطة :

ـ اعلم يا ابو لحاف أن الحياة تقوم اساسا على فعلة ومفكرين ومنظمين ، أما الفعلة فهم موجودون بكثرة ، وهم ليسوا فى حاجة إلى اكثر من عضلات ، أما المفكرون فهم زبدة الحياة ، ولكنهم ليس لديهم قدرة على التنظيم ، وهنا يأتى دور السياسى الذى يجيد التنظيم ولا يجيد شيئا آخر .. ولما كان التنظيم هو العملية الرئيسية ، لذلك كان لابد ان يكون المنظم هو الريس ، وأنت يا ابو لحاف سياسى حتى النخاع وإن كنت لاتدرك ذلك ، ينقصك فقط بعض التربية السياسية ، وسنوفرها لك خلال عملك فى شركة الكهرباء ، وبعدها ستصبح قائدا فذا ليس له مثيل .

عندما غادر ابن بهانة المبنى الكبير فى صحبة ابو ياسر ، كان لايزال يفكر فى المستقبل الغامض الذى حشره ابو ياسر فيه .. وهو يخشى أن يكون لديه فى شركة الكهرباء موظفون ومهندسون ، وقد ينكشف جهله امامهم ويصبح مهزأة للجميع ، لماذا شركة الكهرباء ؟ ولماذا لانخدم القضية فى السر كما كان الحال فى الفيحاء ؟ واوشك ان يعرض على ابو ياسر اقتراحا آخر ، بأن يتركه مكانه فى القهوة ويشركه معه فى القضية على اى نحو ، ولكن السيارة

التى كانت تنتظرهما عند الباب كانت اسرع اليهما من محاولته ، وانطلقت بهما معا فى شوارع القادسية حتى توقفت عند احدى الفيلّات ، وتصور ابن بهانة انه مدعو للغداء على مائدة ابو ياسر ، ولكن ابو ياسر نزل وحده من السيارة وقال لابن بهانة الذى كان لايزال داخلها :

ـ من الآن هذه سيارتك .. وهى تابعة لشركة الكهرباء .. والرفيق الذى معك ..

ـ واشار نحو السائق ـ هو سائقك وحارسك معا ..

ثم مد يده فى جيبه واخرج بطاقة تحمل اسمه ورقم تليفونه وناولها لابن بهانة قائلا :

ـ قد أغيب عنك بعض الوقت ... ولكن إذا أردت ان تستفسر عن شىء عاجل فاتصل بى عن طريق التليفون وسأدبر وقتا كى ألتقى معك .

ثم اشار للسائق الذى انطلق بالسيارة ولم يتوقف إلا امام بيت أم هناء .

لم يكن ابن بهانة مع ام هناء فى واقع الأمر ، كان فى مكان آخر بعيد رغم المحاولات التى بذلتها ، اصبحت يا ابن بهانة تركب سيارة ولها سواق ، والأكادة إن عساكر المرور يضربون لها تعظيم سلام كلما مرت بهم ، لابد انهم يعرفون السواق ، فهو ولد حرك وفاهم ومفتوح العين ، واغلب الظن انه كان عسكرى مرور قبل ان يتحول الى سواق ، وهو يعرف جميع الطرق كأنه هو الذى انشأها ، وهو متعصب لسيارته لايدع احدا يسبقه ، وإذا سبقه احد إنهال عليه بالشتائم ، وبالرغم من انهم يسمعون شتيمتهم إلا أن احدا منهم لم يجرؤ على أن يرد عليه . وعندما ذهب ابن بهانة مع السواق لأول مرة إلى شركة الكهرباء ، فارقته وساوسه القديمة ، فلم يكن هناك مهندسون ولا موظفون ، لم يكن هناك سوى مهندس واحد طويل كما الباب ، سمين كما فحل جاموس ، وكان بالشركة قاعة ضخمة تتسع لمائة إنسان ، كان يجلس بها عشرة اشخاص ، وهذا المهندس الجاموسى يشرح لهم اشياء ، وجلس بينهم ابن بهانة بعد إلحاح شديد ، ولم يفهم منهم شيئا سوى كلمات تطايرت من بين افواههم مثل لامبرياتيلية والرجعية والوحدة العربية ، ثم خناقة حامية حول من يمثل مصر فى مؤتمر يبدو انه سيعقد فى بلد بعيد ، ثم عندما هم بالأنصراف . خرجوا جميعا خلفه وشيعوه بكلمات رقيقة ، ونادوه جميعا بالمناضل .. نفس الوصف الذى وصفه به ابو ياسر وهم جلوس بمكتبه الفخيم ، ولكن الذى اثاره حقا وجعله يكاد يطير من فوق الأرض إلى الطبقات

العليا فى الفضاء الفسيح هو الخبر الذى نقله إليه باشكاتب الشركة ، وهو مصرى ايضا .. فقد قال له إن مرتبه عن عمله فى شركة الكهرباء هو الف دينار كل شهر ، ومن حقه تحويل ثلاثة ارباعه الى دولارات إذا أراد ....

إذا أردت ؟ حلوة دى .. طبعا يريد ، والفلوس التى لهفتها بنت حنكوش يمكن استردادها بعد شهور قليلة ، عفارم عليه الولد ابو ياسر ، يعرف كل شىء حتى شفاء النفوس ، الآن تستطيع يا ابن بهانة أن تنسى نعيمة وتنسى فعلتها الشنعاء ، فلم يغيظك منها ألا أنها هبرت الفلوس ، ملعون ابوها ، فهى بالتأكيد لاتستحقه ، ربما لو تزوجها لعطلته عن خدمة القضية ، وربما صرفته عن العمل الذى لابد أن ينتبه إليه ، ولكن ماهو عمله على وجه التحديد ؟ إنه حتى هذه اللحظة لايعرف نوع العمل الذى سيؤديه . يبدو ان هذه هى القضية التى يجب ان يسعى ابن بهانة الى حل ألغازها ، فهو لايعرف حتى هذه اللحظة ما الذى يريدونه على وجه التحديد ، يقولون خدمة القضية ، ولكن ماهى القضية ؟ وعندما نهض ابن بهانة من نومه مذعورا ، وجد ام هناء على مقربة منه وقد بدأ عليها القلق الشديد ، وسألته وهى تمسح على شعره فى حنان شديد :

ـ ما الذى جرى لك ؟ هل تخفى عنى شيئا ؟ ونظر إليها ابن بهانة ثم امسك جبهته بيده ولزم الصمت !..

الـكـهـــر بـــاء

ولان باصى كان لايشرب إلا بإذن من الحزب ، ولا يذهب الى المرحاض إلا بإذن من المستوى الأعلى ، فقد بادر كعادته إلى الاتصال بالقيادة شارحا لها فى تقرير طويل ماجرى من نعيمة اثناء زيارتها له فى المكتب .... والمح إلى دعوتها له باللحاق بها فى منزلها ، وحرص باصى على المرور على هذه النقطة بالذات مرور الكرام ، حتى لايلفت نظر رؤسائه إلى نعيمة فينهونه عن الذهاب إليها ويذهبون هم إليها كما حدث فى مرات كثيرة سابقة .

ولكن لان باصى دنىء ايضا ، ولأنه لم يعرف من صنف النساء إلا من كانت لها حاجة عنده ، فقد خطف رجله الى بيت نعيمة قبل أن يصل اليه توجيه القيادة بالسلوك الذى يجب عليه أن يسلكه معها ، واستقبلته نعيمة بما لديها من خبرة طويلة كأنثى مدربة وعالمة بمعدن هذا الصنف من الرجال الضباع .

ارتدت ثوبا انيقا شفافا ، وتعمدت ان تضع ساقا على ساق فى مواجهته ، وقد رفعت ذيل فستانها إلى مافوق الركبة ، وراحت تشكو له حالها مع زوجها ، وكيف انه هجرها من اجل بنت مفعوصة لا تعرف حرفا واحدا من قاموس معاملة الرجال ..

واصيب باصى بالدوخة تحت تأثير الروائح العطرية التى انبعثت من نعيمة ، وشعر ببرودة شديدة عندما تذكر المستوى الأعلى والعقاب الذى يمكن ان يناله إذا خرج عن النص المكتوب ، او تحرك خارج الميزانسين الذى رسمه المخرج .

وباصى بالرغم من انه جبان وحقير ، فإنه تعلم الحكمة من رأس الذئب

الطائر ، وهو لايزال يذكر مأساة رئيسه فى الحزب كنعان الدهشن ، الذى اختفى من الحياة لأنه اختلف مع رئيسه ابو زياد فى حب امرأة حلبية ، كانت ناعمة ورائعة الجمال ، ولذلك اثر باصى الانسحاب فجأة متعللا بأن لديه موعدا هاما فى القيادة يتوقف عليه مصير البلاد والعباد .

مضت ايام طويلة وباصى يتمنى ان يموت ويجالس نعيمة مرة اخرى ، ومرات كثيرة ذهب فى الليل الى الحى الذى تسكنه ودخل الشارع الذى يقع فيه بيتها ، وفى احيان كثيرة همس له شيطانه ان يقتحم البيت ضاربا عرض الحائط بتعليمات القيادة ، ولكن جبنه الغريزى كان يمنعه فى آخر لحظة ، وعندما تلقى باصى امرا بعد اسابيع بالذهاب إلى مقر القيادة ومقابلة مسئوله الأعلى ، ايقن انه قد يذهب فى الكازوزة من اجل هذه الزفت نعيمة ، وعندما ذهب فى مواجهة رئيسه وبدأ الحوار .

تأكدت ظنونه وايقن انه هالك لا محالة . فقد سأله عن السبب الذى من أجله ذهب الى نعيمة دون إذن من القيادة ، صحيح انه لم يلبث فى الداخل سوى عشر دقائق ، ولكن كان على باصى ان يرفع تقريرا الى المستوى الأعلى بهذه الزيارة التى لم يكن لها ضرورة على الاطلاق ، وعندما بدأ باصى يشرح موقفه وسبب زيارته المفاجئة لنعيمة ، قاطعة المسئول قائلا له :

ـ إذهب الى نعيمة وحاول توطيد علاقتك بها ، ولكن احرص على ان يكون الهدف الرئيسى هو تعميق الهوة بينها وبين زوجها . فنحن نريده وحده ، ونجاحك فى هذه المهمة يتوقف على السرعة فى إنجازها . فمصر كما تعلم هى شغلنا الشاغل الآن ، وعلينا ان نسرع بقدر المستطاع لكى ننتهى من احتوائها فى اقرب وقت .

وحاول باصى أن يتكلم ولكن الرجل الكبير استأنف الكلام :

ـ وتستطيع أن تعدها بأى شىء ، ولا جناح عليك ، المهم أن تقنعها بأنك قادر على أن تحقق لها المعجزات .

وفتح الدرج الذى امامه واخرج منه رزمة اوراق مالية وضعها امام باصى وقال :

ـ هذه خمسة آلاف دينار دفعة اولى تحت الحساب ، لزوم شراء هدايا لنعيمة ولا تكن بخيلا ، وانفق عليها كما ينفق الرجال الأكابر ، ولا تنتظر



مستندات صرف ، يكفى ان تقدم لنا كشفا بمصروفاتك ، وإذا احتجت إلى مبالغ أخرى يكفى ان تخطرنا لكى تحصل على ما تريد .

ثم ضرب المائدة بأطراف اصابعه وقالَ وهو يسدد إصبعه آلى وجه باصى :

ـ المهم هو تحقيق النجاح فى مهمتك . آما إذا فشلت ..

وسكت المسئول عن الكلام .. فقال باصى وهو يبلع ريقه ..

ـ لن افشل وسأكون عند ظنك وظن الحزب و ..

وقاطعه المسئول ..

ـ طبعا هناك هامش للفشل يقبله الحزب من كوادره . وفشلك وارد ومغفور له . ولكن بشرط ألا يكون لتأثير نعيمة عليك دخل فى هذا الفشل . وأنا احذرك ان تنسى المهمة الأصلية وتتجاهل الهدف الرئيسى وتقع فى غرام نعيمة . خصوصا والمعلومات التى عندى تؤكد انها جميلة وتتمتع بشخصية قوية وصاحبة خبرة طويلة فى معاملة الرجال ..

وحاول باصى الكلام ، ولكن المسئول وضع حدا للمقابلة عندما هب واقفا وازاح الدنانير باطراف اصابعه فى اتجاه باصى الذى تناول المبلغ فى هدوء ، ثم استأذن فى الخروج ، وقبل آن يأذن له ، قال له محذرا :

ـ إذا فشلت بسبب تأثير نعيمة فستكون نهايتك بلا شك .... فلا تحرجنى لاننى لن أستطيع أن اخدمك ...

وهز باصى رأسه وقد شعر ببرودة تسرى فى جسمه . وانصرف بعد ان وضع النقود فى جيب الجاكتة . وراح يجر رجليه جرا فى الممر الطويل ، لقد اراد ان تكون له علاقة بنعيمة ، وهاهى ذى الفرصة جاءت اليه وبأمر من فوق ، ولكنه لن يستطعم هذه العلاقة ولن يسعد بها فتحذير المسئول سيجعله اشبه بأرنب يعدو باقصى سرعته فى المروج التى يعشقها ولكنه لايشعر بها لأن ثعلبا يطارده من الخلف .

● ● ●

توثقت العلاقة سريعا بين باصى ونعيمة ، اصبح يشاهد معها فى المطاعم الراقية وفى الفنادق الفخيمة ، وباصى تحت امر نعيمة ، رغباتها اوامر .

وطلباتها مجابة مهما كانت ، ونعيمة ألفت باصى رغم شكله الذى يوحى بأنه خادم ، أو سواق ، فهو طيب القلب ، وهو كريم يغدق بغير حساب ، كما انه يشعر امام نعيمة بضآلة لا حد لها ، يكفى ان تمر نعيمة بيدها على رأسه حتى يكاد يغمى عليه ، ويظل فترة ساهما فاغرا فاه دون أن يتكلم كلمة واحدة ، ولكن نعيمة تفسد الجو احيانا بالحاحها الشديد على ضرورة الانتقام السريع من زوجها ومن عشيقته المثقفة التى لا تساوى فلسا واحدا فى سوق النساء .. وباصى يطمئن نعيمة بأنه يحتاج الى وقت لكى ينتهى من نسج خيوط المؤامرة التى ستؤدى بزوجها إلى السجن ، وربما إلى ماهو أسوأ من السجن ، وهو يحاول اقناع نعيمة بأن تبدأ هى الخطوة الأولى فتهجر بيت الزوجية وتسكن فى بيت افخر فى حى ارقى وله حديقة تمتد على ثلاثة افدنة تزخر بكل انواع الأشجار ، ولكن نعيمة مترددة فى اتخاذ هذه الخطوة ، لأنها بالرغم من كل شىء لاتزال تحب عاصم ، وظهر الغضب على وجه باصى عندما اكدت نعيمة حبها لعاصم ، وعندما لمحت نعيمة آثار الغضب على وجهه ، اقتربت من باصى وراحت تهمس فى اذنه بانها وإن كانت تحب عاصم ، إلا أنها تعز باصى كأخيها سواء بسواء ، شعر باصى بأنه يختنق وان خناجر كثيرة تطعنه فى صدره ، فأستأذن فى الأنصراف لامر هام ، بالرغم من انه كان على موعد مع نعيمة لقضاء السهرة ، وقضى باصى ليلته يتقلب على الفراش وينفخ من شدة الغيظ ، هذه البنت المجنونة لاتزال على حبها لعاصم . ولكن ماذا يضير باصى إذا كانت تحب عاصم أو تكرهه ؟ وباصى ليس فى رحلة حب ، ولكنه فى مهمة حزبية ينبغى أنجازها وعلى الوجه المطلوب .. وباصى ـ حكمة الله ـ أخذ من الحياة اضعاف ما كان يطمع فيه ، ولكن باصى يشعر بالحزن بالرغم من انه سبق جميع اقرانه ، حتى الذين كانوا يتقدمونه فى الجاه وفى الدراسة ، وهو استطاع ان يتقدم بسرعة البرق فى صفوف الحزب ، وصار له نفوذ يتمناه الكثيرون ، ولديه من المال ما يكفيه للعيش الرغد ، ولو امتد به العمر إلى ارذل العمر ، ولكنه كان

يتمنى فى اعماقه لو كان عاملا من منتسبى السكة الحديد ، أو قصابا يبيع اللحوم ، او صيادا فى الأهوار ، ويجرب مرة واحدة فى العمر ان تقع امرأة واحدة فى غرامه ، وان تهجر الدنيا كلها من أجله !

على العموم .. ملعون ابو صنف النساء جميعا ، فهو شاهد على هيافة عقولهن وسطحية افكارهن ، وهو مع نعيمة فى مهمة ولابد من إنجازها بعيدا عن العواطف والنزوات ، وشعر باصى بخوف عندما تذكر كلمات مسئوله وهو

يحذره من الفشل بسبب تأثير نعيمة عليه ، لن يكون لنعيمة تأثير عليك ياباصى ، ولن تفرط فى مستقبلك بسبب امرأة ، حتى ولو كانت هذه المرأة هى نعيمة اللعوب ذات الجلد المشدود ، والعيون السود التى يغرق فى بحرها جيش بأكمله من الاشاوس !

• • •

كانت العلاقة قد توطدت اكثر بين عاصم وسعاد ، عندما جاء إلى عاصم من يخبره بأنه اختير مديرا عاما لشركة الكهرباء كانت مفاجأة لعاصم الذى لم يكن قد عمل من قبل فى اى مكان له علاقة بأعمال الكهرباء ، ولكنه سر كثيرا عندما ابلغوه أن باستطاعته أن يختار من بين المسئولين الذين دربهم من يعاونه فى اعمال الشركة ، وأن فى استطاعته ايضا ان يختار موظفى مكتبه من بين هؤلاء المتدربين ، ولم يفكر عاصم كثيرا ، اختار سعاد لتصبح مديرة لمكتبه ، واختار بعض الشباب الذين توسم فيهم الجدية والانضباط ، ولم يضيع وقتا كثيرا ، بدأ العمل من مكتبه الفخم بالدور الثالث بشركة الكهرباء بينما كان ابن بهانة يجلس فى المكتب المشابه فى الدور الثانى ، وبالرغم من اجتماعهما معا فى الأجتماع التمهيدى الذى ضم جميع القيادات ، فإنهما لم يتعرفا على بعضهما ، ولم يكن ابن بهانة قد رأى عاصم فى حياته ، ولم يكن عاصم قد عرف ابن بهانة وإن كان قد سمع عنه ، وكان الأجتماع للتعارف ولوضع الخطوط العامة لتنظيم العمل بالشركة ، ولما لم يكن هناك عمل على الاطلاق ، فقد اكتفوا بشرب الشاى ، وحتى عندما بدأ كل منهم يقدم نفسه للآخرين ، اكتفى عاصم بتقديم نفسه من أنه من القاهرة واكتفى ابن بهانة بذكر اسم المحافظة التى جاء منها ، ثم انفض الاجتماع حتى تستكمل الشركة كوادرها ، خصوصا فى وظائف الأدارة العليا ، ولم يكن رئيس مجلس الادارة قد وصل إلى القادسية بعد ، وهو رجل احيطت شخصيته بستائر من الكتمان ، وقيل لهم إنه كان احد المسئولين البارزين خلال فترة المد القومى فى مصر ..... أما نائبه فقد قيل لهم إنه من رجال الصناعة البارزين فى مصر ، وان الأثنين معا سيكونان على رأس الحكومة الجديدة التى ستأتى بها الثورة الشعبية فى القريب ...

وراحت سعاد تخمن بمساعدة عاصم لتصل إلى حقيقة هذين الشخصين . سعاد قالت إنه ربما كان أحد الضباط الأحرار الذين ظهروا مع الثورة ، وبعضهم انقلب عليها فى بداية الطريق ، ولكن عاصم استبعد هذا الأمر ، وتصور انهما ربما كانا من السياسيين القدامى الذين تولوا أمر مصر فى فترة

ما قبل الثورة ، أما ابن بهانة فقد تمنى ان تكون الشخصية المصرية المنتظرة هو مدير الأمن فى محافظته ، فهو رجل طيب ، وكانت تربطه به علاقات قوية ، وهو الذى دبر له عقد العمل الذى سافر به إلى الفيحاء ، لو جاءت به الصدفة الى القادسية ، فسيشعر ابن بهانة بالأمن فى مهمته الجديدة ، خصوصا فى مسألة القضية التى فاتحه فيها ابو ياسر ، ويخشى ابن بهانة ان تنتهى به الأمور الى السجن كما حدث معه فى الفيحاء ولكن هل من المعقول ان يذهب ابن بهانة الى السجن وابو ياسر فى هذا الوضع الخطير ؟ ولكنها طبيعة الأيام ، وربنا يكفى ابن بهانة شر المستخبى !

التسجيلات

كان يوم الاجتماع الكبير فى شركة الكهرباء يوما مشهودا ، اجتمع ابن بهانة على مائدة واحدة مع عاصم .. سواق التاكسى الذى خطف حبيبة القلب ومع عبادة الكهربائى الذى يشبه التور طولا وعرضا ، ومستعد لخيانة امه فى اى لحظة وبأى ثمن .. وعلى نفس الطاولة جلس باصى الذى عهد اليه بمتابعة نعيمة ، وجاء ابو ياسر وش الخير الذى يفتح السكك المقفولة ، وجاء أخيرا الرجل المهم ، الذى سيقود المسيرة ، وحدق ابن بهانة فى وجه الرجل ، فأكتشف انه يعرفه ، فهذا الرجل كان عضوا يوما ما فى الاتحاد الاشتراكى ، وكان عالى الصوت غليظ النبرة ، طافيا على السطح منذ ايام هيئة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى ، ولولا الحظ النحس والعين الحاسدة لكان له شأن كبير فى حزب مصر وفى الحزب الوطنى ، ولكن الظروف النحس وحدها هى التى جرجرته الى قضية مراكز القوى ، وبعد عدة اشهر فى السجن ، ترك القاهرة وطاف بالعالم العربى يبحث عن رزقه حتى استقر به المقام أخيرا فى القادسية ، وهو الآن يثبت وجوده ويبرهن على كفاءته ، وقد صار رئيسا لمجلس ادارة شركة الكهرباء وزعيما للحزب العربى القومى ، الذى سيحقق الوحدة ، حيث لا وحدة بدون مصر ، كما قال الرفيق باصى وهو يقدم الرفيق ابو كمال ، وهو الاسم الحركى لقائد المسيرة القومية الكهربائية ، وقال الرفيق ابو كمال :

– سنعمل جميعا تحت مظلة الحزب العربى القومى من أجل اعادة مصر كما كانت من قبل ، ثم شرح فكرة إنشاء شركة الكهرباء فقال :

– وكما تعلمون فإن اى حركة سياسية فى حاجة الى الرجال والمال والسلاح .. والرجال موجودة والحمد لله ، والسلاح متوفر بفضل الاصدقاء ،



اما المال فقد رأيت من غير اللائق أن نطلبه من الاصدقاء ، لاننا إذا طلبناه ، قد نجد حرجا فى تنفيذ سياستنا الخاصة ، ولذلك نجد من الافضل ان نؤسس هذه الشركة ، ومن ارباحها استطيع أن انفق على كل اوجه النشاط .

ثم راح يوزع المسئوليات .. عاصم لشئون التنظيم ، عبادة للشئون المالية ، ابو ياسر للاتصال الخارجى ، باصى لشئون الامن ، ابن بهانة للتنظيم العسكرى ، والتفت ابو كمال لعاصم وقال له :

ـ ستعتمد فى التجنيد على الأفراد الذين تم تنظيمهم من بين المصريين فى الشركة التى كنت تعمل بها .

ثم التفت الى ابن بهانة وقال :

ـ وانت ستكون مسئولا عن عمليات التدريب وقد تقوم بقيادة بعض العمليات الفدائية داخل مصر وخارجها .. حسبما تقضى الضرورة ، ونحن نثق فى قدرتك ، فأنت كما اعترفت حاربت فى فلسطين ، ولديك خبرة سابقة فى منازلة العدو .

ثم وعد الجميع بالاجتماع مرة كل شهر على الأقل ، وقبل أن ينفض الاجتماع ، استأذن عاصم فى كلمة ، وعندما أذن له ابو كمال تساءل عاصم عن ملكية الشركة ولمن تكون ، وابتسم ابو كمال ابتسامة صفراء ووصف سؤال عاصم بأنه سؤال وجيه ، ثم طلب منه ان يقدم اقتراحا بالشكل الذى يراه مناسبا للشركة ، واندفع عاصم يدلى بإقتراحه عن الشكل الامثل لادارة مثل هذه الشركة .

ـ أنا رأيى منعا للشبهات وقطعا للألسنة السوء أن تكون ملكية الشركة لاربعة من الشباب ، وان يكون لأثنين منهم حق التوقيع على الشيكات .

ورشح عاصم ابن بهانة وسعاد واى اثنين آخرين من بين صفوف الشباب الذين سيضمهم الحزب العربى القومى .

وابدى ابو كمال ارتياحا شديدا لاقتراح عاصم واثنى عليه ، وقال وهو يسدد اليه نظرة اعجاب :

ـ الآن استطيع أن اقول ان لدينا قيادة جديدة بوسعها أن تقود المسيرة عندما يحين الوقت لأمثالنا لكى يتقاعدوا بإذن الله .

وانتهت الجلسة بجو عاطفى للغاية ، ووقف ابو كمال يصافح الجميع وهم يخرجون من القاعة ، ولم يبق معه فى النهاية إلا عبادة الذى نظر الى ابو كمال وقال له :

ـ إيه رأيك فى الكلام اللى قاله الواد عاصم ده ؟

وابتسم ابو كمال ابتسامة صفراء وسأل عبادة بدوره :

ـ إيه رأيك انت ؟
واندفع عبادة كالثور الهائج :
ـ ده كلام واحد مزقوق .
ورد ابو كمال :
ـ مش مشكلة .
ـ مش مشكلة ازاى ؟ هو ده اللى اتفقنا عليه ؟
ـ ودا ماله ومال اللى اتفقنا عليه .
ـ مش سامعه بيقولك اربع شبان .
ـ ولما كل واحد يقول اللى على كيفه .. فيها آيه ؟
ـ يعنى فى رأيك مافيهاش حاجة ؟
ـ ياعبادة انا عاوزك تهدأ ، مش كل واحد يقول كلمة تقوم تفلت اعصابك بالشكل ده .
ـ انا ماعنديش اعصابك الهادية دى .. والكلام ده بيخوفنى .
ـ خلّى اعصابك جامدة ياعبادة ، وعلى العموم قول للرفيق باصى ياخد باله منه ويشوف إيه حكايته .
عندئذ اطمأن عبادة وصافح ابو كمال وغادر القاعة مسرعا فى الطريق الى باصى !

انقسمت القيادة المحلية فى حزب النهضة حول الملاحظة التى نطق بها عاصم فى اجتماع حزب الكهرباء ، قال بعضهم انه مثالى وليس وراءه خلفية توحى بأنه مناهض لمثل هذا العمل السياسى ، وقال البعض الآخر انه كان عضوا فى منظمة الشباب الناصرية وانه ينقصه الحس القومى والنفس القومى وانه قطرى ومصرى متعصب على نحو ما .. المهم صدر القرار بأغلبية الاصوات بوضعه تحت المراقبة تحسبا لأى مفاجأة ، كما اصدروا امرا آخر الى باصى بمواصلة علاقته بنعيمة وبمحاولة ابقائها فى حالة عشم دون تنفيذ ماترغب فيه لحين صدور أوامر أخرى ، وكان باصى اكثر الناس سعادة لهذا القرار ، فهذا الامر الصادر اليه يسمح له بمواصلة علاقته بنعيمة ، لعل وعسى يحدث بينه وبين نعيمة مايتمناه قلبه المصاب بالجفاف ، كانت العلاقة بين باصى وعاصم فاترة دون اسباب ، فعاصم جاد وعاكف على العمل وشديد الاهتمام بما يجرى حوله ، وكان قد خبر الحياة بشكل يختلف عن الخبرة التى اكتسبها الآخرون ، وهو كان عضوا فى منظمة الشباب فى ايام المد القومى والثورى ، وهو خدم بلاده بصدق ، لم يستفد شيئا من عمله السياسى ولم يتربح من ورائه اى شىء ، وعندما هبت الاعاصير وتغير اتجاه

الريح ، شعر بالهم الشديد وهو يقرأ لبعض الذين كانوا ينافقون السلطة ، إن منظمة الشباب كانت جهازا امنيا وان كل اعضائها كانت لهم مهمة واحدة وهى التجسس على الآخرين ، وانطوى فترة على نفسه ، واضطر الى العمل كسائق تاكسى ، ليبتعد بنفسه عن المجتمع الجديد ، هذا مجتمع لا يعرفه ولا يستسيغه ، مجتمع كل مافيه زائف وإن كان لامعا كالزجاج ، لقد كان من عادته فى الزمن القديم الذهاب فى بعض الليالى ليتناول طعام العشاء فى كافتيريا فندق من فنادق القاهرة ، وكان يحلو له فى تلك الامسيات الفرجة على زبدة اهل مصر من الفنانين والكتاب والشعراء ، كامل الشناوى وشلته فى ركن ، والساخر احمد الالفى عطية فى ركن آخر ، والكوميديان سعيد ابو بكر مع عبدالرحمن الخميسى الشاعر ، والمخرج صلاح ابو سيف مع بعض الصحفيين فى ركن آخر ، كانت متعة حقيقية وهو يستمع الى هؤلاء النجوم وهم يتناقشون فى الفن والشعر والأدب ، اختفى هؤلاء الآن ، حل محلهم خلق جديد ، تجار فراخ ومستوردو سمك مجمد ومهربو مخدرات واصحاب مكاتب سمسرة ، لذلك اقلع عن هذه العادة ، وراح يستهلك وقته بين التاكسى والبيت ، حتى تعرف على نعيمة وبهرته بشبابها وسذاجتها ، كانت ريفية تتعامل مع الحياة بدون رتوش ولا اتيكيت ، كانت صريحة الى حد العبط ، ولذلك احبها ثم تزوجها دون أن يعرف سرها ، وعندما اكتشف سرها ادرك انه اخطأ فى الحساب ، لم يدرك انها اخذت فلوس ابن بهانة خطيبها الاول ، كما انها لم تستطع أن تقدر حقيقة عاصم أو تتعرف على اعماقه ، بهرها التاكسى الذى كان يقوده وشبابه الذى كان يفيض حيوية وحياة ، وحاول عاصم ان يقترب منها فى مرات كثيرة ، ولكن الحوار انقطع بينهما فجأة ، فقد كانت تفصل بينهما بحور ، لا سبيل الى الربط بينها بأى حال من الاحوال ، ذات مساء اراد أن يطلعها على سره ، قال لها وهما على مائدة العشاء :

- انا كنت فى منظمة الشباب .

فضربته بيدها على صدره وقالت له ضاحكة :

- ماانت لسه شباب اهه .. ولا يهمك .

عندئذ قرر أن يقطع الحوار بينه وبينها الى الابد فهى ليست من صنفه ولا تصلح له ، وزواجه منها كان احد مظاهر النكسة التى حلت به بعد أن هبت الاعاصير وتغير اتجاه الريح ، ولكن سعاد تختلف ، وهى الأمل الذى كان ينتظره ، ولكنها جاءت بعد أن تورط فى زواجه من نعيمة ، وهى مسألة ليست غريبة على الحياة ، فالحياة تعطى الانسان كل شىء ، ولكن ليس فى الوقت المناسب ، والمليح يبطىء كما يقولون ، ولكنه احيانا يبطىء كثيرا فيكون

مجيئه غير ذى موضوع ، ولكن سعاد وإن كانت قد ابطأت إلا أن الوقت لم يفت بعد ، وهو الآن يفكر فى طريقة للخلاص من نعيمة ، ولكنه يريد إنهاء الامر فى هدوء .. حتى لا يحدث لنفسه فضيحة فى الغربة .

غادر عاصم منزله فى الصباح الباكر دون أن يتبادل كلمة واحدة مع نعيمة التى كانت لاتزال ممددة فى الفراش ، وعرج وهو فى طريقه الى مقر الشركة على القهوة وتناول الشاى وساندويتش بيض بالطماطم ، ثم سار على قدميه حتى مقر الشركة ، وقبل أن يدخل حجرة مكتبه ألقى نظرة على الحجرة التى فيها سعاد فأكتشف انها سبقته الى هناك ، وصافحها بحرارة ، ثم اخذها من يدها الى حجرة مكتبه ، لم يكن فى مبنى الشركة احد إلا الحراس والسعاة ، فطلب قدحين من القهوة ، وراحت سعاد تبث له شكواها مما تراه ، فزوجة رئيس مجلس الادارة تتدخل فى العمل وتتصل بالموظفين وهى تقول على مسمع من الجميع أنها نائبة رئيس الحزب وانها صاحبة الكلمة العليا فيه .

وسألت عاصم فجأة :

ـ انت رأيك إيه فى اللى احنا بنعمله ده ؟

واجابها عاصم :

ـ والله انا لسه ماكونتش رأى .

ـ يعنى عندك أمل ؟

ـ فى أيه ؟

ـ إن احنا ممكن نعمل حاجة فعلا لمصر .

ـ مش عارف .. لكن مش ممكن نعمل حاجة علشان مصر فى بلد غريبة .

ـ طيب مادام دا رأيك .. بتشتغل ليه ؟

ـ لسه فى حاجات لازم نتأكد منها .. علشان الواحد يقدر يوصل للقرار السليم .

ـ حاجات زى أيه ؟

ـ يعنى .

ـ يعنى أيه ماتفهمنى .

ـ يعنى لو كان الحزب ده امتداد خارجى لشىء موجود فى الداخل .. يبقى العمل فيه مفيد ، بشرط أن تكون القيادة فى الداخل مش فى الخارج ..

ـ طب وإذا كان الحزب ده بيشتغل لوحده بره ؟

ـ دى تبقى كارثة .. ويبقى عامل زى طلوع فى جسم الانسان .. يعنى يبقى دليل مرض مش دليل صحة ..

وضحكت سعاد وهى تقول :

- انا بينى وبينك شايفة إنها رزقه لا اكثر ولا اقل ..

وقال عاصم وهو يضغط على يدها بحنان :

- بلاش التشاؤم ده .. وعلشان نوصل للحكم ده .. لابد من أدلة كثيرة . لانه إذا احنا وصلنا الى القناعة دى .. يبقى لازم نمشى م البلد دى ..

قطع حديثهما دخول باصى فجأة عليهما ، بالرغم من انه لم يحضر مبكرا قبل ذلك ، وكان حضوره فى فترة بعد الظهر ، لأنه كان يمارس عمله صباحا فى مكتب مصر ، وقف باصى على الباب ينظر اليهما ببلاهة وقد فشخ فمه بإبتسامة بلهاء .. وقال لهما بطريقة تعنى انه يقصد اكثر من معنى :

- على بختكم الجو حلو اليومين دول .

ودعاه عاصم الى الدخول ولكنه اعتذر بأنه جاء الى المبنى فى مهمة سريعة ، ثم غادر المبنى مهرولا عائدا من حيث جاء ، وتبادل عاصم وسعاد نظرة لها معنى ■

الهدف المشترك

كل مادار بين سعاد وعاصم فى حجرة عاصم ذلك الصباح كان مسجلا على شريط ، جلس اعضاء القيادة المحلية يستمعون إليه باهتمام ، وجلس بينهم رئيس مجلس إدارة الشركة ووكيله الذى يشبه الثور .. وكان أول الذين علقوا على ما جاء بالشريط هو رئيس مجلس الادارة قال :

ـ واضح إن النفوس فيها شيء .. وأعتقد ان الكلام اللى انتوا سمعتوه واضح .

قال أحد أعضاء القيادة :

ـ على العموم الاحتياط واجب .. ولكن لابد من استمرار المراقبة كى يبقى الوضع تحت السيطرة .

وقال نائب رئيس الشركة :

ـ أنا بقوللكم الواد ده خطر .. وأنا عارفه من أيام ما كان معانا فى منظمة الشباب .

وضحك أحد أعضاء القيادة المحلية لحزب النهضة وقال :

ـ واضح إن الولد أحسن من البنت .. بيتكلم بشكل سياسى .. مش عاوز ياخذ قرار إلا بعد التأكد من الموقف .

قاطعه نائب رئيس الشركة قائلا :

ـ يبقى لازم نفصل بينهم .. البنت نبعتها إلى الجنوب فى فرع الشركة هناك .

وقال عضو القيادة :

ـ ده كلام مش مظبوط .. ويبقى قرار أحمق .. الأفضل وجودهم مع بعض علشان نعرف إيه الحكاية .. لأن فصلهم عن بعض هايقطع الحوار اللى بينهم .. ودا مش من مصلحتنا وانتهت الجلسة بعد الاتفاق على تهيئة الجو

لعاصم وسعاد لاستخراج ما فى رأسيهما من مشاريع وأفكار .. ولذلك صدر قرار بإيفاد عاصم وسعاد إلى لشبونة للتحضير لعقد مؤتمر للشعر العربى وتكليف نائب رئيس شركة الكهرباء بالقيام بجولة فى بعض البلاد العربية والأوربية لتجنيد بعض العناصر المصرية التى كانت تعمل فى زمن عبدالناصر فى منظمة الشباب وتوجيه الدعوة إليهم لحضور المؤتمر المزمع عقده فى لشبونة . كما تم تكليف رئيس حزب الكهرباء بوضع خطة لتجنيد أكبر عدد ممكن من المصريين المقيمين فى القادسية ، وخصوصا من بين الشباب الناصرى المؤمن بالوحدة والقومية .. وانفض الاجتماع ، وبعد أن نهض الجميع اختلى أحد أعضاء القيادة المحلية برئيس الحزب ، وهمس فى أذنه بأن الاتفاق قد تم على اعتماد مبلغ خمسة ملايين دولار للانفاق منها على العمل السياسى الذى تؤديه الشركة فى المرحلة الحالية ، وقال له وهو يبتسم :

ـ مؤتمر برشلونة سيكون هو الاساس ، وإذا نجحنا فى انتخاب مندوب حزب النهضة رئيسا للمؤتمر ، سيصبح من الميسور اعتماد عشرة ملايين أخرى للصرف منها فى المرحلة الثانية .

ورد رئيس الحزب بثقة شديدة :

ـ لا تشغل بالك بهذه المشكلة .. فمندوب حزب النهضة سيكون رئيسا للمؤتمر ولمدة عام كامل .. لقد وضعت خطة محكمة لتحقيق هذا الهدف ، وستكون اغلبية مجلس الادارة من الشباب الناصرى .

ثم غمز له بعينه وقال :

ـ اطمئن ، فالجميع سيكونون من بين الشباب الناصرى التابعين للشركة .

وقهقه الاثنان عاليا وهما يغادران القاعة .

وقال عضو القيادة المحلية لحزب النهضة وهو يستأذن فى الرحيل :

ـ إن تعاوننا البناء سيكون له تأثيره المباشر على قيام دولة الوحدة .

ورد رئيس حزب الكهرباء وهو يتأهب لركوب سيارته :

ـ سيستمر التعاون إن شاء الله حتى تتم الوحدة من مراكش إلى صنعاء .

وابتسم ابتسامة صفراء وتحسس جيبه بيده قبل ان تنطلق به السيارة تسابق الريح .

● ● ●

مضت الحياة بالجميع على خير مايرام ، سعاد مع عاصم فى لشبونة ينعمان برحلة العمر ، ويستقبلهما مندوبو حزب النهضة المتواجدون فى البرتغال بكثير من الحفاوة وبفيض من الكرم . ولأول مرة يشعر عاصم بأن



العمل السياسى يمكن أن يقترن باللذة . والحقيقة ان حزب النهضة حزب مضياف وكريم ، ويقدر جهود الرفاق فى سبيل الهدف المشترك ، لقد أصروا على استضافة عاصم وسعاد فى جناح خاص بفندق خمسة نجوم ، وخصصوا لهما سيارة وسائق على مدى الأربع والعشرين ساعة ، ونظموا لهما برنامجا لزيارة أهم معالم لشبونة وبعض المناطق الأخرى فى البرتغال .. وقام الرفاق فى حزب النهضة بالعبء الأكبر للتحضير للمؤتمر وأعفوهما من مهمة متابعة الخطوات التنظيمية .

وتساءلت سعاد ذات مساء وهى جالسة مع عاصم فى الصالون الملحق بالجناح :

- إنت مش ملاحظ إنهم عزلونا عن الشغل .

وقال عاصم :

- ياستى .. دى حاجات تنظيمية .. كويس اللى هم عزلونا عنها .

وقالت سعاد :

- مش ملاحظ كمان إنهم بيصرفوا كتير قوى .

ورد عاصم :

- بلد غنية وفيها حكم مقتدر وقيادة قوية .

وقالت سعاد :

- كل دا كويس .. بس الصرف ده كله علشان إيه ؟ تفتكر علشان المؤتمر يهتف فى الآخر أمة واحدة ذات رسالة خالدة .

وحدق عاصم فى وجهها طويلا ثم قال :

- إنت إيه اللى فى دماغك آمال ؟

قالت سعاد :

- مش عارفة .

- مش عارفة إزاى ؟ إنت عاوزة تقولى حاجة .

- صدقنى منا عارفة .. بس أنا بقول يعنى مش ممكن فيه حد يصرف الفلوس دى بالهبل ده لوجه الله ، أو زكاة عن عينه وعافيته .

- ياستى .. الانجليز عندهم مثل بيقول ..

انتظر وشوف ، وعلى العموم ماحصلش حاجة لحد دلوقت .

أمارجل الثور نائب رئيس الحزب الكهربائى فبعد ان انتهى من زيارة بعض العواصم العربية . طار إلى أوربا ، ثم قفز عبر المحيط إلى الولايات المتحدة ، والتقى بعشرات من فلول منظمة الشباب القديمة ، بعضهم اثر

الهجرة بعد ان تغير اتجاه الريح . وبعضهم اضطر إلى الرحيل تحت وطأة الضغوط الهائلة التى فرضها مجتمع تجار الفراخ المسممة واصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير . واستطاع ان يجمع الكثيرين منهم حول فكرة عقد

المؤتمر ، ووجه إليهم الدعوات ، وقدم لهم بطاقات السفر .. ولكن المسألة لم تكن سهلة دائما .. فقد وجهوا إليه عشرات الأسئلة المحرجة ، تجاهل بعضها ، وأجاب عن البعض الآخر بأسلوب يحتمل أكثر من معنى . ووجد من بينهم من أعلن تأييده الكامل وبلا تحفظات ، وهذا البعض بالذات كانت لهم مشاكل استطاع الرجل الثور حلها عن طريق رجال حزب النهضة الذين كانوا على أهبة الاستعداد لتلبية أى طلب . وعندما عاد الرجل الثور من رحلته ، كان يحمل فى جيبه كشفا بأسماء الذين استطاع إقناعهم بحضور المؤتمر ، وأسماء أخرى استطاع ان يجند أصحابها لتحقيق الهدف المشترك .

أما ابن بهانة ، فقد عكف على تدريب الشباب المصرى على ضرب النار والقيام بالعمليات الفدائية ، وكان الهدف المعلن من هذا التدريب هو تحرير فلسطين من النهر إلى البحر .. وكان الشباب المتعطش لتحقيق هذا الهدف التاريخى ، يقتلون أنفسهم فى تدريبات عنيفة كل يوم ، وكانوا يتحرقون شوقا إلى هذا اليوم الذى تبدأ فيه معركة التحرير .. وكان مندوبو حزب النهضة الذين يزورون المعسكر يؤكدون للشباب ان المعركة صارت أمرا واقعا ، والقرار اتخذ على أعلى مستوى ، ولكن بقيت مسألة التوقيت ، لأن القيادة لا تريد ان تستدرج إلى المعركة ، ولكنها ستدخل المعركة فى الوقت المناسب وفى المكان المناسب .

صدق الولد أبو ياسر فى وعده لأبن بهانة . فها هى ذى الفلوس أصبحت كالرز فى جيب ابن بهانة . والقهوة لم يعد يزورها إلا بضع دقائق آخر الليل ليجلس مع ابن العمدة ويحتسى كوبا من الشاى ويتناول الايراد ثم يعود الى بيته ، وفى أغلب الليالى كان يجد أم هناء غارقة فى النوم ، وكان أحيانا يتمدد على الفراش ويسرح بعيدا عن واقعه .. من كان يتصور أن الأيام تدور به على هذا النحو ؟ عندما عاد من فلسطين بعد الحرب التى اشترك فيها تصور ان عينه لن تكتمل بمرآها مرة أخرى .. وها هى ذى الظروف تعيده لفلسطين من جديد عندما تبدأ معركة التحرير من البحر إلى النهر . وكرر ابن بهانة العبارة فى ذهنه أكثر من مرة « من النهر إلى البحر » ياترى أى نهر وأى بحر ؟ إن عينه لم تقع على أى نهر أو أى بحر فى فلسطين ، لم يشاهد إلا كثبانا من الرمل وصحراوات بعدها صحراوات ، حتى الطير السابح فى سماوات الله ليس له وجود فى هذا القفر ، المهم انه سيذهب من جديد إلى

فلسطين ، وسيحارب هناك ، وسينتقم من هؤلاء الذين كانوا السبب فى إسالة دمه على الرمال الناعمة ، كم كان يتمنى ابن بهانة ان يكون له ولد قبل آن يذهب إلى هناك . فاحتمالات الموت على أرض المعركة كبيرة للغاية ، وهو معه الآن نقود كثيرة ستأخذها الحكومة اذا عثرت عليها ، أو تتحول إلى طعام للديدان . لو كان له ولد من صلبه يأخذ هذه الفلوس ليصوغ بها حياته على النحو الذى يريد وعلى النحو المختلف عن حياة ابن بهانة . ولكن .. هكذا القسمة والنصيب ، وكل واحد وحظه ، والدنيا غريبة ، تمنع المحتاج ، وتمنح المستغنى ، ولو وجد ابن بهانة شيئا من هذه النقود فى صباه ، لتغيرت أحواله ، وربما أحوال الدنيا كلها ، ومعلهش ياحظ ، طالما ان البنى آدم لا يستطيع ان يغير حرفا مما هو مكتوب على الجبين .

● ● ●

تغيرت أحوال ابن بهانة وأصيبت أم هناء بقلق شديد .. لقد تصورت يوما ما انها ملكت السعادة كلها ، فابن بهانة طيب وشاب وقوى وبرىء أيضا . وأم هناء تكبره سنا ولكنها شعرت كأنثى مجربة انها أول امرأة فى حياته ، ولذلك أقبل عليها إقبال الجائع على وليمة عامرة بكل ألوان الطعام ، ولكن حظ أم هناء الأسود جعل ابن بهانة يقع فى هذا المطب الذى قاده إلى السجن .

ومن السجن إلى القيادة المحلية ، ثم وضع على كاهله كل هذه المسئوليات الجسام ، وهو يأتى كل مساء الى البيت وينام فى فراشها ، ولكنه ينام كجثة هامدة ، وأحيانا تسمع أنينه المكتوم .. وفى أحيان كثيرة حاولت تدليله ، ولكنه كان يرفض هذا التدليل إلى حد الغضب ، فهو لم يتعود هذا النمط من الحياة ، ولا يتصور وجود امرأة تدلل رجلا ، ولكن العكس هو الصحيح ، ولولا الخوف لأجبرته أم هناء على العودة إليها من جديد ، لكنها تعرف حقيقة المكان الذى يذهب إليه ونوعية الرجال الذين يتصل بهم ، ولو حاولت الاحتجاج ستلقى مصيرا أسود من قرن الخروب ، كما انها تحب ابن بهانة ولا تريد ان تفقده ، ومع ذلك فهى سوف تصبر حتى تنجلى الغمة وينجو ابن بهانة من المطب الذى وقع فيه . ولكن الذى يقتلها ويجعل الدم يغلى فى عروقها هذا الرجل الكئيب الذى جلس مكان ابن بهانة فى القهوة . إن وجهه يشبه وجه سحلية ميتة ، وهو بحجمه وقامته يشبه قنفذا اعتدى عليه كلب مسعور ، وقد حاول ان يتودد إليها كثيرا ، ولكنها لم تعره التفاتا ، لأنها تكره وصفه ورسمه وتشعر بالقرف من طريقته فى الكلام ، وهو حريص على ترديد انه العمدة فى كل حديث يتعرض له ، حتى ولو كان الحديث عن حالة الجو أو سعر الخضراوات فى السوق ، وهى لا تصدق انه عمدة أو ابن عمدة ،

فمنظره لا يوحى بذلك ، وحتى لو كان عمدة ، فكيف تدهور به الحال إلى هذا المصير ؟ ثم ما هى علاقة العمدة برغبات القلوب ؟ وحتى لو كان ملكا متوجا

وليس هناك غيره على ظهر الأرض من صنف الرجال فهى بالتأكيد سترفضه ، وهى تريد أن تصارح ابن بهانة بما يجرى من وراء ظهره ، ولكن ماذا تقول لابن بهانة وهذا الرجل ماكر كالثعلب .. يوحى ولا يفصح ، ويلمح .. ولا يصارح ، وحركاته وإشاراته تحمل أكثر من معنى . وأحيانا يختلق المعاذير ليحضر إلى البيت فى غيبة ابن بهانة وليعرض مشاكل تافهة خاصة بالقهوة على الست . وهى اضطرت يوما إلى صرفه بقسوة ، على ان يعرض ما يريده على ابن بهانة عندما يلقاه . كان ابن بهانة يرقد بجوارها وهى سارحة فى شأنها ، وعندما نظرت إليه كان مستغرقا فى النوم وبعض حبات العرق تلمع على جبينه ، ومدت أصابعها ومسحت العرق عن جبهته برفق وطبعت قبلة على شفتيه فى حنان . ولكن هذه القبلة الرقيقة كانت كافية لانتزاعه من رقدته وبقسوة شديدة ، وكأنما اندبت رصاصة فى صدره . ونهض ابن بهانة مذهولا مرعوبا يصرخ ويهذى ، ثم هدأ عندما اكتشف انه فى حجرة نومه وأن أم هناء إلى جواره . ثم جلس على حافة السرير يستغفر الله ويتمتم بسرعة شديدة .. اللهم أجعله خير .. اللهم أجعله خير .. وتساءلت أم هناء عن الخبر فذكر لها انه كان يحلم حلما مرعبا .. لقد رأى ان النيل قد فاض فيضانا عاليا ، وان مياهه اغرقت الكفر ، وانه راح يحاول إنقاذ بعض الذين حاصرتهم المياه ، ونجح فى إنقاذ البعض ، ولكنه فى المرة الأخيرة اكتشف انه محاصر هو الآخر ، وان الرجل الذى كان يحاول إنقاذه قد تعلق برقبته وهبط به الى القاع ، ولم يستطع ابن بهانة ان يفك قيده ، كما لم يستطع ان يتبين حقيقة المكان الذى يتواجد فيه لشدة الظلام ، وفى اللحظة التى استسلم فيها لمصيره وقرر أن يموت فى هدوء ، شعر بلسعة على وجهه فاستيقظ مذعورا على النحو الذى حدث . وعندما انتهى من حديثه راح يردد :

ـ اللهم أجعله خير .. اللهم أجعله خير .. وراحت أم هناء تضغط بكلتا يديها على كتفه وتدلك بأصابعها فقرات ظهره ورقبته ، ثم ربتت على شعره بحنان شديد وحدقت فى عينيه وقالت تسأله :

ـ إيه اللى مضايقك ياعبدالوارث ؟

وعض ابن بهانة على شفتيه وأمسك طرف ذقنه بإصبعيه وضغط على يديها ضغطا شديدا ثم تمدد على الفراش وراح يحدق فى السقف دون ان ينبس بكلمة واحدة . وعادت أم هناء تسأله :

ـ أنت بتخبى عنى ؟ ما تبقى تقوللى أنت متضايق من إيه ، أنت ليك حد غيرى ياعبدالوارث تقوله ؟ قوللى إيه اللى مضايقك ياعيونى .

ومن جديد عض عبدالوارث على شفتيه وثنى ساقيه وحدق فى سقف الحجرة وقال فى صوت مجروح :

ـ أقولك إيه بس ياأم هناء ..

ثم زفر زفرة حارة خرجت من صدره المشتعل وقال :

ـ ربنا يفوت الأيام دى على خير .

ثم انقلب على جنبه وراح فى نوم عميق .

الثورة والثروة

كان باصى أسعد الناس بالتعليمات الجديدة التى صدرت إليه ، أن يواصل علاقته بنعيمة وأن يعشمها دون أن يحقق لها أى شىء . ستتيح له هذه التعليمات أن يقترب من نعيمة ، ومن يدرى ؟ قد يحقق أمنية العمر ، وقد يغزو قلبها المشبوب بالعاطفة ، وقد يظفر برشفة من رحيقها الحلو . وراح باصى يغدق على نعيمة بالهدايا حسب الخطة الموضوعة ، وأتاح له سفر عاصم للخارج فرصة لكى يختلى بها أكثر .

وذات مساء وباصى مع نعيمة فى أحد ملاهى المذبح ، شرب أكثر من القدر المسموح ، وانساق وراء عاطفته الجامحة ، وضرب بالتعليمات عرض الحائط ومد يده يريد أن يلمس وركها . ولكن نعيمة ضربته على يده ضربة قوية ونظرت إليه نظرة احتقار شديدة نكأت جراحه القديمة وجعلته ينزوى داخل نفسه . فهذه ليست المرة الأولى التى يعامل فيها باصى كالكلب الجربان . علاقته بالنساء كانت دائما من طرف واحد . أحب كثيرات ولكن لم يشعر بحب واحدة منهن على الاطلاق . لايزال يذكر تلك البنت الكردية التى أحبها فى صباه . كان يخدمها عن طيب خاطر ، وعلى استعداد لأن يقتل

نفسه من أجلها اذا لزم الأمر . وكانت تعامله بود ، وخيل إليه أحيانا أنها تعرف سره وأنها تبادله الحب . وذات مساء وهو يوصلها بسيارته إلى منزلها مدت يدها العاجية تصافحه . فأمسك بيدها وسحبها نحوه وأراد ان يطبع قبلة على شفتيها ، وإذا بها تنتفض كبركان ثائر وتلطمه على وجهه بشدة وفتحت باب السيارة وفرت هاربة . وفى أول مرة حاول الاتصال بها بعد الحادث . أغلقت السماعة فى وجهه بقسوة . وفى المرة الثانية بصقت عليه . فكف بعد ذلك عن الاتصال بها . وأغرق نفسه فى الخمر ، وكاد يضيع لولا تكليفه بمباشرة العمل فى مكتب مصر . وها هى ذى نعيمة تنكأ جراحه بعد أن ظن

ان الريح مواتية والجو على مايرام . وهى لم تكتف بنهره فقط ولكنها صرخت فى وجهه صرخة سمعها كل من فى الملهى :

ـ أنت فاهم نفسك مين ياسى عمر ، لا .. خد بالك وأحترم نفسك . أنا واحدة ست وليه راجل ، مش زى بعضهم .

وطعنته عبارة « م زى بعضهم » فى قلبه كأنه خنجر مسموم .. وفكر فى أن يلطم نعيمة على وجهها ، ولكنه لم يستطع ، واختلس باصى نظرة إلى الحاضرين حوله ، فاكتشف ان العيون كلها مصوبة عليه ، فتصنع الهدوء وابتسم ابتسامة صفراء زادته قبحا على قبحه .. وقال لنعيمة :

ـ أنت بتفكرى فى إيه . أنا إيدى خبطت فيكى عفوا .

وقالت نعيمة وهى فى نفس الحالة من الغضب :

ـ لا خد بالك ياباصى وفتح عينك كويس .. مش كل الطير اللى يتاكل لحمه .

ورد باصى وهو يحاول ان يكتم صوته حتى لا يفضح نفسه وسط الناس :

ـ طير إيه وحيوان إيه ؟ أنا بقولك مش قصدى صدقينى .

ـ خلاص .. حصل خير .. بس حسك عينك تعمل الحكاية دى تانى . أنا قلتلك أهه .

وساد الصمت بينهما فترة من الوقت ، ثم قطع باصى الصمت وسأل نعيمة عما اذا كانت ترغب فى كأس اخرى .. وردت نعيمة بالايجاب . فصفق باصى وأشعل لنفسه سيجارة وراح يدخن بشراهة وقد أسند رأسه على راحة يده ، وبدا مهموما كفلاح ماتت جاموسته منذ لحظات .. وقالت نعيمة وهى تلكزه بأطراف أصابعها :

ـ إن كنت هاتقعد معايا شايل طاجن ستك على دماغك .. يبقى أحسن نقوم نروح ، ولكن باصى تصنع المرح وقال لها وهو يحاول أن يبدو سعيدا :

ـ أنا مش غضبان ولا حاجة .. أنا فى الحقيقة بفكر فى مشروع بقاله مدة شاغل دماغى . ونجح باصى فى جذب اهتمام نعيمة ، فعادت تسأله فى اهتمام :

ـ مشروع إيه ده ياباصى ؟

ـ وانتهز باصى الفرصة ليعيد إلى نفسه شيئا من الاحترام المفقود ، فاتخذ هيئة رجال الأعمال ووضع ساقا على ساق وراح يحدثها عن مشروعه الوهمى الكبير لانشاء شركة نقل كبرى لنقل الركاب بين مصر والقادسية .. وبالبرغم من ان المشروع جاهز للتنفيذ .. فان باصى يؤجل تنفيذه بسبب



عدم حصوله على الموظف الكفء والعامل المثالى ، سواء من مصر أو من القادسية ، وراح باصى يشرح لنعيمة مشروعه الوحدوى للنقل العام ، وهو بين الحين والآخر يختلس النظر للناس من حوله ، الذين شاهدوا نعيمة وسمعوها وهى تشخط فيه ، واسترساله فى الحديث مع نعيمة وهو على هذا النحو ، سيؤكد لهم ان ما جرى بينهما كان مجرد مزاح تفرضه لوعة الحب بين قلبيهما . انجعص باصى فى الكرسى بطريقة مضحكة ، وارتفع صوته عن ذى قبل ، وراح يشرح مشروعه الوهمى وكأنه يشترك فى ندوة داخل الحزب :

ـ هذه الشركة ليست فقط لتوصيل الركاب ولكنها لتحقيق الأهداف القومية أيضا .. والنقل لم يعد مسألة هندسية أو ميكانيكية فقط .. ولكنه عملية سياسية أيضا ، لأنه يساعد على التقاء الشعوب التى فرضوا عليها التجزئة ، ومن هنا لابد من التدقيق فى اختيار العناصر التى تؤدى هذا العمل ، لأن أى خطأ فى السلوك وأى تجاوز فى المعاملة من قادساوى ضد مصرى أو من مصرى ضد أردنى أو من أردنى ضد قادسوى قد يعرقل مشروع الوحدة وقد يؤجل مجىء هذا اليوم الذى تنتظره الجماهير العربية على أحر من الجمر .

عندما انتهى باصى إلى هذه النقطة ، اخرج منديله وراح يجفف العرق الذى سال من جبهته على عينه ، ولكنه فوجىء بنعيمة تضرب صدره براحة يدها وقالت :

ـ إنت دايما كده تكركب الدنيا ياباصى .. أنت لو معاك عربيتين اتنين ملكك .. تكسب دهب .. وإن كان على السواقين أنا هاجيبلك عيال يستاهلوا السلامة ، وحاول باصى ان يعيد شرح الأمر لنعيمة ، ولكنها لم تسمح له فقاطعته على الفور قائلة :

ـ بس أنت ابتدى المشروع وأنا أجيبلك واد زى القشاط ينفع ناظر للمحطة اللى فى مصر .

عندئذ ألقى باصى نظرة على ساعته ودعا نعيمة إلى مغادرة المكان ، فقد كان الوقت متأخرا . وعلى باب بيت نعيمة قالت له قبل أن ينصرف :

ـ بقولك إيه .. أبعت أجيبلك الواد اللى زى القشاط اللى ينفع ناظر .

وقال باصى وهو يبتعد عن نعيمة :

ـ مش وقته .. بعدين .. بعدين .. فى السيارة التى حملت باصى إلى منزله شرد فكر باصى عندما راح يسترجع ما جرى بينه وبين نعيمة فى هذه الليلة . لقد نكأت جراحه بنت الكلب وسحقت روحه .. وتمنى باصى الا يكون بين

شهود الحادث أحد يعرفه .. واندهش باصى من مسلك هذه البنت التى تبدو سهلة فى الظاهر ، ولكنها تنقلب فجأة لتصبح أكثر توحشا من لبؤة مجروحة . غريب أمر نعيمة . بقدر ما هى مثيرة بقدر ما هى تافهة وجاهلة .. ليست نعيمة فقط هى الشيء الغريب فى مصر ، ولكن مصر كلها على هذا النحو . فشل حكماء حزب النهضة فى فهمها أو فى اكتشاف سرها ـ وثابت تاريخيا ان مصر هى التى قادت المسيرة الوحدوية والنضالية بعد زوال الدولة العباسية الأولى وهى التى حمت الوجود العربى فى هذه البقعة من أرض الله ، وهى التى ردت الهجمة الصليبية وأبادت التتار . ومنها انطلق صلاح الدين الأيوبى وقطز والظاهر بيبرس وابن قلاوون .. وإلى محمد بك أبو الدهب وابراهيم باشا قائد جيش محمد على . ومع ذلك أغلب شعبها لا يدرك الفرق بين الشعب والأمة ، ولا بين الوحدة والاتحاد ، كيف صنع شعبها كل هذه المعجزات ودفع كل هذه التضحيات ؟ حتى فى الأيام الأخيرة ، لأنه وحده الذى تحمل القسط الأكبر فى الدفاع عن الأرض السليبة وفى الوقوف ضد الهجمة الصهيونية الشرسة ، فى الوقت الذى لا يبدى فيه اهتماما بقضية لواء الاسكندرونة السليب ، ولا يدرى شيئا عن مشاكل الاقليات العرقية داخل الوطن العربى ، ولا يقيم وزنا كبيرا للفرق بين العالم العربى والوطن العربى . فيتصور انهما عبارتان بمعنى واحد ، فاذا حاولت ان تناقش مصريا فى الأمر ، سخر منك وقال ياعم كله عند العرب صابون ! فى القادسية الكلام كثير والهمة قليلة ، والحماس على اشده والخلافات عميقة . فى وسع أى مراقب فى القادسية ان يلمح الفرق والخلاف بين الشيعى والسنى وبين الكردى والعربى وبين المسلم والكلدانى ، وبين الأشورى والتركمانى ، بينما فى مصر لا أحد يستطيع ان يلحظ أى فرق أو اختلاف بين البحيرى والصعيدى أو بين المسلم والقبطى ، أو بين النوبى والبدوى . آه لو تمكن حزب النهضة من مصر . إذن لصارت الوحدة أقرب إلينا من حبل الوريد ، ولقامت دولة الوحدة التى ينتظرها الجميع .

كان باصى قد وصل إلى الدوار الكبير حيث يقع مبنى الأمن العام ، وهنا استدرك قائلا بينه وبين نفسه (ولقامت دولة الوحدة بقيادة سيدى الرئيس المناضل) ثم طرد كل الأفكار من رأسه وضغط بقسوة على ذراع البنزين ، فانطلقت به السيارة فى اتجاه ضاحية اليرموك التى يقع فيها بيته .

● ● ●

عندما هبطت الطائرة فى مطار البهامز كان فى استقبال رئيس الحزب

الكهربائى وزوجته ووكيل الحزب وزوجته رجل من أصل عربى يقيم فى البهامز ويدير مكتبا لمباشرة الأعمال القانونية والاستشارية . وبالرغم من آن جزر البهامز مكان للفسحة والاستجمام ، فإن وفد حزب الكهرباء كان فى رحلة عمل . لقد جاء الأربعة لتسجيل عقد تأسيس شركة الكهرباء فى الجزيرة ، حيث لا ضرائب هنا على الاطلاق ، ولكن مجرد رسوم قليلة تدفع كل عام . وانتهى الأمر فى ساعات قليلة ، فليس فى هذه البلاد روتين أو تعقيدات من أى نوع . ولكن هنا انفتاح حقيقى والبلاد مفتوحة بالفعل أمام المغامرين والنصابين ، وبشرط أن يدفعوا الرسوم المطلوبة ، ثم لا شىء على الإطلاق ، وبالرغم من جمال الطبيعة وروعة المكان ، فقد خيمت سحابة من القلق والهم على وفد حزب الكهرباء . والسبب إنهم كانوا قد اتفقوا على تسجيل الشركة باسم أربعة من الشباب ، ولكنهم جاءوا الى هنا لتسجيلها باسم أربعة آخرين هم رئيس الحزب ووكيله وزوجة كل منهما . كان أكثر الجميع قلقا هو وكيل الحزب . فعندما كان رئيس الحزب الكهربائى فى الشريحة العليا من السلطة ، كان وكيل الحزب فى منظمة الشباب . ولاتزال هناك علاقات بينه وبين زملائه فى المنظمة ، بينما رئيس الحزب يعيش منعزلا فى برجه العالى فى قصره الذى أهدته له القيادة المحلية ، ووكيل الحزب سيكون أكثر عرضة للنقد ، وسيكون مطالبا بالرد على كل التساؤلات حول هذا الاجراء ، الذى جعل الشركة ملكية خاصة لأربعة مستثمرين بدلا من ان تكون ملكية عامة لمجموعة من السياسيين ، كان رئيس الحزب الذى عمل فترة طويلة فى أجهزة الأمن أكثر هدوءا من رفيقه المذعور ، وعندما احتدم النقاش بينهما وهم جلوس على العشاء فى أفخر فنادق الشاطىء . قال رئيس الحزب لوكيله :

- طيب أنت عاوز إيه ياعبادة ؟ تسجل الشركة باسم أربعة شبان .

وانتفض وكيل الحزب كالمجنون وقال فى ثورة شديدة :

- ده على جثتى .. شبان مين .. دا فرصة عمرنا .

فسأله رئيس الحزب فى هدوء :

- يعنى نمشى فى اجراءاتنا زى ماحنا ماشيين .

وأجاب وكيل الحزب على الفور :

- طبعا .. ودى عاوزة سؤال .

وصمت رئيس الحزب فترة ثم حدق فى وجه وكيل الحزب الطامع المتوتر الجبان ، وقال له فى هدوء شديد :

- خلاص .. يبقى لازم تحتفظ باعصابك هادية وتواجه المسألة بشكل طبيعى للغاية .

وعاد وكيل الحزب يسأل :
ـ طب وكلام الناس ؟
ـ اللى بيخاف من كلام الناس ما بيعملش حاجة .. وحاجة من اتنين يا أخ عبادة .. ياتعمل وما تخافش من كلام الناس .. يامتعملش وتتقى شر الناس وتقعد فى بيتكم ساكت .
وعض وكيل الحزب إصبعه بقوة وقال لرئيسه :
ـ طب وافرض يعنى حد م اللى معانا زى .. زى عاصم مثلا رمى جثته علينا وقال اشمعنا إحنا .. يبقى ايه التصرف معاه ؟
وقبل ان يجيب رئيس الحزب انطلقت زوجته كالمدفع الرشاش :
ـ عاصم ده يسوا إيه والا غيره .. هى الناس عاوزة مننا إيه .. هو حد شريكنا .. هو كل ما يجيلنا رغيف عيش الناس عاوزة تعض فيه .. اللى عاجبه يشتغل معانا .. يشتغل زى الكلب .. واللى مش عاجبه يورينا عرض كتافه .
وابتسم رئيس الحزب ابتسامة رقيقة وكأنه يجلس امام العدسات وقال :
ـ المسألة مش كده ياأم كمال .. المسألة إحنا بنعمل عمل سياسى مش عمل تجارى .. ولابد من ناس تشيل المسئولية .. واحنا شلناها ثم احنا ما بنتاجرش .. احنا بنناضل .. اللى عاوز يناضل معانا أهلا وسهلا .. اللى تعب من النضال .. يقول .
وبدى السرور على وجه وكيل الحزب ثم قال :
ـ طب ايه رأيك لو قلنا للجماعة اللى معانا دى تعليمات رفاقنا فى حزب النهضة .. وبالشكل ده نقطع كل الألسنة .. والكل يخاف ..
ورد عليه رئيس الحزب :
ـ أنا مش عاوزك تقول حاجة تورطك بعدين فى حاجة أكبر . وبعدين أنا شايف انك مدى الموضوع حجم أكبر مما يستحق .. خد المسألة بهدوء وكل شيء هايبقى تمام ..
انتهى الأسبوع الذى أمضوه فى الجزيرة سريعا .. وكانت فرصة لفتح حساب للشركة فى أحد البنوك . وتم ايداع مبلغ ٣ ملايين دولار فى حساب الشركة وقاموا بتحويل الجزء الأكبر منه الى لندن .. ثم غادروا الجزيرة الى ميامى فى الولايات المتحدة ، ومن ميامى طار الجميع الى لندن .. وفى لندن هدأت اعصاب وكيل الحزب .. لقد قضى حياته كلها يحلم بأن يصبح [illegible] ما من الأثرياء . وهاهو ذا الحلم يتحقق أخيرا بعد سلسلة طويلة من الفقر والحرمان .. وهو الآن ينظر خلفه يستعرض تاريخه كله .. فعندما قامت الثورة

كان طالبا في المدرسة الثانوية .. في تلك الأيام لم يدرك حقيقة ما جرى .. ولكنه كان سعيدا بالثورة على نحو ما ، وهي سعادة شقاوة أكثر منها سعادة فهم أو انحياز .. ولكنه بدأ يدرك المسائل عقب دخوله الجامعة ، اشترك مرة في مظاهرة واشترك مرة في ندوة .. وعندما اتصل به مسئول الشباب بالكلية كان سعيدا غاية السعادة ، وعندما فاتحه في الانضمام أعلن انضمامه على الفور . وعندما التقى بأحد المسئولين الكبار لأول مرة في حياته ، انحاز فورا الى رأى المسئول وضد رأى زملائه ، ولأنه كان موافقا على طول الخط ومستعدا لأى خدمة طول الوقت ، فقد أصبح مسئولا بعد فترة . وتصور انه يستطيع ان يجني بعض المكاسب ، ولكن طلباته كلها قوبلت بالرفض . وكظم غيظه ، فلم يكن يطمع في أكثر من شقة في عمارات التمليك وسيارة نصر ، ولكنه واصل عمله كمسئول في حدود الطاعة والالتزام بأوامر المستوى الأعلى .. وعندما هبت الريح في الاتجاه المعاكس . قضى عدة أسابيع في السجن . وعندما خرج قرر الرحيل الى الخارج يجرب حظه في بلاد الله . ولقد جاءته الفرصة الآن ، وتحققت أحلامه بضربة حظ مفاجئة ، ولابد من الامساك بالفرصة المواتية بقوة ، لقد قاتل في الماضي من أجل الثورة ، والآن سيقاتل من أجل الثروة . أما هذا العاصم الكلب الذي لايزال يعيش في زمن مضى ، فلسوف يقف أمامه بقوة ، فالحقيقة هي التي ذكرها رئيس الحزب .. اللى يخاف ما يعملش ، واللى يعمل مايخافش .. وغدا يصنع الله ما يريد .

الهـــــروب

انعقد مؤتمر الشباب القومى فى البرتغال وحضره أفواج من الطلبة والشباب من بلاد عربية شتى ، ولكن كان من الواضح ان التركيز على شباب مصر ، وبدا نائب رئيس الحزب الكهربائى عبادة فى المؤتمر كأنه صاحب الفرح ، راح يعقد الاجتماعات الجانبية ، واستخدم كل الأساليب من الترهيب والترغيب ولوح بسيف المعز وذهبه وكان المطلوب هو انتخاب شاب مصرى عضو فى حزب النهضة القادساوى رئيسا للمؤتمر ، وشمر ياصى عن ساعده

وأفرغ ما فى حقائبه من أموال ، وراح يبعثرها ذات اليمين وذات اليسار على أمل ان يتحقق الحلم فيتم انتخاب الطالب سليمان رئيسا للمؤتمر ، ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان وجاءت الرياح بما لا تشتهى السفن ، وسقط سليمان فى الانتخابات سقوطا مروعا أفزع القيادة المحلية فى القادسية ، وتم استدعاء ياصى للعودة على وجه السرعة ، وحضر رئيس الحزب الكهربائى الى البرتغال بنفسه لكى يتعرف على حقيقة ما حدث وقضى معه عبادة ليلة كاملة يشكو له غدر الأصدقاء وخيانة بعض الذين تصور انهم أعضاء مخلصون فى الحزب الكهربائى ، وانتهت الجلسة عند الفجر وقال رئيس الحزب الكهربائى لوكيله الثور :

ـ لا وقت للبكاء ، عليك من الآن بالاستعداد للاجابة عن اسئلة كثيرة ستوجه اليك حتما عند عودتك الى القادسية ، لقد أخذت المسألة على عاتقك ، وأنا شخصيا أعلم انك بذلت مجهودا أكبر من طاقتك ، ولكن النتائج كانت عكس المقدمات ، وهناك فلوسا انفقت بغير حساب ، أنت الذى أمرت بصرفها وتقول الآن انه حدثت خيانة ، ولكن هناك نتيجة حصلت ولابد ان يتحمل مسئوليتها أحد ، وعلى العموم ففى العمل السياسى كل شىء وارد ، الفشل والنجاح .

وتساءل وكيل الحزب وهو يرتجف وما العمل الآن ؟

هل تقترح أن أعود فورا إلى القادسية .

وقال رئيس الحزب ببساطة : لا بأس من بقائك فى الخارج بعض الوقت فأنت مرهق وتحتاج إلى فترة لتستعيد هدوء أعصابك ، وعلى العموم هناك مهمة لابد ان تقوم بها قبل أن تذهب الى القادسية ، ونظر وكيل الحزب إلى رئيسه ، ولم يتكلم ، ولكن عينيه كانتا تنطقان بما فى نفسه ، كان يريد معرفة المهمة المكلف بها الآن . وقال رئيس الحزب وهو يستعد بمغادرة المكان ستأخذ هذا الخطاب معك وتذهب إلى جزر البهامز ، وفى هذا الخطاب موافقتى على تحويل ٢ مليون دولار من حساب الشركة إلى حسابنا فى لندن ، وتستطيع قضاء أسبوع هناك وحاول أن تنام أغلب الوقت لكى تستعيد نشاطك الذى بددته فى المؤتمر ، وعلى العموم سقوط سليمان ليس نهاية العالم ، وهناك مهام أخرى تنتظرنا فى المستقبل .

ألقى وكيل الحزب نظرة على الخطاب الذى فى يده ، كان يحمل موافقة رئيس الحزب على تحويل ٢ مليون دولار من حساب الشركة التى حددها رئيس الحزب ، وقال رئيس الحزب وهو يستعد للذهاب ، ما عليك إلا ان تضع إمضاءك بجوار امضائى لتحويل المبلغ المطلوب ، وبعد اسبوعين سنلتقى فى القادسية لمناقشة كل الأمور فى جو خال من التوتر الذى يحيط بنا الآن .

قضى وكيل الحزب ثلاثة أيام على شاطىء جزر البهامز يفكر بعمق ، لقد فعل المستحيل من أجل أن يفوز سليمان برئاسة المؤتمر ، ولكنه فشل ، ولكن أولاد الكلب افشلوا المشروع ووضعوه فى موقف لا يحسد عليه ، خانه الجميع بلا استثناء .. سالم الذى حل له كل مشاكله فى أمريكا ، وعاطف الذى كادت بعثته التعليمية ان تقطع لولا المعونة المادية التى بذلها له عبادة بدون حساب ، وأمين الذى رفض كل المغريات ، وأصر على موقفه بأن تكون رئاسة المؤتمر لشاب من منظمة الشباب وليس لسليمان الذى ينتمى الى حزب النهضة ، ولكن أخطر الجميع هو عاصم ، وهذه البنت سعاد التى تستحق الموت عشر مرات ، عاصم هو الذى افشل المشروع كله ، ويدعى النزاهة والشرف ، ولكنه طمعان فى حقيقة الأمر ، ويريد أن يشارك عبادة ورئيس الحزب فى رأسمال شركة الكهرباء ، ولكن بينه وبين ذلك بحور أوسع من البحر الأبيض وأعمق من الاطلنطى ، هؤلاء الشباب فقدوا نقاءهم ويريدون تحقيق الثراء بأى ثمن وعن أى طريق ، يحقدون على عبادة مع ان عبادة وصل الى ما وصل اليه بجهده وعرقه !! ولكن ماذا يفيد عبادة الآن بعد ان فشل سليمان فى الانتخابات فلم يحصل الا على خمسة أصوات ، لو انه سقط



بصوت أو بصوتين أو خمسة أصوات لهان الأمر ، ولكن سقوطه المروع دليل على أن عبادة حمار ، لم يفهم اتجاه الريح منذ البداية وركن الى وعود الاصدقاء الذين اتضح له ان معظمهم خونة وبعضهم أرزقية .

والآن ستكون فضيحتك ياعبادة بجلاجل ويا ليتها تتوقف عند حد الفضيحة ولكن بتوع حزب النهضة فى القادسية ليس لهم أمان وأسلوبهم فى القادسية يختلف عن الأسلوب فى مصر ، الفشل هناك فى القادسية ـ له عقاب واحد هو الموت وهم يقتلون أى انسان دون ان يقربه أحد ، وهل هذا معقول تموت الآن ياعبادة بعد ان تحققت أحلامك كلها ووصلت الى ما كنت تهدف اليه وصرت من أصحاب الملايين مستحيل لن يسمح عبادة لأحد بأن يقطف حلمه الذى عمل من أجله طويلا ، ولكن ما العمل ورئيس الحزب المخبول يريده ان يلقاه فى القادسية بعد أسبوعين كأنها مؤامرة محبوكة الاطراف من الجميع ، اصدقاء السوء افشلوا مشروعه وشريكه فى حزب الكهرباء يريد ان يجرجره الى القادسية ليسلم رقبته هناك الى اعضاء حزب النهضة ليقطعوها بحد السيف ، ويلقون بها فى الطريق طعاما للكلاب ، ورئيس الحزب الكهربائى له مصلحة فى ذلك ، سينفرد بالشركة وبالمكاسب ، وسيصبح كل شىء بالنسبة له على مايرام ، لقد اشترى رئيس الحزب أخيرا شقة فى لندن دفع فيها مليون دولار ، وهو يستعد للاقامة فى الخارج الى نهاية العمر ، وهو يعتقد فى قرارة نفسه انه صاحب مشروع شركة الكهرباء وحده بلا شريك ، وقد جاءته الفرصة الآن لينفذ مشروعه ، وسيظهر أمام الجميع بريئا من دم عبادة براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، ما العمل ياعبادة ؟ وما هو الطريق ؟ لم ينم عبادة طول الليل ، وفى الصباح الباكر اتخذ طريقه الى البنك بعد ان وضع توقيعه الى جانب توقيع رئيس الحزب بتحويل مبلغ ٢ مليون دولار من حساب الشركة ، ولكن ليس الى لندن ، وانما الى حساب آخر فى قبرص كان قد افتتحه عبادة بعد قليل من انشاء الشركة ووضع فيه مبلغا من المال ، سيكتفى عبادة بهذه الملايين الاثنين ، وله فى بنك لندن حساب مشترك مع رئيس الحزب ، لن يستطيع رئيس الحزب أكله ، ولن يستطيع سحبه الا اذا اقتسمه معه بالتمام والكمال . ولن يذهب عبادة الى القادسية ، ولن يذهب الى مصر ، وسيبقى فى الخارج حتى تنجلى الأمور ، ثم بعد ذلك يتخذ الخطوة المناسبة ، لكنه لن يسلم رقبته لأحد ، ولن يمنح رئيس الحزب فرصة لكى يستمتع بالشركة وأموالها دون شريك ، ولكن بقيت مسألة ياعبادة لابد من حسمها ، هى مسألة حياتك نفسها فى الغربة ، وحزب النهضة القادسوى يده طويلة ، وباستطاعتها ان تمتد الى أى مكان ، وهم قادرون على ذبحك كالخروف ، وأنت نائم فى فراشك ، ولكن هذه المسألة أمرها بسيط ، فهو ليس

من المشاهير ، وعليه ان يختار مكانا يعيش فيه لا يعرف فيه أحدا ولا يعرفه أحد ، ومعه الآن من المال ما يكفيه لممارسة حياته دون الاتصال بأحد ، ثم ان الأمور لن تبقى على حالها الى الابد ، فطبيعة الدنيا هى التغيير ، فسيحدث التغيير يوما ما فى القادسية أو فى مصر ، وعندئذ يستطيع ان يظهر ويعمل فى العلن دون خوف من المجهول ، وألقى عبادة نظرة على الخريطة ، واستبعد العالم العربى منها ثم استبعد أوربا واختار الولايات المتحدة كمكان آمن سيفشل أعضاء حزب النهضة فى تعقبه هناك أو إلحاق الأذى به ، وفى الصباح التالى كان يجلس أمام أحد المحامين فى جزر البهامز ، وكان المحامى عند حسن الظن فقد أخبره بأنه باستطاعته ان يحصل له على تأشيرة كمستثمر فى الولايات المتحدة اذا كان بامكانه ايداع مليون دولار فى أحد البنوك هناك ، واتفق الاثنان على هذا الأمر مقابل خمسين ألف دولار دفعها عبادة للمحامى وبعدها ركب الطائرة ، وعاد من جديد الى البرتغال حيث كان المؤتمر يعقد هناك ، وهو اختار البرتغال لأن أحدا من اصدقائه لن يفكر باحتمال عودته اليها من جديد ، وسيبقى فيها حتى يحصل المحامى على الاقامة ليطير منها الى الولايات المتحدة ويبدأ حياته من جديد ، وصل عبادة الى البرتغال ، واستقر فى مدينة صغيرة بعيدة عن لشبونة ، وقضى عدة أيام يكتب فيها تقريرا وافيا عما حدث فى المؤتمر ، واتهم الجميع بالخيانة ، ولكنه وضع المسئولية كلها على رأس عاصم وسعاد ، فعاصم كان أحد المرشحين لملكية شركة الكهرباء وهو حاقد على عبادة منذ أصبحت الشركة ملكا له ولزوجته ورئيس الشركة وزوجته وهو أراد ان ينتقم فسدد طعنة قاتلة الى قلب عبادة لأن النتيجة التى اسفرت عنها الانتخابات لا يمكن ان تكون طبيعية ، وكل مرشح معرض للسقوط فى الانتخابات ، كما هو معرض للفوز ، ولكن سقوط سليمان على هذا النحو هى عملية موجهة ضد عبادة بالذات لكى يكون عقابه مساويا للعمل الذى ارتكبه ، ولم ينس دور سعاد فى المؤامرة ووصفها بأنها رأس الأفعى التى يجب قطعها فى الحال ، وأرسل الكتاب الى مكتب مصر فى القادسية ووضع تاريخا سابقا لكى يتصور الجميع انه كتبه عقب انتهاء المؤتمر وقبل ان يغادر البرتغال الى جزر البهامز ثم راح يمارس حياته فى انتظار المكالمة التليفونية التى وعده بها المحامى فى جزر البهامز .

• • •

كانت نتيجة الانتخابات التى أسفر عنها مؤتمر البرتغال لطمة قاسية على وجه حزب النهضة ، لقد بذل الحزب كل ما يمكنه من أجل تحقيق نتيجة طيبة

فى المؤتمر وحشد له كل الكوادر المطلوبة ورصد له ميزانية ضعف ما قدره الخبراء ، لقد اعتبر حزب النهضة هذا المؤتمر هو المدخل الطبيعى إلى مصر فهو يضم عشرات من خيرة شباب المنظمة التى لعبت أدوارا هامة فى تاريخ مصر خلال حقبة الستينيات ، والزحف بهم داخل مصر بقيادة عضو فى حزب النهضة كفيلة بتمهيد الطريق أمام الحزب الذى يحلم بوحدة شاملة من الخليج إلى المحيط لتحقيق رسالة خالدة ! ولكن ها هو ذا الحزب يفشل فى أول تجربة ويخرج مرشحه من المولد بلا حمص ، ويذهب فى زبالة التاريخ ، بينما حصل أمين الذى هو لا فى العير ولا فى النفير على الأغلبية الساحقة من الأصوات ، هل هو رفض من جانب الشباب المصرى لقيادة حزب النهضة ، واذا كان الأمر كذلك فمن الذى حرضهم وحشدهم إلى الوقوف ضد التيار ، هل هو جهاز مصرى الذى يقف خلفهم ، ان الأجهزة المصرية لم تعد تهتم بأن تلعب أدوارا فى هذا المجال ، أظافرها مقلمة ، وامكاناتها محدودة ، والدولة كلها مشغولة بالانفتاح الذى جاء به السادات ، فغير المفاهيم وقلب الموازين وفتح الطريق امام حزب النهضة لكى يحلم أحلامه السعيدة .

من إذن يقف خلف هؤلاء الشباب يشجعهم ويسند ظهورهم ويدفع بهم الى الامام ، هل هى ذى الجمهورية العظمى التى تحلم هى الأخرى بقيادة الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، ولديها من الأموال ما يعينها على التحدى ، هل هى الرجعية العربية بأموالها وكنوزها ، لابد من اكتشاف هذا العدو المجهول الذى يقف وراء هؤلاء الشباب ودفعهم الى ارتكاب هذا العمل الذى افشل كل المخططات وفرض اعادة النظر فى كل شىء ، عندما كان مكتب مصر يضرب اخماسا فى اسداس ، ويحول العثور على العدو المجهول ، وصل خطاب عبادة الذى ارسله من البرتغال ، وانقسم مكتب مصر امام الخطاب قسمين : قسم يرى انها محاولة من جانب عبادة لالقاء المسئولية على الآخرين ، وقسم آخر رأى انه يجب الحذر من عاصم وسعاد وخصوصا ان لهما سوابق فى الوقوف امام خطط الحزب وممارساته ، وكان لابد من الاستعانة بباصى لتوضيح بعض الأمور ، ووضع بعض النقط على بعض الحروف ، وتقرر عقد اجتماع فى الغد ، وطلبوا احضار باصى من سجنه فى سرداب الأمن العام ، وعندما هتف الضابط باسم باصى داخل السرداب ، سقط قلبه فى ركبتيه وهو يعلم بحكم التجربة والخبرة ، ان مثل هذا الاستدعاء هو نهاية المطاف ، وراح يفكر مع صوت السيارة السوداء المسدلة الستائر التى أقلته الى مكتب مصر بالنهاية البشعة التى انتهى اليها ، لقد كان مخلصا للحزب طول حياته ، البعض يتهمه بان اخلاصه لم يكن نتيجة

ايمان بالحزب ، ولكنه كان نتيجة جبن فطرى مخلوق معه منذ نفضته أمه فى احدى قرى القادسية ، ولكن أيا كان سبب اخلاصه ، فهو مخلص ، وهذا يكفى ، وكان ينفذ تعاليم الحزب بدقة حتى عندما أمروهم فى الحزب باطلاق شواربهم كان شاربه هو أكثر الشوارب طولا وعرضا ، ولكن هذه الكارثة التى وقعت كان سببها أنه وثق فى عبادة أكثر من اللازم ، وعبادة هو الذى تولى حشد الشباب للمؤتمر وهو الذى تولى الاتصال بهم وجمعهم ، صحيح انها غلطة من عبادة ، وكان ينبغى عليه ان يقوم بشىء من الاشراف أو بشىء من الاختبار بالشباب الذين جمعهم عبادة ، ولكنه لم يفعل ذلك هذه غلطته ، وهو يستحق عليها العقاب ، ولكنه لا يستحق عليها الموت ، لو استطاع فقط ان يكتب رأيه للقيادة أو يفسر لها موقفه بنفسه ، فربما نجا من المصير الذى انتهى اليه كثيرون قبله .. عدنان وشفيق وحسين وحماد وآخرون لا يذكر اسماءهم فى الوقت الحاضر ، ولكن ماذا يفيد الآن الحذر أو الندم ، وكل شىء فى طريقه الى الانتهاء بعد قليل ، عندما توقفت السيارة ، ونزل باصى منها تبين انه فى مكتب مصر ، فدخل يجر رجليه عبر الممر الضيق الذى اعتاد دخوله ألوف المرات من قبل ، هنا كانت مملكتك ياباصى ، وهنا كانت دولتك ، ولكنها الآن مقبرتك ، لن ترى الدنيا بعد ذلك وهذا آخر عهدك بالحياة ، وقف باصى لحظات ينتظر عند أحد الأبواب ، وعندما سمحوا له بالدخول أدرك أنها المحكمة التى انعقدت لمحاكمته ، كان هناك رئيس المكتب بنفسه ومعاونوه الكبار ، ولم يسمح لباصى بالجلوس ، ولكنهم قرأوا عليه خطاب عبادة وطلبوا رأيه وراح باصى يحاول جاهدا ان يستخرج الكلمات من أعماقه ، وأن يجعلها مسموعة للآخرين ، ولكنه فشل فى ذلك ، فقد كان أشبه بجثة تتكلم ، وطلب ماء ليشرب وتكرر الطلب عدة مرات ، وكأن حريقا قد شب فى جوفه فهو لا يرتوى على الاطلاق ، ولكنه وافق على بعض ما جاء فى خطاب عبادة واتهم عاصم وسعاد بأنهما مصدر قلق دائم للعمل الحزبى ، وانهما مصريان متعصبان ولا يتمتعان بنفس قومى ، ثم ألقى ببعض المسئولية على عبادة ووصفه بأنه أهوج وشديد الرغبة فى الثراء وجشع الى المال والى السلطة ، ثم راح يدافع عن نفسه بشدة فهو ليس مسئولا عن شىء مما حدث لقد كان فى المؤتمر أشبه بصراف يصرف ما تحت يده من نقود ، صحيح انه أخطأ فى شىء واحد هو ثقته المفرطة فى عبادة بل انه يتهم عبادة أيضا بأنه لم ينفق كل الفلوس التى حصل عليها من باصى ، وأن نصف هذه الفلوس ذهبت الى جيب عبادة بدون شك .

وعندما انتهى باصى من الادلاء بكل ما عنده اشار رئيس المحكمة بحركة من رأسه للحراس فانتزعوا باصى بقوة من مكانه وساروا به عبر الممر الى السيارة التى جاءت به فانطلقت به الى المكان الذى كان فيه .

● ● ●

عندما قرأت سعاد الورقة التى سلمها ساعى المكتب كادت تسقط على الأرض من هول المفاجأة ، لقد كانت الورقة تحمل أمرا لها باستلام عملها الجديد فى صباح الغد ، فى احدى شركات القطاع العام ، وعندما طوت الورقة فى يدها ودخلت على مكتب عاصم كان الغيظ ينهش قلبها ورأسها يكاد ينفجر ، ولكن عاصم استطاع ان يهدىء من روعها ، فلابد ان هناك خطأ ما ، ووعدها بأنه سيحسم الأمر مع رئيس مكتب مصر ، وراح عاصم يتصل برئيس المكتب ، ولكنه فى كل مرة لم يكن موجودا فى مكتبه ، عندئذ اتفق مع سعاد على ان تطلب اجازة مرضية لمدة اسبوع من عملها الجديد ، واتفق معها على ان تبقى فى بيتها لا تغادره خلال الأسبوع ، فربما استطاع عاصم ان يغير من هذا الوضع خلاله ، ولكنه اكتشف خلال محاولاته المتكررة ان فى الأمر شيئا ، لم يفصح له أحد عن هذا الشىء ، ولكن الجميع اصروا على ان مصلحة العمل تفرض هذا النقل العاجل الذى تقرر من أعلى مستوى ولا يمكن الرجوع فيه الآن ، ولم يكن هناك بد من تنفيذ الأمر ، استلمت سعاد عملها فى الشركة الجديدة ، ولكنها اكتشفت انه عمل شاق ومرهق وهو أقرب الى العمل اليدوى منه الى العمل الذهنى ، وانعكس هذا الحال مع عاصم أيضا فراح يمارس عمله بدون همة وبلا نشاط ، وطلب اجازة من العمل فاستجابوا اليها على الفور وقرر عاصم ان يقضى الاجازة مع سعاد فى بلد مجاور للقادسية ، وفى جو بعيد عن المشاكل ليقررا معا الخطوة التالية وليجيبا معا عن سؤال مهم للغاية : هل يبقيان فى القادسية أم يرحلان إلى بعيد ؟ ولكن طلب الاجازة التى تقدمت به سعاد ، رفض رفضا تاما فقرر عاصم السفر وحده على ان تلحق به سعاد بعد ذلك ، كان كل شىء ممهدا فى طريق عاصم عندما طلب تحويل مبلغ كبير تم تحويله على الفور ، ولم تستغرق تأشيرة خروجه الا دقائق معدودات ، ثم ودع سعاد واستقل سيارته وانطلق فى الطريق الدولى الى البلد المجاور الذى يقصده ، وكان قد وعد سعاد بالاتصال بها تليفونيا فى اليوم التالى عند وصوله ، ولكن انتظار سعاد طال عدة أيام دون جدوى ، وحاولت سعاد الاتصال به فى جميع الفنادق المعروفة فى البلد المجاور ، ولكنه لم يكن موجودا فى أى مكان ، وراحت تسأل عنه فى كل مكان فى القادسية ، ولكن الجميع أكدوا لها انه سافر بعد حصوله على

التأشيرة ، وبعد صرفه للنقود التى طلبها بالعملة الصعبة من أحد البنوك ، أين ذهب عاصم إذن هل معقول ان يكون قد هرب منها ، هل يمكن ان يكون قد خدعها ؟ هل كل هذا الحب كان مجرد خدعة من الخدع ، ولكن لماذا ؟ انها لم تكن من اصحاب المال حتى يطمع فى أموالها ، ولم تكن من أصحاب الجاه حتى يصبح من نفوذها ، لقد كان يحبها بحق ، وكانت تحبه أيضا فما الذى جرى بالضبط ، لم تصدق سعاد انه فر منها ، كما ألمح أحدهم اليها ذات مرة ، وقررت أن تواصل بحثها عن عاصم ، والى آخر الأرض ..

طلبت سعاد إجازة مفتوحة فاجيبت الى طلبها وطلبت تحويل ما معها من نقود الى عملة صعبة فاستجابوا لها على الفور ، وذهبت لتحصل على تأشيرة الخروج فضايقوها بعض الشىء ، وركنوها عدة أيام فى طابور لا ينتهى ، وبعض العساكر مارسوا عليها نوع من الرذالة والوقاحة ، ولكنها احتملت كل شىء ، وفى الوقت الذى حصلت فيه على التأشيرة ، حدث لها شىء لم تكن تتوقعه ، بعد ان استلمت جواز السفر ، وعليه خاتم تأشيرة الخروج ، صرخت فى وجهها امرأة مصرية سمينة بعض الشىء ، ووجهها ملطخ بكل ألوان الأصباغ :

ـ هوه انتى المفعوصة سعاد الى خطفتى عاصم منى ، وديتيه فين يامكسورة الرقبة .

وارتجفت سعاد بشدة ، ولكنها قالت للسيدة التى لم تكف عن الصراخ حضرتك تبقى مين ؟

ـ أنا نعيمة مرات عاصم يللى ماتختشيش على دمك ، وحياة سيدنا النبى لكون شاربة من دمك دلوقتى .

وهبرت فى لحمها بأظافرها الطويلة ، وانهالت عليها لطما وعضا وركلا ، ولم تتمكن سعاد من الصراخ ، ولم يتقدم أحد لنجدتها رغم وجود العشرات من الناس ، ومثلهم من رجال الشرطة ، وشعرت سعاد بأن ضلوعها تكاد تتمزق وأنفاسها تكاد تتوقف وأسودت الدنيا فجأة فى عينيها ، ولم تدر بشىء ، فقد أغمى عليها ، وعندما فتحت عينيها بعد وقت طويل اكتشفت انها طريحة الفراش فى أحد المستشفيات .

الفلوس

ما حدث لسعاد فى مكتب (شئون الأخوة العرب) كان تمثيلية من تأليف مكتب مصر واخراج باصى ، فى الوقت الذى حمله من المكتب بعد استجوابه إلى سجنه فى سرداب الأمن العام ، ذهب اليه رئيسه المباشر المدعو جبار وعرض عليه القيام بهذه التمثيلية لانقاذ رقبته قبل فوات الآوان ، وكان باصى الجبان على استعداد للقيام بأى شىء مقابل ان يفلت بجلده . خرج من سجنه صباحا وذهب الى بيت نعيمة التى كانت لاتزال نائمة فى الفراش .

ولكن مجىء باصى فى هذا الوقت المبكر جعلها تتوجس شرا ، وبرزت نعيمة لباصى بقميص نومها الشفاف وشعرها المنكوش يزيدها اغراء ، ولكن باصى الذى كان قد تعلم الدرس راح يتحدث اليها وعيناه تحدقان فى الأرض ، فالموقف عصيب والوقت يمر ، وعاصم يكاد يفلت من قبضة نعيمة ، الا اذا اسرعت نعيمة ووضعت حدا للمؤامرة التى تدبرها سعاد ضدها فى الخفاء ، اصيبت نعيمة بدهشة شديدة عندما علمت بهروب عاصم من القادسية ، سألت باصى عن المكان الذى يوجد فيه ، فاعتذر باصى لأن عاصم هرب ولم يترك عنوانه لأحد ، وأغلب الظن حسب معلومات باصى انه هرب من نعيمة ومن سعاد معا ، ولكن شروع سعاد فى عمل الاجراءات لمغادرة القادسية يجعل الأمر يختلف ، فهى لابد تعرف مكانه ولابد ستذهب اليه ، نظر باصى فى ساعته وقال :

- اليوم هو موعد حصولها على التأشيرة وباستطاعتك إفشال المؤامرة ..

وقالت نعيمة وهى تدعك عينيها المتورمتين :

- وهتاخد التأشيرة منين ؟

قال باصى وهو يتصنع الهدوء :
ـ رغم انى مشغول ، لكن أنا مستعد أوصلك لحد هناك .. سألته نعيمة وهى تتثاءب :
ـ الساعة كام معاك ؟
نظر باصى فى ساعته وقال :
ـ الساعة الآن السابعة وعشر دقائق ، وهم يبدأون العمل فى المكاتب الساعة الثامنة ، وهناك احتمال ان تذهب اليهم مبكرة .. ومن الأفضل ان تكونى هناك منذ الثامنة ، قالت نعيمة وهى تدخل الى غرفة النوم :
ـ انتظر فسأذهب معك ..
قال باصى وهو يجلس على أحد المقاعد :

ـ خدى وقتك ، مازال هناك متسع ، وفى امكانك صنع الشاى وشربه أيضا ، وجاء صوت نعيمة من الداخل غاضبا :
ـ أنا مش هاطفح حاجة قبل ما طفح سعاد الدم .. جلس باصى ينقر بأصابعه على مسند المقعد الذى جلس عليه ، كان يشعر بالسعادة فى أعماقه لرد الفعل عند نعيمة ، وأى غلطة الآن ستطيح برأسه .. لقد كان يشعر بالقلق قبل مجيئه الى هنا .. لقد خشى ان تبدى نعيمة عدم اهتمام بالموضوع ، ولكن ربنا سلم وجاء بالعواقب على ما يشتهى ، وستكون فضيحة بجلاجل فى مكتب التأشيرات ، ولابد من شحن نعيمة فى الطريق الى هناك ، وعندما نشبت المعركة بين نعيمة وسعاد ، لاذ باصى بالفرار ، ترك نعيمة تواجه مصيرها وذهب من فوره الى مكتب مصر لمقابلة جبار ، ولكن جبار لم يكن قد حضر بعد ، وجلس مع الحارس عند الباب ينتظره ، وعندما لمح سيارته هب واقفا لاستقباله ، فتح فمه عن ابتسامة بلهاء ، وبعد ان انتهى من ابلاغ جبار بالقصة كما حدثت بالتمام ، سأله جبار عن مصير نعيمة ، قرر عدم معرفته بما جرى لها ، أغلب الظن ان رجال الشرطة اقتادوها معهم ، نظر جبار الى باصى نظرة فاحصة وغاضبة فى الوقت نفسه وقال له :

ـ كيف تترك نعيمة تواجه مصيرها وحدها ؟
وقال باصى فى تهافت :
ـ لم يكن لدى تعليمات بهذا الخصوص .
ورد عليه جبار بحدة :
ـ اية تعليمات ؟ وهل يحتاج هذا الأمر الى تعليمات ؟ اذهب الآن الى القسم المجاور لمكتب التأشيرات ، فاذا عثرت عليها هناك اتصل بى

تليفونيا ، وسأحاول الاتصال بالمأمور لكى يسهل مهمتك ، وأعتقد ان موقفا مثل هذا سيوثق علاقتك بها وسيجعلها مثل قطعة عجين طرية فى يدك ، وتستطيع من خلالها ان تؤدى مهمات اخرى فى المستقبل .

وقعت هذه الكلمات على نفس باصى موقعا حسنا ، فقال لجبار وهو يحرك يديه كمن يتوضأ :

- هيكون فيه مهمات ثانية ان شاء الله ؟

وقال جبار وكأنه لم يسمع السؤال :

- أذهب الآن وخلصها من الأسر ، واذا نجحت فى تخليصها وحدك فلا تذهب إلى أى مكان قبل أن تتصل بى تليفونيا .

قال باصى والرعب يقتله :

- ليه ؟ هو فيه حاجة تانية ؟

وأشار إليه جبار بالانصراف ، بحركة من اصبعه وانشغل فيما أمامه من أوراق ، وخرج باصى من مكتب جبار يكاد يجرى ، فقد تملكته مشاعر شتى من الفرح والخوف والقلق .

تقدم باصى للمأمور بصفته أمين سر مكتب مصر ، فاستقبله الرجل بترحاب شديد ، ودعاه الى الجلوس ، ولكن باصى اعتذر بأنه جاء فى مهمة عاجلة بتكليف من المكتب ، وطلب الافراج فورا عن نعيمة لأسباب تتعلق بالمصلحة العليا لا يستطيع باصى ان يفصح عنها لأى أحد ، ولم يكلف المأمور نفسه عناء التحقق من شخصية باصى ، ولكنه غادر مكتبه على الفور وعاد وفى يده نعيمة ، التى كانت ملامحها تحمل مزيدا من الغضب والقلق ، ولكن الهدوء عاودها عندما رأت باصى أمامها فى المكتب ، وطمأنها باصى بكلمات طيبة ، وشكر المأمور ، واصطحبها معه وخرج ، وفى السيارة التى نقلتهما الى منزل نعيمة قالت نعيمة :

- لو تأخرت عن الحضور الى القسم ساعة واحدة ، لأصبحت فى عداد الأموات .. ان المكان الذى كنت فيه ليس حجزا ، وليس سجنا ، ولكنه جهنم نفسها .. جتكو مصيبة بلد ..

واعتذر باصى لها ، فهو اضطر الى الذهاب الى مكتب مصر أولا لكى يستصدر لها قرارا بالافراج على أعلى مستوى ، وزعم باصى لها انه صمم على مقابلة أكبر المسئولين فى الحزب لكى يحصل على هذا القرار ، وابتسم ابتسامة صفراء وقال لها :

- حظك سعيد ، لقد وجدت الطريق ممهدا أمامى وحصلت على قرار الافراج فى دقائق .

ثم صمت برهة قبل أن يستطرد :

ـ ليس حظك فقط ، ولكن حظى أنا أيضا ، لو فشلت فى اخراجك من السجن ، لسقطت ميتا من شدة الحزن .

ولكزته نعيمة فى صدره لكزة خفيفة ، وقالت وهى تحاول ان تنتزع ضحكة باهتة :

ـ إحنا فى ايه واللا فى ايه ؟؟

وقال باصى وهو يحاول ان يبدو لطيفا :

ـ أنت ما تعرفيش أنت غالية عندى قد إيه ؟

وتجاهلت نعيمة قول باصى ، وسألته :

ـ مافيش أخبار عن عاصم ؟

ورد باصى :

ـ لا شىء عن عاصم حتى الآن ..

عندما وصلت السيارة إلى المنزل ، استأذن باصى منها بالانصراف زاعما لها انه على موعد مع شخصية هامة فى الحزب لبحث بعض الأمور المتعلقة بها وبغريمتها سعاد .

وقفت نعيمة لحظات أمام المرآة تعالج التغييرات التى طرأت على وجهها خلال الساعات التى قضتها فى القسم ، وشعرت بأنها فى حاجة الى النوم اسبوعا كاملا ، انها لا تذكر الان ما حدث بالضبط بينها وبين سعاد ، لقد غاصت فى لحمها بأظافرها وبأسنانها ، مع ان لحمها مثل لحم الماعز ، ما الذى أحبه فيها عاصم ، هذه الحشفة الناشفة التى ليست على هيئة النسوان ؟ هذا الصايع الضايع عاصم ترى أين ذهب ؟ لقد كانت سعيدة به رغم كل شىء لأنه متعلم ويجيد الحديث مع كل الناس ، وهى لم تقصر معه أبدا ، ولكنه هو الذى قصر فى حقها ، زعم انه مشغول فى العمل ، مع انه كان مشغولا فى الحب .. وياليت الموكوس وقع فى حب من تستحقه ، ولكنه وقع فى شر أعماله ، وألقت على نفسها نظرة فى المرآة وهى تخلع فستانها وقالت لنفسها :

ـ يترك هذا المحمل ويجرى ورا جربوعة من جرابيع الصحراء .. ما الذى جرى للرجال فى هذا الزمان ؟

عندما دخلت حجرة نومها ، بذلت محاولات كثيرة لفتح درج الدولاب الخاص بعاصم الذى كان يضع فيه بعض النقود لوقت شدة ، لابد انه أخذها معه اذا كان ينوى الهروب حقا ، ونجحت أخيرا فى فتح الدرج ، واكتشفت

وجود الفلوس مكانها ، ألف دينار ، قادسوى وعشرون دينارا من عملة الفيحاء ، وألف ومائتى دولار وورقة مالية مصرية من فئة المائة جنيه ، وأغلقت الدرج كما كان ، ثم ارتمت على السرير ، وحاولت النوم دون جدوى ، شغلتها مسألة غياب عاصم بشدة ، ما الذى يمكنها ان تفعله لو اختفى عاصم من حياتها الى الأبد ؟ انها لم تحترف شيئا فى الحياة سوى ان تكون زوجة . هل تعود الى مصر ؟ وما الذى يمكنها ان تفعله هناك ؟ لا عائلة ولا بيت ولا مستقبل . هل تعيش فى القادسية ؟ انها كارثة حقيقية ، فهى لا تعرف سوى باصى ، وشكله المنفر يصيبها بالحساسية ، ما الذى يخبئه الغد لنعيمة ؟ وهل صحيح اختفى عاصم من حياتها الى الأبد ؟ وهل صحيح هرب ؟ أم اصابه مكروه ؟ انقبض قلب نعيمة بشدة ودست رأسها تحت الوسادة ، وحاولت ان تنسى كل شىء .

● ● ●

أحدث اختفاء عاصم هزة شديدة فى شركة الكهرباء .

همس بعضهم بأن زبانية حزب النهضة قتلوه وهو يجرى بسيارته على الطريق السريع الى البلد المجاور ، وكان ابن بهانة هو أكثر الجميع اهتماما بما جرى لعاصم ، لقد كان رجلا جادا وفى حاله ، وكان صديقا للجميع ومتعاونا مع الكل ، وصاحب عقل راجح ، كان ابن بهانة يلجأ اليه أحيانا لاستشارته فيما غمض عليه من أمور ، وهزه بعنف الهمس الذى يدور حول مقتل عاصم . الشائعات تقول .. الذى قتله هم رجال حزب النهضة . هل هذا معقول ؟ لقد كان عاصم يخدم القضية مثله . ورجال حزب النهضة هم أصحاب القضية كما يقولون . فكيف يقتل أصحاب القضية واحدا من خدامها ؟ والقضية لاتزال منظورة ولم ينظر فيها بعد . تغير ابن بهانة فى الأيام الأخيرة ، فلم يعد هو نفسه الشخص الذى جاء . صار يذهب الى التدريب متأخرا ، ويقوم بتدريب الشباب دون حماس ، وراح يتكلم كثيرا عن عاصم مع كل من يلقاه ، ولاحظ بعض المندسين فى صفوف الشباب هذا التغيير على ابن بهانة فأبلغوا به جبار ، ولذلك استدعاه جبار ذات صباح وراح يسأله عن الأحوال وعن سير العمل فى المعسكر ، وبشره بقرب بداية العمل الحقيقى على أرض الواقع ، فالمعركة على الأبواب ، وغدا يبدأ الكفاح الحقيقى داخل مصر نفسها ، وتصور ابن بهانة ان جبار نطق كلمة مصر بدلا من كلمة فلسطين ، ولم يعر الأمر انتباها ومر عليه مرور الكرام . ولم يخرج جبار من الحديث مع ابن بهانة بنتيجة سوى انه كان مشوشا بعض الشىء . كما لاحظ شدة اهتمامه بمصير عاصم . ولذلك استدعى جبار باصى من

بيته ، فهو لايزال موقوفا عن العمل ويلازم بيته بأوامر من القيادة المحلية .
وعندما جلس الرجلان وجها لوجه . قال جبار لباصي :
ـ الآن .. لابد من ابلاغ ابن بهانة بالحقيقة ، ولابد ان يعلم ان عاصم هو الذى خطف منه نعيمة ..

وابدى باصي ابتهاجا شديدا بالمهمة الجديدة التى كلفه بها جبار ووعده بتنفيذها على الفور ، ولكن جبار حذره من ابلاغ ابن بهانة بالأمر بشكل مباشر ، وأوصاه بضرورة ابلاغه بالتفاصيل بطريقة توحى بان جبار يحكى معلومات يعرفها ولا يقصد ابن بهانة بها ، ولابد ان يحرص على سرد معلوماته أمام عدد اخر من الناس من بينهم ابن بهانة ، ووعد باصي بتنفيذ المهمة على أكمل وجه ، ولكن باصي شعر بقلق شديد . فماذا لو عرف ابن بهانة ان نعيمة لاتزال موجودة فى القادسية ؟ ومن يضمن انه لا يفكر فى قتلها من جديد ؟ هذه البنت الشهية التى انفتح قلب باصي لها وتمنى ان يصل الى قلبها . وصل باصي فى النهاية الى حل ، سيضيف الى معلوماته بعض الرتوش . سيزعم ان عاصم أخذ معه نعيمة فى رحلة هروبه ، وسيضيف أيضا انه هرب مع نعيمة بعد ان استولى على أموال شركة الكهرباء ! ولم يدرك باصي ان المعركة التى نشبت بين سعاد ونعيمة فى مكتب التأشيرات قد وصلت الى الشركة وان بعض العاملين فى الشركة قاموا بزيارة سعاد فى المستشفى وكان ابن بهانة من بينهم . ولكن ابتعاد باصي عن الشركة وتحديد اقامته فى منزله ، جعله لا يدرى ما يجرى حوله على وجه التحديد . وفى اليوم الذى حدده باصي ، ورسم خطته بدقة لابلاغ ابن بهانة بالحقيقة . حدث ما أفسد عليه الأمر كله . فقد وصل الى القادسية رئيس الحزب الكهربائى ومعه خبر رهيب ، انفجر فى القادسية وفى شركة الكهرباء بالذات انفجار قنبلة ذرية .. لقد قرر رئيس الشركة فى الاجتماع الذى عقده فور وصوله الى مكتبه فى شركة الكهرباء ، بأن وكيل الحزب عبادة هرب الى مكان مجهول وفى جيبه مليونان من الدولارات من أموال الشركة ، وشهق الجالسون على المائدة من شدة الدهشة لهول المبلغ الذى ذكره رئيس الحزب الكهربائى ، ولكن ابن بهانة كان هو الوحيد الذى لم يصدر عنه أى رد فعل ، فقد شعر وهو جالس عند سماعه لما قرره رئيس الحزب الكهربائى بأن جسده كله قد تحول الى لوح من الثلج .

ـ اتنين مليون دولار ياكفرة من فلوس القضية ، وما هى القضية إذن ، اذا كانت تملك كل هذه الفلوس ؟

التهريب

لم يبد على عبدالوارث أى انفعال عندما راح باصى يحكى أمام مجموعة من الناس قصة عاصم ، وكيف أنه يستحق ماجرى له ، لأن الله يمهل ولا يهمل .. وقال باصى فى لهجة تقطر أسى وأسفاً :

ـ هذا هو مصير من يعتدى على أعراض الناس .. فهذا الولد عاصم سرق زوجة من زوجها وجاء بها إلى القادسية ، وأكرمه حزب النهضة وفتح جميع السبل أمامه ، ولكن الذى احترف أكل الحرام ، لا يمكن أن يستسيغ طعاماً حلالاً ، لقد اختفى عاصم وكأن الأرض ابتلعته ، ولا أحد يعرف أين يوجد الآن ، لو أنه مات وعثروا على جثته لكان ذلك أهون ، ولكنه اختفى .. دليل على انتقام السماء ، فالرجل اعتاد خطف النساء والاستيلاء على مامعهن من نقود ومتاع .

وألمح باصى فى حديثه إلى أن عاصم كان فى طريقه إلى مهمة ومعه أموال صرفت له من البنك المركزى ، وهى أموال لها صورة . ولذلك فهو نفسه لا يصدق أن عاصم اختفى كما يشاع . لقد شاهده البعض فى باريس ، وبعضهم شاهده فى لندن .. وهو يسهر الليل فى الكازينوهات وينام النهار بطوله فى الفنادق ، وينفق عن سعة كأصحاب الملايين ، ولكن مصيره فى النهاية هو الصياعة والفقر مثواه . ومصمص باصى شفتيه وقال :

ـ هذا هو ذنب نعيمة الغلبانة ، وذنب البنت المسكينة سعاد التى أصيبت بالجنون بعد أن استولى عاصم على كل ما كانت تملكه فى الحياة .

وحدق باصى فى وجه ابن بهانة ، ولكن ابن بهانة كان فى واد آخر بعيد ، غريب أمر هذا الولد ابن بهانة ، لايشعر بغيرة ولا يشعر بغيظ ، سيفشل باصى فى مهمته الجديدة ، وقد يلقى مصير عاصم ، إذا لم يرغم عبدالوارث على شتيمة عاصم فى كل مكان . هذه هى مهمته الجديدة التى حددها له جبار وتوعده فى حالة الفشل بمصير أسود من قرون الخروب .

استأذن عبدالوارث وانصرف وعرج على المقهى وهو فى طريقه إلى البيت ، وجلس فى مكانه المعتاد ينظر إلى الطريق بعينين تائهتين .. وعندما جاءه صبى المقهى بكوب الشاى ، سأله عن يوسف . واستبدت به الدهشة عندما عرف أن يوسف لم يحضر إلى المقهى منذ الأمس :

الله يخرب بيتها نعيمة بنت الكلب ، هى التى أفسدت حياته .. فى البداية وفى النهاية ، لو وجدها فى الكفر بعد عودته من الفيحاء ، لاستقر هناك وعاش بقية العمر ، ولو أنها لم تظهر له فى القادسية ، لقضى حياته سعيداً فى المقهى وفى بيت أم هناء ، لو أنه لم يغادر الكفر فى حياته لكان حاله أفضل ما هو عليه الآن ، الفلوس زادت فى جيب ابن بهانة والهموم تضاعفت والبهجة زالت ولم يعد للحياة طعم .

ـ آه لو يصدر إليه الأمر ببدء الحرب المقدسة فى فلسطين ، لو يذهب إلى هناك ويموت برصاصة ليتخلص من جميع المشاكل ويموت شهيداً ويذهب إلى جنة رضوان .. فى هذا المكان بالتحديد وعلى هذا المقهى بالذات كان ابن بهانة يشعر بالسعادة قبل أن يأخذوه إلى السجن ويظهر أبو ياسر فى حياته . الآن يجلس ابن بهانة فى نفس المكان ، ولكنه لا يشعر بشىء على الإطلاق .. إلا بالكآبة والغم ، حتى كوب الشاى الذى كان يعمر به دماغه فى الأيام الخوالى لم يشعر بطعمه فى حنكه ، ولذلك أزاحه جانباً بعد أن رشف منه رشفتين ، وهب واقفاً واتخذ طريقه إلى البيت فى الدروب الضيقة ، عيناه مفتوحتان ولكنه لا يكاد يرى شيئا أمامه ، لدرجة أن الحاج فاضل الجزار استوقفه بجذبه من الخلف قائلا له :

ـ أنت وين ؟!

ورد عبدالوارث :

ـ أنا تحت أمرك .

وقال له الحاج فاضل :

ـ أنا عمال أصيح عليك وانت سارح بعيد .. إيش صابك ياعبدالوارث ، مديون ؟

ورد عبدالوارث :

ـ لا أبداً .. الحمد لله .. الأشيا معدن .

وقال الحاج فاضل :

ـ لا .. مش باين عليك ، فيه حاجة فى دماغك ياعبدالوارث ، تعال أشرب قهوة وريح دماغك يارجال . الدنيا ماتسوا .. واستسلم عبدالوارث للحاج فاضل وذهب معه إلى دكانه ووجد على الرصيف جماعة من الأصدقاء القدامى .. أبو دينا ، وأبو رشاد ، وأبو سعد يدخنون النرجيلة ، ويشربون

استكانات الشاى ، وصافحهم عبدالوارث وجلس ، وقال له أبو دينا :
- أحوالك زين هالايام ياعبدالوارث ؟
ورد عليه الحاج فاضل :
- يارجال حرام عليك .. الرجال مشغول وماهو عايش معانا ..

وقال أبو دينا بعد أن جذب نفساً عميقاً من النرجيلة .
- وكيف عاوزه يعيش معانا .. عبدالوارث مسئول كبير ، وطول النهار مع رئيس القيادة المحلية ..

جلس عبدالوارث وسط الجميع وكأنه لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً .. وكان بين الحين والآخر يتصنع ابتسامة يرسمها على شفتيه ، وبعد أن ابتلع استكانة الشاى ، استأذن وقام للانصراف ، وقال له أبو رشاد :
- خلينا على فكرك ياأستاذ .. أنت طبعاً تعرف إن احنا جميعاً فى خدمة القيادة .
عندما فتحت أم هناء الباب لعبدالوارث ، تلقفته بين يديها ، فقد كان بادى الإرهاق وعلى وشك السقوط ، وقالت له أم هناء ، وقد استبد بها القلق :
- مالك ياعبدالوارث ، حصل شى ؟
وجلس عبدالوارث على أقرب كنبة وضغط على عظام جبهته بأصابعه وقال لأم هناء :
- لقد مات عاصم ..

وتساءلت أم هناء :
- ومن يكون عاصم هذا ؟

وراح عبدالوارث يصف لها عاصم الذى يعمل معه فى شركة الكهرباء ، وكيف أنه كان خلوقاً وطيب القلب ، وكان يحب الجميع ويحبه الجميع .. وقالت أم هناء :
- هل كان مريضا ؟
ورد ابن بهانة :
- لم يكن به مرض على الإطلاق ، ولكنه فيما يبدو اختلف مع الجماعة فى حزب النهضة وقتلوه .

ومدت أم هناء يدها بسرعة البرق وكتمت أنفاسه لكى تمنعه من الاسترسال فى الكلام . وصرخت فيه بصوت مبحوح :
- لا تتكلم مثل هذا الكلام ياعبدالوارث ، أنت رجل طيب القلب ولا تعرف هؤلاء الملاعين ، إنهم يسمعون دبة النملة فى أنحاء القادسية ويدهم طويلة تستطيع أن تطولك فى أى مكان .. وقال عبدالوارث :
- أشعر بقلبى مقبوض ياأم هناء .. ونفسى مكتوم .

- منذ اتصالك بهم ، وأنا أعرف أن هذه ستكون حالتك .. جماعتنا شر ،

إذا ابتعدت خسرت وإذا اقتربت منهم خسرت ، ولكن حذار أن تفتح فمك بكلمة واحدة أمام أى مخلوق فنحن هنا فى القادسية لا نعرف العدو من الصديق ومصائر الناس معلقة بكلمة تنقل عنهم ، لكى تضمن حياتك هنا ، فلابد أن تخفى سرك .. وأن تكتم حقيقة نفسك .. هذه نصيحتى لك ياعبدالوارث ، وإياك أن تنساها فى أى وقت ..

وقال عبدالوارث :

ـ والعمل إيه ياأم هناء ؟

ـ أنا مستعدة أذهب معك إلى أى مكان ، إذا أردتنى أذهب معك إلى الكفر ..

وقال ابن بهانة :

ـ ولكن الحياة فى الكفر لا تليق بك ياأم هناء ..

وردت أم هناء :

ـ لن يكون أفقر من الكفور عندنا .. وأنا عندى فلوس لو استطعنا تهريبها .. فهى تكفينا للعيش بكرامة إلى آخر العمر ..

وقال عبدالوارث وقد شدت كلمات أم هناء انتباهه :

ـ ولكن كيف ؟

وردت أم هناء :

ـ لاتتعب نفسك الآن ، فأنت فى حاجة إلى الراحة . وأنا عندى طريقة لو وافقتنى عليها سيكون كل شىء على مايرام ..

عندما استيقظ عبدالوارث من النوم كان الوقت متأخراً ، فقد نام عبدالوارث مايقرب من عشر ساعات متواصلة ، وهدأ عبدالوارث بعض الشىء ولكن أمعاءه كانت تصرخ من شدة الجوع ، وانهمكت أم هناء فى إعداد الطعام ، وبعد أن أكل أشعل سيجارة وجلس على الكنبة فى انتظار أم هناء التى كانت مشغولة فى إعداد الشاى ، وعندما جاءت بصينية الشاى افسح لها مكاناً بجواره على الكنبة ، ثم شرب الاستكانة كلها فى رشفة واحدة وقال لأم هناء :

ـ ماتقوليلى بقى إيه اللى فى دماغك ؟

ـ نهرب فلوسنا ونمشى من هنا ..

ـ إزاى ؟

مسحت أم هناء وجهها براحة يدها وقالت :

ـ يوسف ..

قطب ابن بهانة جبينه وقال :

ـ بتقولى مين ؟

أعادت أم هناء على مسامعه اسم يوسف مرة أخرى ، فتساءل فى دهشة :
- يوسف مين ؟
قالت أم هناء :
- يوسف صاحبك اللى جاعد فى القهوة .. وعاد ابن بهانة يسأل :
- ويوسف ماله ومال الحكاية دى ..

اعتدلت أم هناء فى جلستها وقالت :
- ياسيدى أنت مشغول وماعدت تسأل عن يوسف ، ولذلك جاءنى منذ أسبوع وقال إن عنده مشكلة ، ولكنه لا يجدك لكى يعرضها عليك ، وإن وجدك فأنت لا تعطيه أذناً صاغية ، وعندما سألته عن المشكلة ، قال إنه يريد السفر إلى القاهرة ، لأن هناك مشاكل كثيرة تنتظره ، وخمنت أنه يريد بعض الفلوس كى يستعين بها على سفره ، ولكنه رفض بشدة ، وقال إن أحواله مستورة والحمد لله ، وأبلغنى أنه أرسل مبلغاً من المال إلى الأردن ، وأنه سيمر على الأردن فى طريقه إلى القاهرة ليأخذ ماله الذى استطاع تهريبه من هنا . وعندما سألته كيف دبر الأمر . قال : إنه يرسل النقود مع سائقى السيارات التى تقطع الطريق بين الفيحاء والأردن . والأردن والقادسية ، واستطردت أم هناء :

- إنها فكرة جهنمية ، ولا تخطر لأحد على بال .
لعق عبدالوارث شفتيه بلسانه وقال :
- ولكن يوسف اختفى منذ الامس .
وقالت أم هناء :
- أنا سمحت له بالسفر ، هو الآن فى عمان ، وسيقضى فيها يومين قبل أن يغادرها إلى القاهرة ، واعتدل عبدالوارث فى جلسته وقال لأم هناء :
- هل فاتحت يوسف فى شأن تهريب الفلوس ؟
ونفت أم هناء ذلك بشدة ، فقال لها عبدالوارث :
- خيراً فعلت ، فهذا الكلب يوسف وسخ وحقير ولا يتورع عن عمل أى شىء إذا كان سيكسب من ورائه شيئاً ..
وقالت أم هناء :

- وأنا اخترته لهذه المهمة ، لهذه الأسباب نفسها ، فهو سيجنى من ورائها ربحاً كثيراً ..
وبدا على وجه عبدالوارث أنه لم يفهم شيئاً .
فقالت أم هناء :
- إذا قام بالمهمة خير قيام ، فسأترك له القهوة وتصبح ملكاً حلالاً له .

ونظر إليها عبدالوارث نظرة لا تخلو من إعجاب . هذه المرأة التى تبدو

ساذجة تتصرف بحكمة وخبث ولا خبث أحبار اليهود . ويوسف سيصنع كل شيء بالفعل إذا تأكد أن القهوة ستكون من نصيبه .

ولكن ما الذى يضمن صمت يوسف فلا يسارع بالإبلاغ عن أم هناء ، فيضمن القهوة ويضمن إزاحتنا من طريقه ، إنها مسألة شائكة وخطيرة وينبغى علاجها بحذر شديد ، وعندما افصح عبدالوارث عن مخاوفه تجاه يوسف لأم هناء ، أجابت على الفور :

ـ بالعكس ، يوسف هو أصلح الناس لهذه المهمة . فهو المصرى الوحيد الذ لم يقع فى قبضة جماعتنا وهو قليل الكلام وشديد الانطواء ، وفى نفسه كره طبيعى للبشر ، وأغلب الظن أنه ليس له أصدقاء فى القادسية كلها ، فهو يتعالى على عمال القهوة ، ويجعل بينه وبين رواد القهوة جداراً عالياً ، ولم يحدث أن شاهدته مرة واحدة يجلس أو يتكلم مع أحد ، ولذلك فهو لن يستطيع أن يقول لأحد حتى ولو أراد ذلك ، لأنه لن يجد من يفشى له هذا السر ، كما أننى لو وعدته بملكية القهوة فسيطير فرحاً ، وسيحاول أن يدرأ عنى أى خطر حتى لا تضيع الصفقة من بين يديه ..

وشرد عبدالوارث بفكره بعيداً ثم قال لأم هناء :

ـ وحتى لو ضمنا يوسف ، فمن يضمن لنا السواق الذى سيقوم بتهريب الفلوس إلى الأردن .

قالت أم هناء :

ـ لن يكون هناك أى خطر على الفلوس ، فلن نقوم بتهريب فلوسنا كلها مرة واحدة ، ولكن سنقوم بتهريبها على دفعات . وحتى لو فقدنا دفعة منها ، فسنتوقف على الفور ، ونبحث عن وسائل أخرى . ثم هناك تجربة ننتظر نتيجتها الآن ، هى فلوس يوسف التى سبق تهريبها ، إذا حصل عليها من السواق ، كان ذلك بمثابة إشارة خضراء لنبدأ العمل . وإذا ضاعت عليه . نكون قد جربنا فى يوسف وانتهى الأمر ..

وضغط عبدالوارث على فكه بقبضة يده ثم أمسك فى كتف أم هناء وقال لها وهو يحدق فى عينيها :

ـ إذا حصل يوسف على فلوسه من السواق ، ففاتحيه فى الأمر . ويصبح افضل لو جعلتيه يعتقد أن هذه العملية تتم من وراء ظهرى .. فهو ربما لا يزال يحمل فى نفسه شيئاً من ناحيتى .. أما من ناحيتك فلا أعتقد أنه يريد إلحاق الأذى بك .

ـ هذا هو نفس ماكنت أفكر فيه .

حاول عبدالوارث أن يفرغ استكانة شاى أخرى لنفسه ، ولكنه اكتشف أن الشاى صار بارداً كالماء القراح ، وهمت أم هناء لمغادرة مكانها والذهاب إلى

المطبخ لإعداد الشاى ، ولكنه أمسك بها وأبقاها فى مكانها ، وقال لها وهو يحدق فى عينيها بشدة :

- عينك حسك ياأم هناء أن يخرج هذا السر من صدرك ..

فقالت أم هناء :

- هذا هو الذى أريد أن أقوله لك .. فأنا لا أعرف أحداً ولا أختلط بأحد ، المهم أنت وعليك أن تكتم السر فلا تبوح به لأى أحد ..

وقال عبدالوارث :

- وهل أنا مجنون ، أنا لم أشعر بالخوف فى حياتى إلا فى هذا البلد ، وأنا على استعداد للعيش متسولاً فى أى بلد ولا أعيش وزيراً هنا .. إن الخوف ياأم هناء هو أسوأ شىء يصيب الإنسان ، وما عدا الخوف ، فكل شىء محتمل ..

وسكت عبدالوارث فترة وغاب بعيداً عن أم هناء ، وعندما عاد من شطحته هب واقفاً كأنه على وشك الخروج ، ولكنه عاد فجلس مكانه على الكنبة . ثم هرش فى قفاه وقال لأم هناء :

- إذا نجح مشروعك ، فسأكون كمن ولد من جديد .. إننى لم أنم منذ شهر إلا اليوم ، وأنا اليوم لم أنم فى الحقيقة ولكننى أصبت بالإغماء ، لم أعد أحتمل الحياة هنا يا أم هناء ، وإذا فشل مشروعك ، فأنا أخشى أن أقتل نفسى بيدى ، وضربت أم هناء صدرها بيدها وقالت فى فزع :

- لو فعلت ذلك بنفسك ياعبدالوارث فسأموت فى الحال .. ثم احتضنته بشدة وراحت تدلك له بأصابعها فقرات عنقه مما أشعر عبدالوارث بالراحة ، فألقى برأسه على كتفها وشعر براحة لم يشعر بمثلها منذ اشتغل فى شركة الكهرباء !

العـــــودة

عندما عاد يوسف إلى القادسية ، كان قد أنجز مهمته على خير وجه ، فى عمان إلتقى بالسائق الذى تسلم منه النقود وعاش فى ضيافته يوما كاملا ، كانت ليلة من أسعد أيام العمر ، تناول يوسف عشاءه مع صديقه فى الجبل ، وشرب يوسف عرق زحلاوى من الصنف الجيد ، ودخن سيجارتين معطرتين دفعت يوسف إلى التحليق فى الفضاء الواسع ، وتمنى يوسف لو عاش عمره فى هذا المكان لايبرحه .

واندهش يوسف لأن مصــر هى البلد الوحيد الذى يخلو من الجبال وارضها منبسطة مثل حصيرة مفروشة على أرض ممهدة ، القادسية تشبهها ولكن بعض الذين عاشوا هناك فترة أطول ، اكدوا ليوسف أن فى الشمال جبالا ليس لها مثيل فى الطول ، وليس لها شبيه فى الضخامة ، وأن الناس تعيش على قمم الجبال ، ويأبون السكن فى السفوح المنبسطة ، هنا أيضا فى عمان جبال فوقها جبال ، وتصعد إليها فى عز الحر فتلقاك نسمة طرية كأنها تهب عليك من جنة رضوان والهواء هنا يفتح النفس فيأكل الإنسان مثل حمار حصاوى بعد رحلة مضنية عبر القرى والحقول .. والناس تأكل كثيرا هنا وأوزان الجميع على مايرام ، ولكن لأن ليس كل مايتمنى المرء يدركه ، فقد اضطر يوسف إلى مغادرة عمان وجيبه عامر بفلوسه وعاد إلى كفر الغناوة ، ياقوة الله ! الكفر انقلب حاله رأسا على عقب ، حتى الواد شلبى الأقرع بنى لنفسه داراً على الترعة وبالطوب الأحمر والأسمنت المسلح ، وجاء فى المساء وجلس مع يوسف أمام الدوار ، وحكى ليوسف عن رحلته إلى ليبيا ، وكيف أنه اضطر إلى أخفاء نقوده التى كسبها بعرق جبينه وهو يعمل فى الأرض بهمة لاتعرف الكسل ، وبعد أن داخ دوخة الفرخة الدايخة وعاش سنوات محروما من الأهل والأصحاب ، هبت الريح العاتية وقامت الثورة ضد المصــريين ، واضطر شلبى إلى أخفاء النقود بطرق جهنمية حتى

عاد بها إلى كفر الغناوة .. أما متاعه فى ليبيا فقد استولت عليه الثورة وأخذوه عنوة وجردوه من كل شىء حتى من الراديو الترانزستور الذى فى حجم الكف وينقل اليك الدنيا بأسرها ، وتساءل يوسف وهو يشفط أنفاسا من الجوزة :

ـ هوه فيه ثورة قامت فى ليبيا ؟

ـ أمال .. قامت ثورة ضد المصـريين ووقعنا فى شر اعمالنا هناك لكن ربنا سلم فى النهاية وادى احنا جينا بالسلامة لينا عيش مخبوز فى مصـر ناكله ولينا حظ نشوفك برضه ياسى يوسف ..

وحكى يوسف هو الآخر للصحاب الذين تجمعوا حوله عن رحلته إلى القادسية وكيف انه يعيش هناك فى خير حال ويشرف على عمل كبير ومهمته هى الاشراف فقط من بعيد .. وروى لهم كيف ان الناس فى القادسية بدأت تتحرش بالمصـريين وأحيانا يعتدون عليهم ، فالمصـريون هناك أصبحوا بالملايين ، وسأله أحد الحاضرين :

ـ وحد داسلك على طرف هناك يايوسف ؟

واعتدل يوسف فى جلسته وجذب ذيل جلبابه فكشف عن الحذاء اللميع الذى اشتراه فى عمان وهو فى طريقه إلى القاهرة وقال :

ـ ليه هيه هزلت ياوله ؟ ماهى الناس مقامات ، وكل واحد مقامه محفوظ فى اى حتة ، والناس هناك بتفهم وتعرف الناس .

ـ ياسلام يعنى عارفينك عمدة يايوسف .

همه عارفين وبس .. دنا من أول ماحطيت رجلى فى المطار وراجل وشه سمح قرب جنبى كده ، وقالى حضرتك سى يوسف العمدة ، أى والله كده ، حاكم هناك بلاد أصول وعندهم عمد برضه ، وعارفين مصـر كفر كفر وعمدة عمدة .. طب والله ، ساعات وأنا ماشى فى الشارع كده فى القاسية القى الخفر بيضربولى سلام .

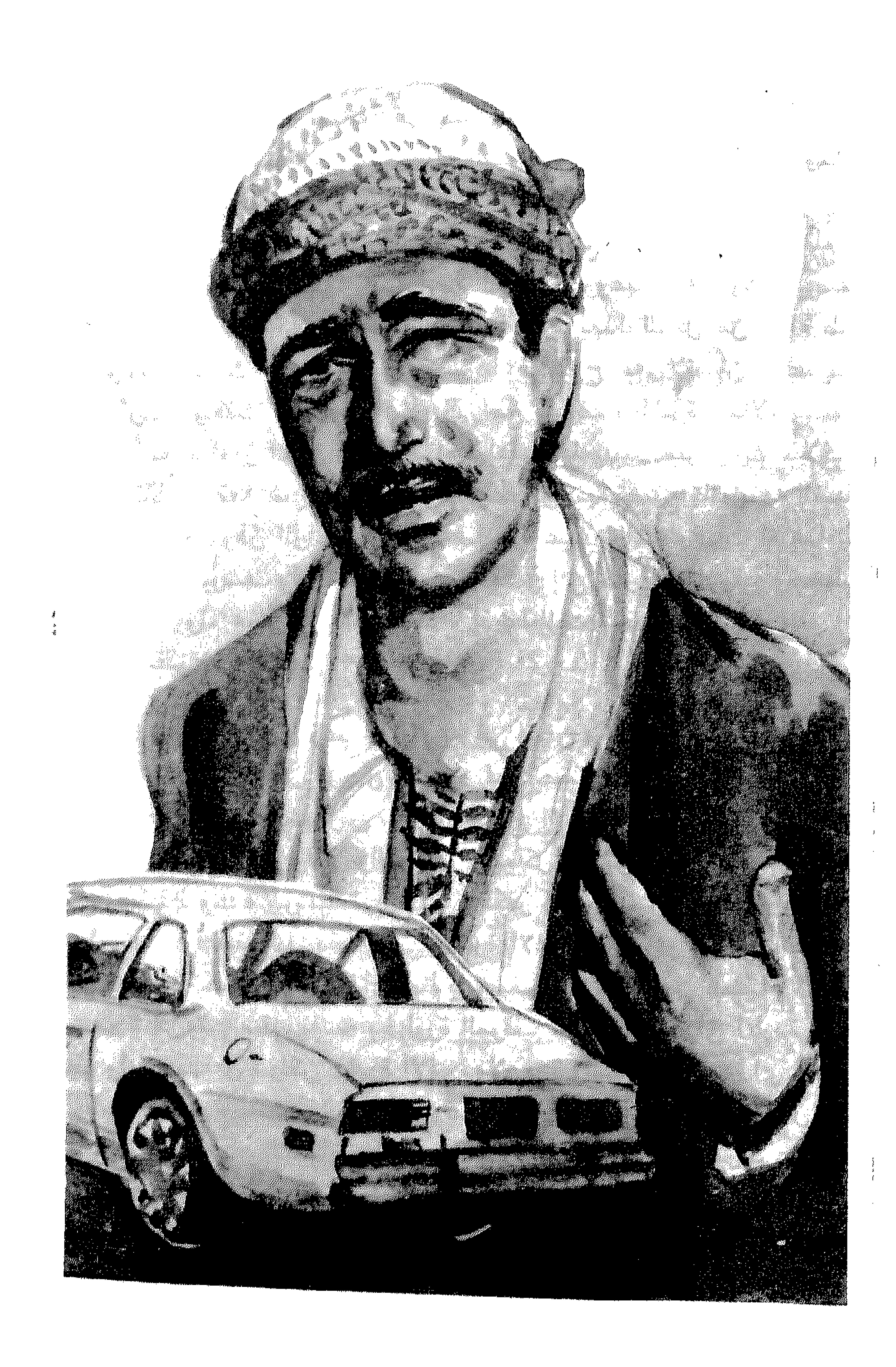
ـ هوه فيه خفر برضه ياعمدة ؟

ـ ايوه فيه كل حاجة بس باسم تانى بقى .. هناك اسمهم الجيش الشعبى (بكسر الشين) عيال مؤدبين .. أى حته يقابلونى فيها يضربولى سلام على طول .

وراح يحكى للجميع عن المعاملة الخاصة التى يلقاها يوسف فى القادسية :

تصدقوا بالله اهم هناك بيدوا النفر من المصـريين تلاتين دينارا واربعين دينار فى الشهر ، محسوبكم بأه يأخد اللى على كيفه .. وتساءل أحدهم :

ـ صحيح ياعمدة انت حاطط عينك على الخمس فدادين اللى على حرف الرياح ؟



وصمت يوسف قليلا ثم قال :

ـ أنا بينى وبينكم لسه باتفرج ، لكن لسه مرستش على بر ، خصوصا وانا جى الدور ده جركسوه كده وراجع على طول ، حاكم الشغل هناك مايمشيش من غيرى ، وعلى العموم الواد الخفير اللى هنا هايطقس ويدور وإن شاف حاجة تناسب الفلوس موجودة وخير ربنا كتير .

وانتهت ايام يوسف بسرعة فى كفر الغناوه وعاد عن طريق عمان إلى القادسية ، ولسوء حظه لم يجد صديقه السواق فى عمان فقد ذهب فى رحلته المعتادة إلى الفيحاء عبر القادسية ، لذلك لم يبرح اللوكاندة تلك الليلة ، وفى الصباح كان فى طريقه إلى القادسية ، وعندما أبلغ ام هناء بنتيجة ماقام به سرت أم هناء سرورا كبيراً وبدأت فى تنفيذ مشروعها معه ، وكان يوسف أسعد الناس عندما اخبرته أم هناء بأنها تقوم بهذا العمل من وراء ظهر عبدالوارث وطلبت منه ان يكتم سرها فلايبوح به لإنسان خصوصا عبدالوارث ، ونفذت كلمات ام هناء إلى مخ يوسف مباشرة ، فالأمر خطير وسيكون بعده امور اخرى ، فأم هناء قطعا بينها وبين عبدالوارث خلاف ، وهى بالتأكيد واقعة لشوشتها فى غرام يوسف ولكنها تصنع ماتصنعه النساء عادة ، فيتمنعن وهن الراغبات ، ويوسف على عينه وراسه رغبات أم هناء لو طابت الأيام يايوسف واستطعت تهريب العكمة إلى خارج القادسية وحصلت على العكمة وام هناء فى وقت واحد ، إذن لطابت الحياة ، وتحقق وعد الله للمستضعفين فى الأرض !

ام هناء على كل حال رغم انها كبيرة فى السن ، إلا انها سيدة كمل وهى امرأة تعرف كيف تعامل الرجال وسيبنى لها أحسن دار على حرف الرياح ، دار بحديقة كبيرة ، وسيغرس بها كل أنواع الأشجار ، وسيقيم عشة فوق البيت لكل أنواع البط والوز والفراخ ، وسيأكل كل يوم حتى يشبع ، وينام حتى يستيقظ وحده ، وسيشترى أرض الكفر كله ، فأم هناء وعدته بتهريب كل ثروتها ، واعطته اول دفعة وهى عشرة آلاف دولار ، لو قلنا إنها ستقوم بتهريبها على خمس دفعات فأى حظ يايوسف هبط عليك من السماء ، ولكن يوسف شعر بشىء فى نفسه بخطورة الموقف ، فالواد السواق الأردنى ولد طيب وأمين بالفعل ، ولكن عشرة آلاف دولار مرة واحدة قد تغرى اى إنسان بالمشى البطال ، لقد هرب معه من قبل مبالغ بسيطة ولكن مبلغ مثل هذا ينبغى ان يحتاط له الإنسان ، وخصوصا ان الواد الأردنى يصرف عن بذخ ويسهر فى الجبل ويشرب العرق ويأكل المزات ، كما انه ولد بصباص ، كان يختلس النظر بين الحين والآخر للبنات المتواجدات فى المطعم ، وعشرة آلاف دولار فى يده مرة واحدة ، قد تدفع به إلى الانفلات والبنى آدم ضعيف والشيطان ما اقواه .. وفكر يوسف بأن يقوم بتهريب المبلغ مع السائق عبر

ثلاث دفعات ، كل دفعة ثلاثة آلاف دولار ولابأس لو حصل لنفسه على ألف دولار وسيقول لأم هناء إن السائق اخذها عمولة ، وستفرح على كل حال لأن اغلب فلوسها وصلت بأمان ، هكذا استقر يوسف على امره بشأن تهريب الفلوس ، وعندما مر عليه السائق عزمه عند أبوالسيمينة ، واغدق عليه فى السهرة وهما يجلسان على حرف النهر فى شارع ابى نواس .. ووعده السائق بالمرور بعد أسبوع وقال له يوسف وهو يودعه :

- تشرف ، ومين عارف يمكن يكون فيه رزق تانى ؟

وأبدى السائق استعداده بالقيام بأى عمل من أجل عيون يوسف الطيب الإنسان .

● ● ●

عاد أبو ياسر للظهور من جديد ، وفى مقابلة قصيرة مع عبد الوارث أبلغه بأن الأمر قد صدر ببدء العمل من أجل تحرير فلسطين ، وطلب منه أن ينتقى خمسة من الشباب المصـرى المدرب جيدا لبدء العمل ، وانشغل عبدالوارث فى الأيام التالية باختيار الخمسة الذين سيكون لهم شرف تحرير فلسطين ، فكان لابد من تدقيق الاختيار ، فالأمر خطير للغاية ، والموقف دقيق لايحتمل التجارب ، ولامجال فيه للتردد ووقع اختياره فى النهاية على الخمسة الذين سيكون لهم شرف الاشتراك فى تحرير فلسطين ، وحدد ابوياسر لعبدالوارث موعد الانتقال الى ارض المعركة ، واستعد الجميع ، ولكن قبل ذلك قضى عبدالوارث الليل بطوله مع ام هناء ، وحاولت أم هناء بكل ماتملك ان تدخل السرور على قلب عبدالوارث ، ولكن ابن بهانة كان فى واد آخر لم يشعر حتى بلذة الطعام فى فمه ، ولم ترق أم هناء فى عينيه ، بالرغم من أنها كانت ترتدى افخر ثيابها وبدت فى أجمل هيئة ، وكأنها بنت فى العشرين ، كان ابن بهانة يفكر فيما سيحدث على ارض فلسطين ، لابد ان المعركة ستكون ساخنة للغاية ، ولابد ان القتال سيكون على قدم وساق ، ابن بهانة لايخاف الموت ، فهو يؤمن بأن لكل اجل كتاباً ، ولكن الذى يؤرقه ان المعركة جاء موعدها عندما بدأت الدنيا تبتسم لابن بهانة ، ولكن لاشىء اغلى من القضية ، ولاشىء افضل من التضحية من أجلها ، ولكنه قلق بشأن العيال الخمسة ، فهم شباب صغار ، صحيح انهم تدربوا على كل اصناف القتال ، ولكن التدريب غير الممارسة فى الحرب ، وهو نفسه كان متدربا قبل ان يدخل المعركة فى الماضى ولكنه اكتشف فى المعركة ان التدريب شىء والحرب شىء آخر ، صحيح انه تعلم ولكن من خلال الحرب ، وبعد أن سال دمه على الأرض المقدسة ، هؤلاء العيال الله يكون فى عونهم ، ولكن الإنسان لايتعلم بسهولة ، والكمال لايحققه الإنسان بدون ثمن ..

عندما حان الوقت المتفق عليه ، اجتمع الجميع فى شركة الكهرباء ، وكان ابوياسر هناك ، ورئيس الشركة بنفسه الذى تمنى للجميع مهمة موفقة ونصرا

عزيزا على الأعداء بإذن الله ، ووعد ابن بهانة بهدية ثمينة عندما يعود سالما غانما من أرض فلسطين الحبيبة ، ثم خطب خطبة عصماء فى القومية ، والوحدة واكد على أن كل الامكانيات لابد من وضعها فى خدمة المعركة ، وانطلقت بهم السيارة فى المغرب ، وبعد ان سارت لمدة خمس ساعات توقفت بهم ونزل الجميع والقى ابن بهانة نظرة على ماحوله ، فاكتشف انه فى صحراء وان الرمال حوله كأنها بحر بلا شواطىء .

وسار الجميع ومعهم ابوياسر داخل الصحراء بينما الظلام يخيم على كل شىء .. وبعد فترة من السير داخل الصحراء ، لمح ابن بهانة شعاعا من النور ينبعث من بطارية بين الحين والآخر ، فساروا نحوه حتى وصلوا إليه ، وهجم احدهم على ابن بهانه بعد ان سلط الضوء على وجهه وأخذه بالأحضان وراح يقبله فى شوق شديد ، وبادله ابن بهانة الاحضان والقبلات دون ان يتبين شخصيته ، ولكنه بعد لحظة ادرك ان الذى امامه هو ابوفادى .

- يخرب بيتك يابوفادى إنت لسه عايش .

وقال ابوفادى وهو يضحك :

- امال شو فاكر انت ؟ ميت انا ! انا ما أموت إلا فى المعركة وعلشان القضية .

ياسلام .. إذن لقد اكتمل الشمل وهاهو ذا أبوفادى جاء من الفيحاء الى ارض فلسطين لبدء المعركة ، ولابد أن هناك آخرين جاءوا بالمئات وربما بالألوف ، فالمعركة شهيتها مفتوحة وستأكل من الرجال حتى تشبع ، وستشرب من دمائهم حتى ترتوى .

ولكن كل شىء يهون فى سبيل القضية ، وتوقفوا امام مبنى يبدو عليه انه مهجور ، ولكن عندما دخله ابن بهانة هاله مافى داخله من وسائل الراحة ، سجاجيد مفروشة ، وموائد ممدودة وعليها كل اطايب الطعام ، فعلا إنه الوقت المناسب وابن بهانة يشعر بالجوع ، فالرحلة كانت شاقة ، وفى حالات القلق يشعر ابن بهانة بالجوع ، حالة قديمة لايعرف سببها ، وجلس الجميع على الأرض حول الموائد ، ونزل ابن بهانة على الأكل كأنه لم يأكل فى حياته على الإطلاق .

كانت هناك فواكه أيضا نادرة ومياه مثلجة ، وأمامهم تليفزيون يشتغل بالبطاريات ، هذه اول مرة فى حياة ابن بهانة يتفرج على تليفزيون بالبطاريات ، مساكين أهل فلسطين .. يبدو ان الكهرباء لم تدخل عندهم بعد ، ولكن أكلهم طيب ووفير ، ومياههم تختلف عن مياه القادسية ومياه مصر .. فهى فى زجاجات ومثلجة وطعمها جميل وليس فيها آية شوائب ، هؤلاء الفلسطينيون محظوظون ، وبختهم من المساء ، إذا كانوا يعيشون على

هذه الحال الآن .. فكيف ستكون حالهم بعد ان يكسبوا القضية ؟ ونام الجميع ولكنهم ايقظوهم بعد وقت قليل ، وعندما خرج ابن بهانة ومن معه ، وجدوا رتلا من السيارات الفاخرة تنتظرهم ، سيارات ملاكى من النوع الطويل الذى كان يوجد مثلها بالمئات فى الفيحاء ، واستأذن أبوياسر فى العودة من حيث جاء وصافح الجميع وتمنى لهم حظاً طيبا ، وعندما صافح ابن بهانة احتضنه كثيرا وقبله ، وقال له فى ثقة شديدة :

ـ سألقاك قريبا فى القادسية فعد إلينا سالما غانما بإذن الله .

ركب ابن بهانة سيارة مع ابوفادى ، وراح ابن بهانة يروى لابوفادى حكايات عن حياته فى القادسية ، وروى له ابوفادى جوانب من حياته فى الفيحاء بعد رحيل ابن بهانة ، وعندما انتهى الاثنان من رواية مالديهما من حكايات ، قال ابن بهانة :

ـ ياسلام صحيح ياناس مسير الحى يتلاقى .

ثم نظر ابن بهانة من النافذة عبر الصحراء الممتدة وسأل أبوفادى :

ـ أمال الجماعة الفلسطينيين فين ؟

وقال ابوفادى الجماعة الفلسطينيين هناك زى ماسبتهم ..

ثم خيم الصمت على الرجلين وشرد كل منهما بذهنه فى مكان ، ولكن منظراً ماوقع عليه عين ابن بهانة جعله ينتفض كمن لسعته نارا حامية ، منظر المعسكر الذى كان يعيش فيه فى الفيحاء ، صحيح انه تغير قليلا ولكن المكان هو المكان والمنظر هو المنظر ، والكوبرى العلوى الذى كان يمتد امامه موجود كما هو ياحكمة الله ، يخلق من الشبه اربعين .. ما أشبه فلسطين بالفيحاء ، ومد يده فلكز ابوفادى فى كتفه ودعاه لالقاء نظرة على المعسكر وقال له :

ـ بص شوف بذمتك مش يشبه المعسكر اللى كنا بنشتغل فيه فى الفيحاء .

ونظر له ابوفادى وقال له فى دهشة شديدة :

ـ شو جرى فى عقلك ، هذا هو المعسكر نفسه ، فنظر نحوه ابن بهانة ببلاهة شديدة ، وقال له :

ـ أنت هاتسرح بيه ، طب والله العظيم شبه اللى كنا فيه .

فقال ابوفادى بحزم :

ـ شو جرالك يابولحاف ؟

وقاطعه ابن بهانة :

- ابولحاف تاني .. انت عاوز تودينا فى داهية .

- لا أنت جرى فى مخك حاجة يابولحاف .. يا ابنى انت فى المعسكر نفسه وأنت الآن فى الفيحاء .

انتفض ابن بهانة غاضبا :

- شوف يابوفادى انا أحب الضحك آه .. لكن ماحبش حد يتمهزأ بيه .

وضحك أبو فادى وقال لابن بهانة :

- أحلفلك بأيش انك فى الفيحاءِ وهاتشوف بنفسك دلوقتى .

وارتد ابن بهانة إلى الخلف واسند ظهره على المسند الخلفى وقال لابوفادى :

- الكلام ده لو طلع صح انا هازعل قوى .

- ليش تزعل حد زعلك ؟

- أنا ابوياسر قال إنى رايح فلسطين علشان القضية .

- واللى قالوا ابوياسر مظبوط .

- طب إزاى بقى تتمهزأ بيه وتقول ان إحنا فى الفيحاء ؟

- يابولحاف افهم المعركة تبدأ من هون .. ماتسمع عن المتنبى .

- انا لا أعرف متنبى ولا متلبى .. أنا اعرف حاجة واحدة بس .. نروح فلسطين يعنى نروح فلسطين .. إيه اللى جابنا هنا تانى .. ولو شافونا الجماعة بتوع الفيحاء دلوقتى مش هاياخدونا ع السجن ويبقى نهارنا أزرق زى الكحل .

وضحك ابوفادى وقال :

- لا كحل ولا غيره يومك أبيض زى الفل إن شاء الله .. اتفضل - واخرج من جيبه مظروفا ناوله لابن بهانة - فتساءل الأخير قائلا :

- آيه ده .

- هذا جواز سفرك .

- جواز سفرى معايا سايبه فى القادسية .

- يا أخى هذا جواز سفر جديد فيه إقامة لمدة سنتين ومختوم وجاهز .

أمسك ابن بهانة بالباسبور وراح يقلب فيه فوجد صورته بالفعل وختم الإقامة ولمدة سنتين .. ثم وضعه على حجره وقال لأبوفادى وقد شعر بإحباط شديد :

ـ طب واحنا جايين نعمل إيه هنا بقى .. هانشتغل تانى فى المعسكر ؟ طب ماهم عارفنا ولو شافونا هايطبقوا فى زمارة رقبتنا تانى وها نشوف اللى ماشوفناهوش قبل كده .

وارتسمت ابتسامة ذات معنى على شفتى ابوفادى وقال :

ـ أنت تشتغل مع رجال ماتخاف ، حتى لوشافوك مايقدروا يعملوا حاجة .

وقال ابن بهانة وكأنه استسلم للقدر المكتوب :

ـ طيب واحنا سايبين بيوتنا وسايبين مصالحنا وجايين هنا نعمل ايه ؟

قال ابوفادى : إنت جاى لمهمة تاريخية .. ماعليك ، ها تعرف كل شىء فى الوقت المناسب .

بدأت الفيحاء تظهر شيئا فشيئا امام ابن بهانة .. أنها الفيحاء بالضبط وكما تركها منذ فترة طويلة .. ولكن ما الذى سوف نفعله فى الفيحاء وما المهمة الجديدة على وجه التحديد .. وأى حظ سيىء القى به إلى هنا وكيف الخلاص من هذا الكابوس الذى يعيش فيه .. يامصيبتك يابن بهانة ، لم تحصل على بلح الشام ولا على عنب اليمن .. وستروح فى الكازوزة لا محالة .. وستدفن فى الفيحاء بالتأكيد .

وعض على أصبعه بشدة وتمنى لو ينزل من السيارة ويجرى بأقصى سرعة إلى كفر الغناوة ويلقى بنفسه فى الطين ويريح جسده من هذا العناء الرهيب .

أم هناء

عندما خرجت سعاد من المستشفى بعد عدة أشهر كان كل شيء حولها قد تغير ، حتى الشقة التى كانت تسكنها وجدت بها سكانا اخرين ، وقالت لها صاحبة البيت :

ـ لا تؤاخذينا ، لقد سألنا عنك فى الشركة وأخبرونا أنك تركت البلاد وعدت إلى مصر !!

خرجت سعاد من البيت الذى كانت تسكنه ومعها ثلاث حقائب هو كل ما معها من متاع ، ولم يكن معها نقود لأنها فقدت كل ما كان معها ولم تكتشف ذلك الا عندما أفاقت فى المستشفى بعد العلقة التى أكلتها من نعيمة ، وعبثا حاولت ان تعثر على الشنطة التى كانت معها لحظة الخناقة بينها وبين نعيمة . ولم تدر سعاد كيف تتصرف ، فليس معها نقود وشقتها ضاعت ، وعاصم ابتلعته الأرض وهو الوحيد الذى كان يستطيع حمايتها فى مثل هذه الظروف ، ورأت نفسها مسوقة رغما عنها الى شركة الكهرباء ، وقابلها موظف الاستعلامات بفتور ، وعندما طلبت مقابلة رئيس الشركة أفهمها موظف الاستعلامات انه لا يوجد أحد من المسئولين الآن ، فطلبت لقاء باصى ، ولكن موظف الاستعلامات أخبرها بأن باصى ترك الشركة ، وعندما طلبت السماح لها بالذهاب إلى موظف الخزينة لتقبض مرتبها ، أخبرها الموظف ـ ان عقدها لم يعد ساريا لأنه تم إلغاؤه نظرا لغيابها الطويل .

وشعرت سعاد بأنها على وشك الاغماء فجلست رغما عنها على الكرسى المواجه لموظف الاستعلامات ، ويبدو ان قلب الموظف قد رق لها فأتى لها بكوب ماء ، وراح يهون عليها بكلمات ليس لها معنى . وشجع موقفه سعاد فطلبت من الموظف ان يحتفظ بحقائبها الثلاث حتى تدبر أمرها ، ولكن الموظف اعترض بشدة ، لأنه لا يستطيع ان يحتفظ بشيء لا يعرف محتواه ،



وحملت سعاد من جديد حقائبها الثلاث ، وعادت الى الشارع ، وخطرت لها فكرة جديدة هى الذهاب الى ابن بهانة فهو الوحيد الذى تستطيع ان تأمن له وتطمئن اليه . ومادام ابن بهانة ليس موجودا فى الشركة فلابد انه فى القهوة فهو فى العادة يوزع وقته بين هذين المكانين ، وعلى الفور راحت تجر أقدامها على الطريق قاطعة شارع الخلفاء الى قلب المدينة الى قهوة ابن بهانة ، عندما وصلت الى هناك كانت الشمس قد مالت للمغيب ، وكانت القهوة عامرة بالزبائن ، ولكن ابن بهانة لم يكن هناك ، كان يوسف يجلس كعادته فى صدر القهوة والشيشة فى فمه ، وينظر بعينه الوحيدة الى الشارع ، ولكن دون انتباه ، وعندما سألته سعاد عن ابن بهانة ألقى عليها نظرة فاحصة ودقق النظر فى الحقائب التى تحملها وسألها على الفور :

- أنت جاية من مصر ؟!

ولم ترد سعاد على سؤال يوسف ، ولكنها ألقت بنفسها على المقعد المجاور وبدا عليها انها فى حالة شديدة من الاعياء ، واخذت النخوة يوسف فطلب لها واحد شاى مضبوط بالنعناع ، وطلب من القهوجى ان يحمل حقائبها الى الداخل وترك مقعده العالى وسحب مقعدا آخر ، وجلس الى جوارها وراح يمطرها بالأسئلة ، ولكن سعاد لزمت الصمت ثم انخرطت فجأة فى بكاء عنيف . واهتز يوسف بمنظر البنت التعبانة فسحب سعاد من يدها إلى داخل القهوة والى حوض الغسيل وسألها ان تغسل وجهها وان تهدأ فكل عقدة ولها حلال ، وكل شدة ويعقبها الفرج ، والدنيا لا تثبت على حال ، غسلت سعاد وجهها وقدم لها يوسف فوطة نظيفة جففت وجهها ويديها ، ثم جلست داخل المقهى ويوسف الى جوارها ، وألهمته تجربته ان يسألها سؤالا لم ترد عليه سعاد ، ولكن يوسف أدرك الجواب وحده ، ونهض على الفور وخرج من القهوة الى المحل المجاور الذى يديره عدد من المصريين ، وعاد ومعه صينية عليها طبق فول بالزيت ، وطبق طعمية ، وطبق سلاطة خضراء ، وبعض أرغفة الخبز وكوب كبير به ماء مثلج ، وحاولت سعاد ان تأكل شيئا ، ولكنها لم تستطع ان تأكل رغم شعورها الشديد بالجوع ، ولكنها ابتلعت عدة لقمات تحت الحاح يوسف ، وعندما شربت الشاى شعرت بانها بدأت تستعيد بعض قواها . وعندما اكتشفت من يوسف ان ابن بهانة سافر منذ فترة وانه لن يعود فى المستقبل القريب ، عندئذ شعرت سعاد بان جدران المقهى اطبقت عليها وتكاد تحطم ضلوعها ، إذن لقد انتهى كل شيء وضاعت سعاد فى بلد غريب لا تعرف فيها الا عددا من الناس لا يزيد على عدد اصابع اليد الواحدة ، وحتى هؤلاء لا يوجد منهم أحدا الآن فى هذه المدينة .

ولكن يوسف وجد الحل ، ان الست أم هناء لاتزال فى منزلها تنتظر عودة عبدالوارث ، وهى وحيدة لا يعيش معها أحد ، كما انها ست طيبة ولن ترفض استضافة سعاد بعض الوقت ، وحتى تجد حلا للمشكلة ، واستأذن يوسف من سعاد وهرول الى منزل أم هناء ثم عاد وقسمات وجهه تنم عن نجاح مهمته ، ولم يخاطب سعاد بكلمة ولكنه حمل الحقائب الثلاث وأومأ لها برأسه ان تتبعه ، وسارت سعاد خلفه فى الشارع دون اعتراض ، وتلقتها أم هناء بالأحضان ورحبت بها بشدة وشكرت يوسف ثم أسرت له بعض الكلمات فى أذنه فهز رأسه وانصرف .

عندما خلعت سعاد ثيابها وارتدت ثوب البيت وجلست على الدكة فى الصالة الفسيحة شعرت براحة شديدة ، وكأنها عادت الى بيتها فى مصر ، وراحت تحكى لأم هناء عن مأساتها وهى تبكى بشدة ، ولكن أم هناء احتضنتها وراحت تربت على كتفها بحنان وطلبت منها ان تهدأ تماما ، وكل مشاكلها ستحل ، وكل أمورها ستصير على مايرام ، وهدأت سعاد ومسحت دموعها وسألت أم هناء عن ابن بهانة فقالت لها :

ـ لقد ذهب فى مهمة ..

وعندما سألت سعاد عن نوع المهمة التى ذهب فيها أجابتها أم هناء بأنها لا تعرف شيئا على الاطلاق حتى موعد عودته لا تدرى عنه شيئا ، وانقبض قلب سعاد بشدة عندما رن جرس الباب ، ولكنها اطمأنت عندما رأت يوسف هو الطارق . لقد عاد يحمل معه بعض الخضر والفاكهة واللحوم تركها على المنضدة التى تتوسط الصالة وانصرف الى حل سبيله ، واقتربت سعاد من حالتها الطبيعية عندما انشغلت مع أم هناء فى اعداد العشاء ، ونسيت الامها عندما جلست تتناول عشاءها مع أم هناء وشعرت سعاد بأنها تعرف هذه السيدة منذ فترة طويلة . ياسلام .. العالم لا يخلو من الناس الطيبين ، ها هى ذى أم هناء عوضت سعاد عن كل ما حدث لها فى الماضى القريب ، وكانت أحيانا تصطحبها معها فى جولة بالمدينة ، واشترت أم هناء لها ثيابا جديدة ، وأهدتها قلادة ذهبية ثمينة ، وذات مساء فاتحت سعاد أم هناء :

ـ ممكن ياأم هناء تقطعيلى تذكرة الى مصر ، وفلوسك هارجعهلك فى أقرب فرصة .

واستنكرت أم هناء كلام سعاد وقالت لها صارخة :

ـ ياعيب الشوم ، هذا الكلام ما يصح منك ياسعاد ، أولا ما فى فلوس بينى وبينك ، ثانيا انت ليه عاوزة تمشى ، ليه زعلانة علينا ؟

ـ أنا مش زعلانة بالعكس ، انا يمكن الأيام اللى قعدتها معاكى هنا هى أحسن الأيام اللى قعدتها فى القادسية .

ـ طيب ليه عاوزة تتركينا ؟!

ـ أنا قاعدة هنا أعمل ايه ، وبعدين أنا محتاجة أروح مصر علشان أعرف راسى من رجلية ، أنا بينى وبينك تعبانة وزى ما أكون دايخة والأرض بتلف بيه .

ـ ما عليك يابنت الناس ، مين عارف يمكن كلتنا نروح مصر .

وهتفت سعاد ببراءة شديدة :

ـ صحيح ياأم هناء .

ـ ليه لأ ، والله أنا طول عمرى أحلم بمصر ، وأنتى قاعدة معانا لحين ما يعود عبدالوارث ، وبعدين مين عارف ؟

ـ مانتى بتقولى مش عارفة عبدالوارث يرجع أمتى .

ـ وأحنا ليه مستعجلين الغايب حجته معاه ، ثم أنا عاوزة أقولك حاجة ياسعاد ، أنا طول عمرى قاعدة لوحدى ، والحمد لله ربنا أكرمنى ورزقنى ببنتى هدية الله من السما ، والله مليتى عليه حياتى ياسعاد ، تفتكرى يهون على أفرط فيكى ؟

وبكت سعاد من شدة التأثر واحتضنت أم هناء وألقت برأسها على كتفها ، وشعرت انها تعود الى حضن أمها من جديد .

كان شغل يوسف الشاغل التوصل الى معرفة سر سعاد ، ولماذا لجأت الى ابن بهانة ؟ محظوظ هذا الكلب ابن بهانة ، النساء تقترب منه لسبب يجهله يوسف ، مع انه حمار لا يفهم شيئا ، وفلاح أكلت الأرض من جسمه ، ما الذى يجعل النساء تقترب من ابن بهانة ؟ وما الذى يجعل النساء تنفر من يوسف ابن العمدة الذى لم ينزل الغيط يوما الا للاشراف على العمال ؟ غريبة هى الحياة . تعطى الحلق أحيانا لمن ليس له اذان . ولكن من هى سعاد ؟ وكيف تعرفت على ابن بهانة ؟ هل تكون من الكفر مثل نعيمة ، ولكنها متعلمة ويبدو عليها انها من بنات البندر ، لن يهدأ بال يوسف حتى يكتشف سر سعاد ويعرف أصل العلاقة بين ابن بهانة وبينها ، ولكن وصول السائق الأردنى الى القادسية واجتماعه بيوسف انساه الموضوع تماما ، وانشغل بما هو فيه ، سلمه يوسف الدفعة الثانية هى ثلاثة الاف دولار ، وبات السائق مع يوسف فى حجرته ، وقضى السهرة كلها يحكى له عن المتاعب التى يلقاها على الحدود بين القادسية والأردن .

ـ الناس فى المخفر اتجننوا ، ما عاد فيه رحمة زى زمان ، ولا يحلى لهم التعذيب الا فى صنف العرب ، لكن نقول ايش ، أما تفكر كويس تقول عندهم حق ، الحرب ما خلت شيء فى القادسية ، الناس كلتها بتهرب فلوسها بره ، حتى أهل القادسية مابيشيلوا فلوس عندهم الآن ، الحرب طالت ، والناس ماتعرف ايه يحصل لهم بعد الحرب ؟

كان يوسف يستمع وهو صامت فاستطرد السائق قائلا :

ـ تعرف أخ يوسف بعض السواقين معنا يأخدون كام نسبة ع التهريب الآن خصوصا من أهل القادسية ، ما تصدق لو أقولك النص بالنص .

إلتزم يوسف الصمت ولم يعلق بشيء وعاد السائق يقول :

ـ بس هادول ناس كفره ، ماعندهم ذمة ولا دين ، السواق ياخد نصف المبلغ حرام عليه ، يستغلون الظروف وهادى مش عمولة ، أنا أقول وهادى سرقة .

ورد يوسف وهو يغالب النعاس :

ـ أنت راجل طيب ، والناس مش زى بعضها ، فيها ابن الحلال ، وفيها اللى ربنا يسامحه .

فقال السائق وهو يستعد للنوم :

ـ والله أحوالنا صارت عجب يايوسف ، ما عاد فيه أمان فى الأرض ، والناس ماعادت أحوالها زى زمان ، كل الناس عايزة تخطف ، واللى راح يجننى إن إحنا مانخطف إلا من صنف العرب .. ماعارف ليش ؟

وقال يوسف وهو يطفىء النور :

ـ ربنا يسترها ، والله الواحد ماعاوز حاجة غير الستر .

فى الأيام التى أعقبت سفر السائق شغلت يوسف كلماته عن العمولة التى يحصل عليها بعض السواقين نظير تهريب الفلوس خارج القادسية ، النص بالنص يابن المفترية ! ولكن ليه لأ ؟ إن الذى يقع منهم فى يد الشرطة نهاره أزرق وليله ليس له نهار . والحكايات كثيرة عن السواقين الذين وقعوا فى قبضة الشرطة . يقولون إنهم يعلقونهم على المشانق بدون محاكمة . والبعض يهمس بأن بعض السواقين لم يكتب لهم حظ الوصول إلى المشنقة ، لأن الشرطة أطلقت عليهم النار فى الطريق ودفنتهم فى رمال الصحراء . لو صحت هذه الأقاويل فالنص بالنص ليست نسبة عالية ، ومال سيدنا قارون لا يعادل حياة الإنسان . ولكن هناك شيئا فى كلام السواق جعل القلق ينهش قلب الواد يوسف . ما الذى يمنع السواق الآن من الاستيلاء على المبلغ كله . لابد من قطع الشك باليقين الآن ، وعلى الفور وليسافر يوسف إلى مصر عن

طريق عمان . وبالفعل استأذن يوسف من أم هناء فى السفر إلى القاهرة ، وأعطته سعاد رسالة لتسليمها لأهلها ، وطلب يوسف منها أن تسلمه الرسالة مفتوحة لأنهم فى الحدود يستولون على الرسائل المغلقة .

وفى صباح اليوم التالى كان يوسف فى السيارة فى طريقه إلى عمان ، وخطر ليوسف وهو فى السيارة أن يقرأ خطاب سعاد لأهلها ، واكتشف أن الخطاب عادى ، وفى السطور القليلة التى كتبتها سعاد تطمئن أهلها على أحوالها أنها بخير ومشغولة فى وظيفتها وأنها ستعاود الاتصال بهم ، ثم لا شىء آخر . لم يكن ماذكرته سعاد فى الخطاب هو الحقيقة . إنها لم تخبرهم بشىء عما جرى لها فى القادسية ، ولا عن الحال التى آلت إليها . وليست سعاد وحدها هى التى تصنع ذلك ، ولكن كل الخطابات التى حملها يوسف فى رحلاته المتكررة إلى مصر كانت على نفس المنوال . الكل يطمئن أهله على الرفاهية التى يعيش فيها والسعادة التى يشعر بها ، والنجاح الذى يحققه .. عجايب !! لماذا يكذب الناس على أقرب الناس إليهم ؟ هل يخشون الشماتة لو ذكروا الحقيقة ؟ هل هى عادة عند المصريين أن يتظاهروا بعكس الحال ؟ هل يفعل ذلك بقية البشر ، أم هى حالة اختص الله بها المصريين دون غيرهم من سائر البشر ؟ دس يوسف الخطاب فى جيبه وتحسس علب السجاير التى يحملها معه .. كان معه ثلاث علب سجائر مقفولة ومغلفة . ومعه علبة سجاير أخرى يدخن منها فى الطريق ، أما السجائر المغلفة فكانت كل سيجارة منها تضم ورقة من فئة المائة دولار ، لقد رأى يوسف أن يقوم بنفسه بتهريب الأربعة آلاف دولار المتبقية من مبلغ أم هناء ، ولو نجح فى ذلك فسيهبر لنفسه نصفها على أنها العمولة الجديدة التى حددها السواق نظير تهريب الفلوس خارج القادسية . مضت السيارة تخترق الصحراء الواسعة الرهيبة وعلى جانبى الطريق كانت تبدو بعض الآثار التى تشير إلى الحرب وضراوتها .

صحيح إن الحرب فى الجنوب ولكن الشمال صار هو المنفذ الوحيد إلى القادسية ، والحركة لا تنقطع ليل نهار على الطريق ، وقوافل السيارات لا تنقطع تحمل أسلحة ومواد غذائية وحديد تسليح ومواد كيماوية وأدوية ودخانا ، وعلى الطريق الطويل تقع حادثة مروعة كل ساعة وتذهب أرواح كثيرة ضحايا الازدحام والعجلة . وتمتم يوسف بدعاء يسأل الله أن ينجيه شر الطريق . وعندما وصل إلى الحدود شعر بجسمه بارداً كلوح الثلج . فهذه أول مرة يقوم فيها بالتهريب وهو يشعر كأن كل من على الحدود يعرف سره ويدرك

حقيقة السجاير التى فى جيبه . ومرت اللحظات عليه وهو داخل الدائرة الجمركية كأنها سنوات طويلة ، وعندما خرج من الدائرة الجمركية كانت قواه قد خارت تماماً ، وتمنى لو تمدد على الأرض ونام . واستطاع رغم خشونة السيارة ووعورة الطريق أن ينام ولم يشعر بنفسه إلا والسائق يهزه بشدة فقد وصلوا إلى عمان .

وذهب يوسف من فوره إلى مطعم السنترال وطلب لحماً مشوياً وكأس عرق . هذه أول مرة يشرب فيها هذا الزبيب لقد شعر بأنه فى حاجة إلى شىء يجعل عقله يغفو قليلا بعد رحلة طويلة لم يهدأ فيها عقله لحظة عن التفكير وشرب يوسف كأساً ثانية ، وكأسا ثالثة ، وشعر أن مطعم السنترال يدور به كأنه مرجيحة من مراجيح الأطفال ، ولا يعرف كيف يصل إلى اللوكاندة ، ولكنه وصل ، وارتمى على السرير وراح فى نوم عميق .

عندما استيقظ يوسف كان قد مضى عليه فى الفراش أكثر من عشرين ساعة ، وعندما أدرك أنه فى عمان وفى فندق طولكرم هب كالملدوغ وبحث عن علب السجائر وأطمان قلبه عندما وجدها سليمة . ثم غسل وجهه على عجل وارتدى ثياباً أخرى ونزل إلى الشارع يتناول طعاماً خفيفاً ، ثم راح يحث الخطى إلى القهوة التى يجلس عليها السواق ، ولما لم يجده هناك جلس فى انتظاره وراح يدخن النرجيلة وعينيه مثبتتين على الشارع الذى تقع فيه القهوة ، ومر وقت طويل قبل أن يحضر السواق الذى استقبل يوسف بالأحضان . وجلسا معا يتحدثان فى أمور شتى وهما يدخنان النرجيلة ويشربان الشاى ، ثم نهضا واستقلا السيارة وذهبا إلى مطعم فى الجبل وأكلا منسفا وشربا الشاى الأخضر .

ثم عادا إلى القهوة من جديد ، وعندما استأذن يوسف للانصراف إلى الفندق لأنه فى طريقه إلى مصر ، فى الصباح الباكر نهض معه السواق وأوصله إلى الفندق ثم صعد معه إلى حجرته ، وأخرج من جيبه رزمة من الدولارات دسها فى يد يوسف وهو يقول :

ـ علشان تعرف يايوسف هذه ستة آلاف دولار ناقصين ألف وخمسمائة ، أنا أخذت الربع بس وهذا علشان خاطر عيونك ، غيرى تعرف ياخد ثلاثة آلاف .

بلع يوسف ريقه بصعوبة وقال للسائق :

ـ كتر خيرك عملت اللى عليك .

وقال السائق :

ـ بأمرك وأنا خدام وعلى كيفك ..

بعد انصراف السائق شعر يوسف بأن ناراً حامية شبت فى جسمه ، هذا الكلب عملها وخصم المبلغ ، ولا يعرف الآن كيف يتصرف مع أم هناء ، لقد كان يخطط لكى يهبر العمولة لنفسه ، ولكن العملة التى ارتكبها السائق ستعطل مشروعه الآن ، وعليه أن يفكر جيداً ، لكى يقنع أم هناء بمواصلة مشروعها فى تهريب الفلوس ، ومادامت خطته فى التهريب نجحت . فلماذا لا يقوم بالعمل كله بدلاً من هذا السائق النصاب !! فكرة .. وعلب السجائر جاهزة وهو يجيد لف الدولارات داخلها وتغطيتها بالدخان ، وإذا كان المبلغ الذى ستقوم بتهريبه أم هناء كبيراً فسيخرج من الصفقة بنصيب لا بأس به .

على العموم المسألة تحتاج إلى دراسة وإلى حذر ، ولكن كل شىء مرهون بوقته فليؤجل التفكير الآن حتى يعود إلى القادسية ، ثم ألقى بنظرة خاطفة على مصر من نافذة الطائرة وهى فى طريقها الى الهبوط فى المطار .

نعنع المصرية

انقبض قلب نعيمة بعد أن جاءها الخبر اليقين من مصر بأن عاصم لم يره أحد فى مصر وأنه لايزال فى القادسية . ولأن نعيمة لم تكن على صلة بالسياسة فى أى وقت ولا تدرك خفاياها ، فقد تصورت أن عاصم راح ضحية حادث شنيع فى الطريق إلى عمان . ومن يدرى ربما ينام الآن على سرير فى احد مستشفيات عمان ، وربما لا يدرى أين هو أو من هو ، فهكذا رأت نعيمة بنفسها حوادث من هذا النوع فى الأفلام . وبالفعل خطفت نعيمة رجلها إلى عمان ، وكانت بالمستشفيات تسأل وعلى أقسام البوليس تدور ، ولكنها لم تعثر لعاصم على أثر . أين ذهب عاصم إذن ؟ هل صحيح هناك امرأة أخرى ؟ ولكن إذا كانت هناك امرأة أخرى فلماذا ترك نقوده كما هى فى البيت ؟ قطيعة الغربة وسنينها ، صحيح .. من خرج من داره اتقل مقداره ، والله يرحمه جدها الشيخ رضوان لم يغادر كفر الغناوة قط ، وكان مهيبا ومحترما بين الناس وعاش حياته فى هدوء ومات فى سلام ، ولكن الشوطة هبت على أهل مصر هذه الأيام . الذى لم يهاجر إلى الخارج هاجر إلى القاهرة ، والذى لم يهاجر إلى القاهرة هاجر إلى البندر ، والذى حكمت عليه الظروف بالبقاء فى الكفر ، يقضى الوقت كله يلعن الحظ والظروف والزمن الأغبر الذى حال بينه وبين الفرار من أسر الكفر ، ولكن أين أختفى عاصم ؟ هل تنشق الارض هذه الأيام وتبتلع بنى آدمين ؟ ربما أصابه مكروه فى القادسية ، ربما قتله أحد ، فهى كانت تسمع عن حوادث قتل تقع بين المصريين من حين لآخر .

ولكن عاصم مسالم وطيب ، كما أنه معروف بين القدساويين . المهم .. لم تمكث نعيمة طويلا فى عمان ، وسرعان ما عادت إلى القادسية . وعلى الحدود وجدت مشقة لدى رجال الجوازات وسلطات الجمارك ، مع أنها لم تكن تحمل شيئاً إلا أنهم عاملوها بفظاظة ، وشتمها أحدهم بدون سبب . ولم تصل

إلى القادسية إلا فى صباح اليوم التالى ، ووجدت مشاكل أخرى تنتظرها هناك . اكتشفت نعيمة من النظرة الأولى التى ألقتها على البيت أن لصوصا تسللوا فى غيابها وقلبوا البيت وبعثروا محتوياته ، اندفعت بسرعة إلى المكان الذى توجد به الفلوس ، وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان عندما وجدت أن الفلوس قد اختفت ، ولم تكن الفلوس وحدها هى التى ضاعت ولكن مصوغاتها أيضاً ذهبت مع الريح ، وجن جنون نعيمة عندما اكتشفت أيضاً ان أجمل فساتينها قد فقدت . وأن الهدايا الثمينة هبرها اللصوص . وخرجت نعيمة كالمجنونة إلى قسم الشرطة واستقبلها المفوض ببرود ، وسألها عن أسماء الذين يترددون عليها من المصريين فى البيت ، ومعارفها من المصريين ، وعندما أجابته أنها لا تعرف أحداً من المصريين ولا يتردد عليها أحد من بينهم ، قال لها بهدوء شديد :

ـ أمال مين سرقك ؟ ماحد يسرق غير المصريين .

المهم أنه قام معها وعاين البيت ورفعت البصمات ثم انصرف ، لتكتشف نعيمة أنها تواجه مشاكل لا تستطيع حلها . صاحبة البيت تطالبها بالأجر المتأخر ، واكتشفت أيضاً أن عليها أن تدفع فواتير التليفون والماء والكهرباء المتأخرة . ولجأت نعيمة إلى أم ليث صديقتها التى تجاورها فى السكن ، واهتمت أم ليث بأمر نعيمة وبذلت كل جهد لمد يد المساعدة لها ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة كما قالت أم ليث لنعيمة ، فابو ليث غائب فى الجبهة منذ زمن طويل ، بعضهم يقول لها إنه مفقود ، والبعض الآخر يؤكد أنه قتل فى الحرب ، وفريق ثالث يؤكد أنه هرب من المعركة واختفى فى المستنقعات . ومع ذلك وعدتها أم ليث بالرغم من ظروفها القاسية أن تبحث لها عن مخرج من هذه الكارثة التى حلت بها ، وأمهلتها ثلاثة أيام فقط للعثور على حل . وخلال هذه الأيام الثلاثة تذكرت نعيمة باصى ومشروعه للنقل العام .

وارتسمت علامة تعجب كبيرة أمامها لأن باصى لم يعد يتصل بها . منذ يوم الخناقة لم تره ولم تسمع صوته ، وخطفت نعيمة رجلها وذهبت إلى مكتب مصر وأخبروها هناك أنه لم يعد يحضر ، وسألت عن مكانه الجديد ، فنفوا علمهم بأى شىء يتعلق بمصر . ومضت نعيمة فى الطريق تقصد بيت باصى ، لم تكن تعرف مكانه على وجه التحديد ، ولكنها كانت تعلم أنه فى العمارية ، والعمارية فى حجم كفر الغناوة ثلاث مرات ، ولذلك داخت نعيمة وهى تبحث عن باصى فى أنحاء العمارية ، وسألت مكاتب العقارات وأصحاب محلات الخضراوات والمكوجية ، ولكنها فى النهاية لم تخرج بنتيجة فعادت

إلى بيتها وقد تمنت لو انشقت الأرض وبلعتها لكى تتخلص نهائيا من هذا العذاب ، وقضت فى البيت الأيام الثلاثة ثم ذهبت مسرعة إلى بيت أم ليث ، لقد تحولت أم ليث إلى جسر ستعبر عليه نعيمة من شاطىء الشقاء إلى شاطئ الفرج . تصورت نعيمة أن أم ليث سيكون معها نقود تكفى لحل المشكلة ، ولكنها اكتشفت أن معها عرضا لنعيمة بالعمل ، وجلست نعيمة تستمع وهى تشرح لها تفاصيل العرض .

- تعرفين أبو يعرب ..

وعندما هزت نعيمة رأسها بالنفى ، واصلت أم ليث ..

- أبو يعرب رجال طيب ويسكن فى البيت اللى قدامك ، وعلى فكرة هو معجب بيكى كتير يانعيمة ، وتعرفين هو عنده ملهى ليلى اسمه قصر الرحاب ، ملهى محترم مايروحه إلا أفضل الناس .

وتساءلت نعيمة :

- وناهاعمل ايه فى الملاهى ده ؟

وضحكت أم ليث وهى تقول :

- هو يريدك ترقصين عنده .

وضربت نعيمة صدرها بيدها وصرخت فى وجه أم ليث :

- أنا أرقص يا أم ليث دا كان عاصم دبحنى .

وقالت أم ليث :

- وهو فين عاصم ، عاصم وأبو ليث ما حد يعرف مكانهم غير الله ، والغايب حجته معاه كما تعرفين .

وبعد فترة صمت قالت نعيمة :

- ونفرض أننى رحت رقصت ، هاسدد الفلوس اللى عليه إزاى ؟ هاستنى لما أقبض أول الشهر ، والفلوس اللى عليه مطلوب دفعها فى خلال أسبوع .

- هذه المسألة تنحل ، الرجال مستعد يدفعلك المبلغ المطلوب كله ويدفعلك فلوس كمان علشان مصاريفك أنتى وبعدين يبقى يتحاسب معاكى .

واستأذنت نعيمة فى الانصراف بعد أن وعدت أم ليث أن ترد عليها فى خلال يومين .

لم تنم نعيمة طول الليل ، وراحت تفكر فى عرض أم ليث . لا يحل مشكتك الآن يانعيمة إلا الرقص ، ولكن كيف أرقص ؟ صحيح أننى أرقص أحياناً فى افراح الأصدقاء ، وارقص أحيانا فى الحمام وأمام المرآة ، ولكن ليس هذا

رقصا ، إنه مجرد قفز وهز ولكن لا شىء أكثر من ذلك . ولكن من الذى يهتم ؟ إنها سترقص أمام مخمورين وغائبين عن الوعى ، لا أحد يعرف الفرق بين الرقص والتنطيط ، وهى على كل حال حلوة وخفيفة الدم ولها حضور لدى الناس وتستطيع أن تقنع الجن الأحمر أنها راقصة محترفة ومن طراز عظيم ، ولكن ياعيب الشوم . ماذا يقول الناس عنك فى كفر الغناوة ؟ وماذا يقول عاصم إذا قدر له أن يعود ؟ وياشماتة الواد عبدالوارث ابن بهانة إذا علم أنها تشتغل راقصة فى القادسية ، إنها خيبة على كل حال ، كما أنها فضيحة ، ولكن ما باليد حيلة ، والرقص هو الجسر الوحيد الآن الذى يعبر بنعيمة إلى بر الأمان .

ونامت نعيمة فى تلك الليلة وهى تشعر بأن رأسها أصبح فى حجم البطيخة ، مسكينة نعيمة لم تدرك أن أم ليث عضو فى الحزب ، وأن العرض الذى جاءها عن طريق أم ليث هو فى الحقيقة من تدبير مكتب مصر ، والمصرى حتى الذى يشتغل بالسياسة لم يجرب فى حياته هذا النوع من نظم الحكم ، ولكن الأمر يختلف هنا فى القادسية ، فلا شىء يحدث بالصدفة ، ولا خطوة يخطوها أحد لوجه الله . وعندما انتهت مهلة اليومين كان جواب نعيمة لأم ليث بقبول العرض . وستشهد ليالى القادسية راقصة لهلوبة تتلوى على أنغام القانون والكمان ، وحول جسد نعيمة النار المتمرد المتموج يتصاعد صوت مطرب المقامات ، ستشهد القادسية مولد نجمة جديدة ، نعنع المصرية ذات الدلال والجمال والسحر العظيم !

●●●

عندما وصل يوسف بن العمدة إلى مطار القادسية نادى عليه مجهول عبر الميكروفون ، ثم اقتاده أحدهم إلى مكتب داخل المطار ، وانهالت عليه الأسئلة .. ماذا يفعل فى القادسية ؟ وأين يعمل على وجه التحديد ؟

وأجابهم يوسف بصراحة عن كل ما يودون معرفته ، فهو جاء إلى القادسية للزيارة ، ولكنه أحب الإقامة فيها ، وهو فى الحقيقة لا يشتغل عند أحد ، ولكنه يدير مقهى يملكه صديق هو عبدالوارث ابن بهانة ، وهو يقضى وقته كله فى القهوة لا يبرحها على الإطلاق ، وهو ينام فيها أيضاً . وسألوه عن سر ذهابه إلى القاهرة عن طريق عمان برا وعودته بالطائرة ، فأجاب يوسف بأنه أراد أن يلقى نظرة على عمان قبل أن يذهب إلى القاهرة ، فقد كان يحلم دائما بالفرجة على بلاد العرب . ولكن أولاد الكلب يعرفون كل شىء ، يعرفون أنه لم يذهب إلى أى مكان فى عمان سوى القهوة وبيت السائق الأردنى الذى يعرفه ، ويعرفون أيضاً أنه يقوم بتهريب دولارات ، ولكنه أقسم لهم بكل

المقدسات بأنه لم يفعل ذلك ، وقال وهو يبكى :

ـ أنا مش زى المصريين اللى عندكم دول ، أنا ابن ناس وأبويا عمدة كفر الغناوة ، وأنا نفسى كنت نائب العمدة وبعدين أحنا من عيلة مسموعة فى مصر ولازم أنتو تكونوا سامعين عنها كمان .

وقال له الضابط القادساوى :

ـ شوف يوسف إذا كنت ابن ناس وتخاف على نفسك قول كل شىء بصراحة ، وإلا أنت ماتعرف إيه اللى بيحصل ، ولازم تعرف أن أحنا مايخفى عنا شىء ، تحب أقولك أنت أكلت إيه فى بيت السواق صاحبك . وبدل البهدلة يابن الناس ارحم نفسك ، وإذا قلت الحقيقة أقسم لك أن ما حد راح يؤذيك ، وإذا حبيت تقعد فى القادسية مرحبا بك ؟ حبيت ترجع مصر ، ترجع معزز مكرم .. ايش تقول ؟

وتلكأ يوسف فى الرد على السؤال ، فأشار الضابط لأحد معاونيه الذى تقدم وسحب يوسف من قفاه بأصابع حديدية وخرج به من المطار فى عربة مغلقة ، وبعد ساعة توقفت به السيارة ودخل مع الحارس مبنى ضخما بعد أن سار عدة خطوات دفعه الحارس بيده ليكتشف يوسف أنه فى حفرة داخل الأرض ، وراح يوسف يدق الباب بيديه ويتوسل إلى الحارس أن يأخذه إلى الضابط لأنه سيكشف له كل شىء . ولم يستجب أحد ليوسف إلا فى الصباح الباكر عندما فتحوا عليه الباب وسأله الحارس :

ـ هاتقول ؟

وأومأ يوسف برأسه علامة الايجاب ، وعندما أصبح أمام الضابط بكى يوسف بشدة ، وتعهد وهو يبكى بأن يقول الحقيقة ، ولكنه توسل للضابط أن يؤمر له بلقمة يأكلها وكوب شاى يشربه ، فهو يشعر أنه على وشك الموت ، ونادى الضابط على رأحد الحراس وأمره بأن يأخذ يوسف إلى البوفية ثم يعيده بعد نصف ساعة . وراح يوسف يأكل كالمجنون وشرب كوب شاى كبيرا ثم طلب واحد قهوة ثم طلب من الحارس أن يسمح له بدخول دورة المياه قبل أن يسحبوه إلى حضرة الضابط .

وجلس يوسف أمام الضابط وحكى له كل شىء بالتفصيل . أموال أم هناء التى تنوى تهريبها إلى الخارج ، واتفاقه مع السواق الأردنى . وكيف طمع السواق فاستولى على أكثر من نصيبه . وأقسم أنها أول دفعة وإن كان فى نية أم هناء تهريب دفعات أخرى فى المستقبل . وقال الضابط ليوسف :

ـ لقد قلت الحقيقة الآن يايوسف ، وأثبت أنك ابن ناس بالفعل . ولذلك

سأطلق سراحك لتمضى إلى حال سبيلك ، وستذهب إلى المقهى وتمارس عملك كالمعتاد ، ولكن حذارى أن تذكر شيئاً مما حدث لك هنا لأى مخلوق خصوصا أم هناء وسعاد .. مفهوم ؟ وإذا فتحت فمك بأى حرف لأى أحد سنعرف وسنجرك من قفاك وسنلقى بك فى الحفرة ، ولكن إذا نفذت التعليمات فسنعتبرك رفيقا مناضلا ، ونحن نعرف كيف نكافىء الرفاق .

وقال يوسف وهو يرتعد من شدة الخوف :

- ولكن افرض ياسعادة الباشا إن أم هناء كلمتنى علشان أهربلها فلوس تانى .

وقال الضابط :

- هذا هو المطلوب بالضبط ، ستقوم بتهريب الفلوس لها كما تريد أم هناء .

وقال يوسف وقد زاغت عيناه أكثر مما هى زائغة :

- ولكن سعادتك بتقول إن ده ممنوع .

- أيوه ده ممنوع لما يتم من ورا ضهرنا ، ولكن لما يتم بعلمنا يبقى مش ممنوع .

وقال يوسف باستسلام :

- أمرك ياسعادة الباشا اللى تقول عليه أنفذه ، حتى لو قلتلى كل الطين .

- لا مانقولك كل طين يايوسف ، أنت راح تأكل سمك مسجوف .

وقال يوسف وهو يمسح دموعه :

- أمشى دلوقت ياسعادة الباشا .

- روح فى أمان الله .

ونادى الضابط على الحارس وأمره بتخصيص سيارة فاخرة لنقل يوسف إلى المكان الذى يريد أن يذهب إليه .

فى السيارة التى انتقلت بيوسف إلى حيث يقيم حمد الله على نجاته من أيدى هؤلاء الكفرة ، ولكنه تعهد بينه وبين نفسه أن ينفذ كل حرف قاله له الضابط .

وتذكر يوسف أنه كان معه حقائب عند وصوله إلى المطار ، ولكنه قرر أن ينساها وفى ستين ألف داهية الحقائب التى على ظهر الأرض ، المهم أنه نجا بحياته ، ولو تمكن يوسف من العودة إلى مصر فندر عليه لا يبرح كفر الغناوة على الاطلاق ولا يبرحه حتى إلى البندر . كفاه هذه الليلة التى قضاها فى الحفرة ، أنها تساوى ألف عام ، ولو عاد إليها يوسف مرة أخرى فبالتأكيد لن تشرق عليه شمس الصباح وهو على قيد الحياة . عندما وصلت السيارة إلى

الشارع الرئيسى المتفرع منه الحارة التى تقع فيها القهوة ، شكر يوسف السائق وكاد أن ينحنى على يده ويقبلها ، وعندما هم يوسف بالدخول فى الحارة نادى عليه السائق ، وتوجس يوسف شرا فقال للسائق :
ـ فيه حاجة تانية ياسعادة البيه .

ولم يرد السائق ، اتجه خلف السيارة وفتح الشنطة وأخرج حقائب يوسف منها . ياأولاد الأبالسة ! يعرفون كل شىء حتى شنط يوسف .
ترك يوسف الشنط فى القهوة وذهب مسرعا إلى بيت أم هناء التى استقبلته بالترحاب ، وأصرت أم هناء على أن يتناول يوسف طعام الغذاء ، وجلس يوسف على المائدة يتناول طعامه فى هدوء ، وإن كانت العين الخبيرة تستطيع أن تلحظ القلق البادى عليه . وحكى لهم عن رحلته إلى عمان والقاهرة . وسألته أم هناء سؤالا يحمل أكثر من معنى :

ـ والأحوال أيش لون ؟
ـ كل شىء على مايرام ياأم هناء ، والأمانة فى الحفظ والصون .
وقالت أم هناء وهى منهمكة فى إعداد الشاى :
ـ أنا بسألك عن حالك أنت يايوسف .
ـ كل شىء عال والحمدلله .

عندما انفرد يوسف بنفسه فى المقهى ليلاً تمنى لو يخلع حذاءه وينهال به ضربا على أم رأسه حتى الصباح . ما الذى جاء به إلى هنا ؟ وما الذى خبطه فى مخه وجعله يهجر الكفر وأهله الطيبين . وقعت يايوسف فى شر أعمالك وبالتأكيد لن يكتب لك النجاة من هنا ، فهؤلاء الناس كفرة وبالتأكيد لا يعرفون الله .

وعقد يوسف مقارنة بين الحفرة التى كان فيها والسجن الذى دخله فى مصر . السجن المصرى لوكاندة فاخرة بالقياس لهذه الحفرة ، ولكنها القسمة والنصيب ؟ وما هو مكتوب على الجبين لازم تراه العين . وسأل يوسف ربه وهو يستعد للنوم أن يأتى بالعواقب سليمة . وأن ينقذه من شر المستخبى ، وأن يكتب له العودة إلى مصر من جديد ، وأن يجعل منيته فى كفر الغناوة ، ومثواه الأخير فى ترابها على شاطىء الرياح إلى جوار ابيه .

الـفـــــــرار

عندما حطت الطائرة على أرض مطار القاهرة ، كان وكيل الحزب الكهربائى الذى يشبه الثور يجلس فى المقعد الأمامى فى الدرجة الأولى ، وبدا عليه الارتباك وهو يلقى نظرة فاحصة على أرض المطار ، ثم فتح الحقيبة وألقى نظرة أخيرة على محتوياتها ، ثم اهتم بجمع حاجياته ، وكان أول الواقفين عند الباب فى انتظار الخروج ، وعندما فتح الباب أسرع يهبط الدرج بسرعة ، وتقدم إلى أول موظف صادفه وسأله فى لهفة عن البيه ضابط المباحث .

وسأله الموظف :

ـ فيه حاجة مستعجلة .

ـ أنا عاوزه ضرورى .

ـ لما تخش المطار إبقى إسأل عنه ..

واستقل الأتوبيس حتى باب المطار ثم أسرع الخطى حتى وقف أمام ضابط الجوازات وبادره على الفور :

ـ من فضلك عاوز أشوف ضابط المباحث .

ونظر إليه ضابط الجوازات بدهشة ، ثم قال له فى حزم :

ـ باسبورك فين ؟

ومد له بجواز السفر وقال فى استعطاف :

ـ أرجوك وصلنى لضابط المباحث لأن فيه كلاماً خطيراً لازم يعرفه .

وراح ضابط الجوازات يتفحص الجواز بعناية ، ثم نادى على أحد أمناء الشرطة وهمس فى أذنه بكلام ، وغاب أمين الشرطة فترة ثم عاد يتقدمه شخص يرتدى الملابس المدنية ، وعندما اقترب من ضابط الجوازات نظر إليه فأشار الأخير إلى وكيل الحزب الكهربائى ، وبعد لحظات كان الأثنان يجلسان فى مكتب صغير بالمطار .. وراح وكيل الحزب يتكلم كالمدفع الرشاش :



ـ أنا معملتش حاجة ، أنا اشتركت فى عمل المؤتمر ، وصحيح أنا كلمت ناس علشان يشتركوا ، لكن أنا اللى حرضتهم ماينتخبوش مندوب حزب السحل وسعادتك ممكن تسألهم ، لكن السوسة بقى اللى يستاهل قطع رقبته البيه رئيس الحزب ، دا راجل ندل ونتن ، تصور سعادتك باعلى ثلاجة خربانة بمائة جنيه انجليزى ، تصور سعادتك لهف عشرة ملايين دينار ونام عليها .

وقال له الضابط فى هدوء شديد :

ـ وسيادتك كمان لهفت شوية كويسين .

ـ دا مرتبى فى الشركة ومصاريفى .

ـ لا أنا معلوماتى أنك واخد أربعة ملايين .

ـ منا كنت بصرف على الشركة .

ـ بتصرف على الشركة مابتصرفش مش ده المشكلة ، شوف ياأستاذ لما أقولك حاجة ، المعلومات اللى عندك دى قديمة وعندنا من زمان .

وقاطعه وكيل الحزب قائلا فى حماس :

ـ الراجل رئيس الحزب قاعد فى أوروبا فاتح مكتب هناك وبيطلع جرنال وبيشتغل جاسوس فى حزب السحل .

ـ ياأستاذ كل دى معلومات قديمة قلتلك ، واحنا عارفين قد اللى تعرفه عشر مرات . وبينى وبينك اللى فات مات ، المهم اللى جاى ، أى اتصال بيك سواء من رئيس الشركة أو من حزب السحل نحب نعرفه فورا ، وإن كان عندك معلومات عن نشاط الحزب برضه نحب نعرفه .

ـ أنا تحت أمر سيادتك ، وأى شيء هاعرفه تأكد سعادتك أنى هاكون عندك تانى يوم .

وسادت فترة صمت بين الضابط ووكيل الحزب الكهربائى قطعها الأخير قائلا فى أدب شديد :

ـ فيه حاجة تانية ياافندم ..

ـ بالنسبة لى أنا مفيش حاجة تانى ، إذا كان فيه حاجة تانية عندك أنت قول ..

وقال وكيل الحزب :

ـ لا أبدا أنا تحت أمرك .

ـ طب اتفضل سعادتك انت ..

ـ يعنى أقدر امشى ..

ـ اتفضل ..

ووقف وكيل الحزب مرتبكا ، وراح يلملم حاجياته ثم خرج من الحجرة بظهره وهو يحنى قامته الطويلة مودعا ضابط المباحث ، ولم يصدق نفسه إلا عندما وجد نفسه خارج المطار ، وصافح الأصدقاء الذين كانوا ينتظرونه عند الباب ، وعندما سأله أحدهم عن سبب تأخيره قال فى استعلاء :

ـ تحقيق ياسيدى .. تحقيق ، سعادة البيه بيسألنى كنت بتعمل ايه بره الوقت ده كله ، بس هوه قال السؤال ده وأنا اديتهوملو فى جنابه ، خليته بقى قد عقلة الصباع قدامى وبعدين اعتذرلى ، وفى الآخر قبلت اعتذاره .

ثم شرد بذهنه بعيدا بينما السيارة كانت تنهب به شوارع مصر الجديدة ، وبين الحين والحين كان يلقى نظرة خاطفة على الطريق .

● ● ●

التزم ابن بهانة بتعليمات مسئول المجموعة فى الفيحاء ، وراح يتدرب باهتمام ويدرب الشبان الذين معه على تفجير القنابل واستخدام الرشاشات . وذات مساء استأذن مسئول المجموعة فى النزول إلى المدينة مع الشبان الذين يتدربون على يديه ، وسمحوا له بالنزول عندما علموا أنه يزمع قضاء السهرة فى محل فول مدمس يملكه أحد المصريين . وبالفعل توجه ابن بهانة ومن معه إلى محل الفول وجلسوا جميعا حول مائدة صفت عليها أطباق الفول والمخلل وراحوا يتسامرون ، وعندما انتصف الليل قطع ابن بهانة الحوار وقال للشبان الذين معه :

ـ أنا ياولادى علشان اخلص ضميرى من ربنا عاوز أقولكم حاجة ، الشغلة اللى احنا فيها دى شغلة خطرة ، ومش ده الاتفاق اللى كنا متفقين عليه ، إحنا الأصول كنا نبقى فى فلسطين زى ما اتفقنا ، لكن اللى حصل إن احنا لقينا نفسنا فى الفيحاء ، ومطلوب مننا نخرب فى بلاد ناس عرب زينا ، ونقتل عالم من جنسنا .. وعاوز اقولكم حاجة كل واحد يشاور نفسه ويعمل اللى يرضيه ويرضى ربنا ، وأنا من جهتى مش راجع معاكم .

وتساءل الشبان فى صوت واحد :

ـ امال نويت على إيه ياعم عبدالوارث ..

ـ لحد دلوقتى منوتش على حاجة إلا على عدم الرجوع تانى ، لكن إيه بعد كده ربنا وحده اللى يعلم .

وتناقش الشبان فيما بينهم ، وكأنهم وجدوا أنفسهم فجأة غرقى فى عرض

البحر ، ثم سألهم ابن بهانة :
ـ انتو معاكم فلوس ؟
وضرب الشبان ايديهم فى جيوبهم وأخرجوا مامعهم من نقود ، كان مامعهم يكفيهم مدة أسبوعين وأكثر ، فقال لهم عبدالوارث :
ـ إن اتفقتم انكم ماترجعوش ماتمشوش مع بعض ، كل واحد يدبر حاله بنفسه ، كل واحد يشوف طريقة يرجع بيها على مصر ، ودى النصيحة الوحيدة اللى اقدر أقولها لكم ، وعلى رأى المثل : "من خرج من داره إتقل مقداره" ودلوقت بقى باستأذنكم وكل واحد يشوف حاله ، وخدوا بالكم ماتمشوش مع بعض .

وقطع عبدالوارث الميدان بسرعة ثم انحرف يميناً وغاب فى الظلام ، وبعد مشاورات استغرقت وقتاً بين الشبان الأربعة ، إتفقوا على أن يمضى كل اثنين منهم معا ، وغادروا المحل وذهب كل اثنين منهم فى اتجاه .

اتخذ عبدالوارث طريقه إلى جريدة الصباح التى تصدر فى الفيحاء ، وإلى حيث يقيم صديقه أبوعنتر ، وهو مصرى من الصعيد ويحرس جريدة الصباح وله حجرة بمنافعها عند بوابة الجريدة ، وكان ابن بهانة يتردد عليه فى الأيام الماضية عندما كان مقيما فى الفيحاء ، وهو رجل طيب وشهم ولم يتردد فى استضافة ابن بهانة هذه الليلة على الأقل . وابن بهانة ليس فى حاجة إلا ليوم أو اثنين لكى يتدبر امره ويفكر فى الخطوة التالية ، واستقبله ابو عنتر استقبالا حافلا ورحب به ترحيبا شديدا ، وسأله وهما يحتسيان اقداح الشاى الأسود المغلى :
ـ أنت هنا من مدة ؟
ـ اى والله بقالى كام يوم كده ..
ـ تعرف أنا شفت واحد زيك من حوالى اسبوع فى السوق بس قلت معقول وإيه اللى هايجيبه هنا .

ثم سكت فترة من الزمن قبل أن يعود ليسأله :
ـ لكن انت كيف دخلت البلد دى ، دا اللى يطردوه معدش يشم ريحتها حتى لو شاف قفاه .
وقضى عبدالوارث الليل بطوله يحكى مأساته لأبوعنتر .
واستمع ابوعنتر للقصة وهو لايصدق أذنه ، وقال أبوعنتر لصديقه :
ـ شوف اما اقولك يابن الناس ، انت تقدر تقعد عندى هنا من يوم لعشر

سنين ، وإن ماشلتكش الأرض أشيلك على راسى من فوق ، بس أنت لازم تخلص نفسك بسرعة علشان ده عالم شر وربنا يكفيك شرهم .

- يعنى أعمل ايه ؟
- مفيش قدامك حل غير السفارة .
- وأروح السفارة لمين وأنا معرفش حد هناك .

قال ابو عنتر فى حماس المسألة دى خليها علىّ أنا ، سعادة السفير بذات نفسه بييجى هنا ساعات ، والراجل بتاع الصحافة اللى فى السفارة كل يوم هنا ، ولما ييجى أحكيله على كل شىء وأخدك ونروح على هناك .

وارتاحت نفس ابن بهانة لهذا الحل ، وافترش الأرض ونام بعمق لأول مرة منذ مجيئه إلى الفيحاء ، وعندما استيقظ من النوم كانت الشمس تتوسط الأفق ، وكان ابوعنتر يجلس على مقعده على باب الحجرة يراقب الداخلين والخارجين ، وعندما شعر بأن عبدالوارث قد استيقظ من النوم دخل إلى الحجرة لاعداد الشاى لعبد الوارث ، ولكن عبد الوارث اقسم بانه هو الذى سيقوم بإعداد الشاى بنفسه وبالفعل اعد الشاى واكتشف ان الافطار جاهز ، بيض وفول وعسل أسود احضره ابوعنتر معه من الصعيد ، وأكل ابن بهانة وجلس على مقربة من تكييف الهواء فقد كان الجو حارا ورطبا وخانقا للأنفاس ، وطال بقاء ابن بهانة فى حجرة ابو عنتر عدة أيام قبل أن يظهر الملحق الصحفى المصرى قادما لزيارة رئيس التحرير ، واختلى أبو عنتر بالملحق الصحفى فترة من الوقت ، وتصور الرجل فى البداية أن أبوعنتر به مس من الجنون ، ولكن ابوعنتر أكد له أن الرجل بالداخل وأنه يريد لقاءه فى السفارة هذا المساء ، وتواعد معه على اللقاء فى السفارة فى الثامنة من مساء نفس اليوم ، وعندما وصل ابوعنتر ومعه ابن بهانة الى هناك فى الموعد المحدد ، لم يكن الملحق وحده فى المكتب ، ولكن كان معه السفير والقنصل وعدد آخر من المسئولين ، وجلسوا جميعا يستمعون الى قصة عبدالوارث وهم لايصدقون أنفسهم ، واتفقوا جميعا على أن يبقى عبدالوارث فى السفارة لايبرحها حتى يدبرون أمر سفره الى القاهرة ، كما طلب المجتمعون من القنصل ضرورة البحث عن الشبان المصريين الذين كانوا مع ابن بهانة فى هذه المهمة المريبة ، ومضت ايام كثيرة قبل ان تستخرج السفارة جواز سفر مصرى بدل فاقد لعبدالوارث ، وزيادة فى الحرص قرروا ان يكون سفرة الى القاهرة على طائرة تابعة لشركة الفيحاء ، وفى يوم السفر خرج عبدالوارث مع

الملحق الصحفي في سيارته التي تحمل ارقاما ديبلوماسية .. وحرص الملحق على أن يصحب عبدالوارث إلى داخل الطائرة . ثم عانقه بحرارة قبل ان يتركه في الطائرة ويعود الى أرض المطار ، والذي حرص على عدم مغادرته إلا بعد أن حلقت الطائرة في الفضاء البعيد في طريقها الى القاهرة . جلس عبدالوارث يحدق في الفضاء من خلال النافذة . وسرح بعيدا إلى أم هناء . ياهل ترى ماذا تفعل أم هناء في وحدتها الآن . وماالذي فعله يوسف معها في موضوع الفلوس ، إن يوسف لا يؤتمن على شيء ، وهو ذئب يرتدي ملابس بشرية .. ولكن .. قال إيه اللي رماك على المر ؟ قال : اللي امر منه .. والله يخرب بيتها البنت نعيمة بنت حنكوش هيه السبب في كل المصايب التي حطت على رأس ابن بهانة ، لولاها لما شرب عبدالوارث المر ، ولا سرح في البلاد كالمجنون ، ولكنها القسمة والنصيب ، واللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ، واغفى عبدالوارث ومال برأسه على زجاج النافذة ، وربما علا شخيره مما دفع بجاره في المقعد إلى ايقاظه ، ولكن عبدالوارث عاد إلى النوم من جديد ، وربما عاد إلى شخيره مرة أخرى ، مما دفع بجاره إلى ترك مكانه والجلوس في مقعد آخر بعيد ، وفرح عبدالوارث لهذه الخطوة من جانب جاره ، فاستولى على المقعد المجاور ، ونام على راحته وشعر بسعادة بالغة خصوصا أن مقعد طائرة الفيحاء أكبر وأكثر راحة من مقعد طائرة مصر .

ولكن أكل طائرة مصر أحسن لأنه محوج ومعمول بالتقلية المخلوطة بالبصل والثوم . وعندما ذهب عبدالوارث في نوبة نوم عميقة ، رأى نفسه في كفر الغناوة والتف حوله الناس ، وأحاطوا به من كل جانب ، ثم مضوا به في طرقات الكفر حتى وصلوا الى ترعة المشروع ، وعندما وصلوا به الى شجرة الجميز الضخمة التي كان يتسلقها وهو طفل ، لفوا حول رقبته حبلا وشنقوه على أحد فروعها العالية . وشعر عبدالوارث بجسده وهو يتأرجح مع الحبل ذات اليمين وذات اليسار ، وخاف ان ينقطع به الحبل ويسقط في ترعة المشروع التي كاد ان يغرق في أعماقها ذات مرة وهو طفل ، ومنذ تلك اللحظة وبدنه يرتعش كله عندما يمر بها أو يقع بصره عليها ، وافاق عبدالوارث فإذا بالطائرة يتلاعب بها الريح كالريشة ، واكتشف ان المضيفة تقف عند رأسه وتطالبه بإعادة المقعد إلى وضعه الطبيعي وشد حزام الأمان حول وسطه .

ياليله سوخة .. يبدو أن الطائرة وقعت في مأزق ، وهي بالتأكيد لن تحتمل هذا الرقع والهبد ، وتصبح مصيبة لو سقطت الطائرة الآن وضاع جسده في هذه الصحراء المميتة التي تحلق فوقها الطائرة الآن ، وشعر عبدالوارث بالحزن لأن جاره في المقعد ترك مكانه ، ولو كان موجودا الآن بجواره ، لتمكن من

مسامرته وتبادل الحديث معه . وألقى عبدالوارث نظرة على الساعة وشعر بأن الزمن لايجرى ، فمد يده وتناول الصحيفة التى فى جيب المقعد ، وراح يقرأ فى تكاسل بينما الطائرة تهتز بعنف وسط نتف من السحاب .

فى الوقت الذى كان يبدو فيه الهدوء على يوسف ، كان يرسم بينه وبين نفسه خطة للهرب من القادسية ، الخطة بسيطة وسهلة . يذهب فى فسحة إلى الشمال ويتسلل منه إلى تركيا والأرض هناك براح والحدود سداح مداح كما ذكر له الذين ذهبوا الى هناك ، وهناك يسلم نفسه إلى الشرطة التركية ويطلب ترحيله إلى مصر ، البعض أكد له أن عقوبة التسلل إلى الحدود التركية هى أسبوع فى السجن ، وأسبوع يهون ، خصوصا والسجن فى تركيا لابد ان يكون أفضل من السجن فى القادسية ، قد يكون شبيها بالسجن فى مصر ، ولكن لأنه تركى فسيكون افضل بالطبع ! وسيبدأ يوسف مشواره إلى الشمال عندما يقبض الدفعة الثانية من أم هناء ، ولكن حطم مشروع يوسف حادث لم يكن فى الحسبان . هبط عليه أحدهم كالقضاء المستعجل ، وبعد أن شرب الشاى قال ليوسف :

ـ معلوماتنا ان الست أم هناء سترسل فى طلبك غدا أو بعد غد لتسليمك الفلوس المراد تهريبها .

وهتف يوسف فى سذاجة :

ـ وعرفتوا منين ؟

وصرخ الرجل فى وجهه :

ـ مالك شغل انت ، نعرف منين مانعرف منين هذا شغلنا إحنا ، ومرة ثانية ماتسأل ، أنا اللى أسأل بس .

ورد يوسف فى ذلة :

ـ أنا خدام سعادتك ..

وواصل الرجل حديثه قائلاً :

ـ عند استلامك الفلوس ماترجع القهوة ، تروح طوالى على المكتب عندنا .. مفهوم ..

وقال يوسف وهو يخرج صوته بصعوبة :

ـ أنا تحت أمرك ياسعادة البيه ..

ونهض الرجل على الفور وغادر القهوة دون أن يدفع ثمن الشاى ، وجلس يوسف بعض الوقت على مقعده وجسده كله يرتعد ، مع أن الحر شديد والجو

خانق ، كيف يعرفون الأخبار هؤلاء الناس ، لابد أنهم نجحوا فى تركيب لاسلكى فى بيت أم هناء ، وهذا اللاسلكى ينقل لهم كل مايدور هناك .

ونهض يوسف مذعورا ودخل القهوة وراح يفتش فى كل ركن عن لاسلكى يمكن أن يكونوا قد زرعوه داخل القهوة . وتوقف يوسف عند أحد الأركان عندما شاهد سلكاً خارجاً من الحائط أسفل الجدار ، وقد حجبه أحد المقاعد .. ياولاد الكلاب .. صدق ظنك يايوسف ، وهاهو اللاسلكى الذى زرعوه فى القهوة .. ولكن على مين ، إذا كانوا هم شطار فنحن أشطر ، ولاشىء يخيل على يوسف ، وهو قادر على أن يفهمها وهى طايرة .. وانحنى يوسف ومد يده وجذب السلك وإذا به يصرخ صرخة رهيبة ترنح بعدها على الأرض ، إنه سلك كهرباء مكشوف . وعندما نهض من على الأرض وقد أمسك يده الملسوعة ، صرخ فى عمال القهوة لاعناً خاش أبو الجميع ، ثم عاد إلى مقعده من جديد . وبعد أن شرب الشاى وهدأت نفسه قليلاً ضرب جبهته براحة يده .. ياقوة الله ، كيف لم تفهمها يايوسف وهى واضحة حتى للأعمى . يخرب بيتك ياسعاد .. لا أحد يبلغهم بكل شىء إلا هذه البنت المزروعة فى بيت أم هناء .

ما أغباك يايوسف لأنك لم تفهمها إلا الآن .

.. وهذا الأمر ليس بمستبعد على من كان مثلها ، فهى من معارف ابن بهانة ، وابن بهانة لايعرف إلا الصنف الوقيع مثله ، فالطيور على أشكالها تقع ، وابن بهانة مجرد غراب نوحى لا يجلب معه إلا الشؤم والشر ، وهى طبعا مثله .. هذه البنت المفعوصة ستكون سبب خراب بيت أم هناء .. ومن يدرى .. ربما تكون سبباً فى خراب بيت يوسف أيضا .

عندما استدعته أم هناء إلى منزلها فى صباح اليوم التالى ، ذهب يوسف على عجل ، وجلس أمام أم هناء ، ولكنه لم يحول بصره لحظة عن وجه سعاد ، الأكادة أنها تجلس هادئة وكأنها لاترتكب كل يوم جريمة فى حق الآخرين . وسألته أم هناء فى البداية عما إذا كان لديه أخبار عن ابن بهانة ، فرد باقتضاب خائفا :

ـ الغايب حجته معاه ياست أم هناء .

وقالت أم هناء :

ـ عندك حق .

ثم قامت وغابت قليلاً فى الغرفة الأخرى ، وانتهز يوسف الفرصة ، فسأل

سعاد بطريقة تحمل أكثر من معنى :
ـ إزيك ياست سعاد ؟
وردت سعاد : الحمد لله
وعاد يسألها من جديد :
ـ مبسوطة دلوقتى ومرتاحة ؟
وقالت سعاد :
ـ الحمد لله ..

وختم يوسف الحوار قائلاً بنفس اللهجة :
ـ الواحد يحمد ربنا على كل حاجة .
أخيرا جاءت أم هناء ، ووضعت الدولارات فى يد يوسف . وطلبت منه أن يتأكد من عددها ، ولكن يوسف ضرب الفلوس فى جيبه قائلاً لها :
ـ الدار أمان يا أم هناء .

ثم استأذن وخرج ، ولم يذهب إلى القهوة كما اتفق مع الرجل الذى زاره بالأمس ، أخذ طريقه إلى الضابط على الفور ، فهذه الحركة من جانبه ستسهل عليه الأمر عندما يشرع فى الهرب ، وعندما جلس أمام الضابط وسلمه الفلوس ، استدعى أحد مساعديه وأمره بأن يرسل قوة للقبض على أم هناء وسعاد وإحضارهما على الفور ، ثم أمره بأن يجر يوسف من قفاه وأن يلقى به في غرفة الحجز .. واختلطت صرخات يوسف وصوت الأيدى التى راحت تصفعه على وجهه وعلى قفاه .

الرقص على البارود

اهتزت الطائرة بشدة فأنخلع قلب عبدالوارث وتصور أنها النهاية هكذا كانت حياته دائما ، عندما كان يتصور انه نجا تأتى المهالك ، وأغمض عبدالوارث عينيه وراح يقرأ الفاتحة ، وسمع وهو مغمض العينين صوتا يقول : الزموا الهدوء جميعا ، لن يصيبكم اى شر إذا التزمتم الهدوء ونفذتم الاوامر ، وابتسم عبدالوارث لهذا الكلام الفارغ ، فمن الذى يعصى الاوامر فى جو عاصف مثل هذا ، وفى موقف حرج لا نجاة منه إلا بالله ، وعندما فتح عينيه اكتشف ان الذى يصدر التعليمات ليست الست المضيفة ، ولكنه رجل ملثم وبذقن تتدلى من تحت اللثام على صدره ، وقد حمل على كتفه مدفع كلاشنكوف روسى الصنع يعرفه هو جيدا ، فقد قاتل به ضد اليهود ، واندهش عبدالوارث لتقاليع شركات الطيران ، كانت فى البداية تستخدم مضيفات جميلات ، والآن تستخدم رجال بذقون اشبه بهؤلاء الرجال الذين كانوا يصعدون الاتوبيسات فى القاهرة ، ويطلبون من الركاب التبرع لمشروع جامع نفق شبرا ، عندما وصل الرجل الملثم المسلح الى المقعد الذى يجلس فيه عبدالوارث سأله ان يسلم باسبوره وكل الاوراق التى معه ، وابتسم عبدالوارث وقال للرجل المسلح :

- طب يا اخى مش تقول سلامو عليكو الاول .

وطار صواب عبدالوارث عندما ضربه الرجل المسلح بكعب المدفع ضربة قاسية على دماغه ، وصرخ عبدالوارث فى وجه الرجل المسلح :

- إيه الافترا بتاعكم ده .

- انت هنا ما تتكلمش ، اقولك امر تنفذه وبس .

والتزم عبدالوارث الصمت وسلم الرجل المسلح جواز سفره واوراقه

وجلس مكانه بينما عيناه تتجولان فى انحاء الطائرة ، عندما انتهى الرجل المسلح من جمع جوازات السفر والاوراق من الركاب وقف عند مقدمة الطائرة ووقف بجانبه مسلح آخر وقال يخاطب الركاب :

ـ نحن لا نقصدكم وانتم معنا فى أمان طالما تلتزمون الهدوء وتطيعون الاوامر ، ونحن خطفنا الطائرة لكى نسمع العالم رأينا ونشرح لهم القضية .

اخترقت كلمة القضية رأس عبدالوارث واستقرت فى مخه ، القضية تانى ، لقد هرب من بتوع القضية فى الفيحاء ليقع فى قبضتهم وهو معلق فى الفضاء بين السماء والارض ، ولكن الحمد لله على كل حال ، مادام هؤلاء الناس خدام القضية فسيسهل عليه التفاهم معهم ، وقد يشترك معهم فى خدمة القضية ، وانتزع عبدالوارث من شروده صرخة انبعثت من إحدى السيدات تجلس خلف عبدالوارث ، وفاجأت الصرخة الرجل المسلح فصوب مدفعه نحو الركاب ، وارتعشت يداه بعصبية شديدة وصرخ بعنف :

ـ قلنا لكم ألزموا الهدوء .. مفهوم .. لو صرخ احدكم مرة أخرى فسأطلق النار على الفور .

وهب عبدالوارث واقفا قائلا للركاب :

ـ ياجماعة مفيش حاجة إن شاء الله ، المهم انكم تسمعوا الكلام وبس ، واللى يقولوا عليه الجماعة تنفذوه .

ونظر المسلح بدهشة الى عبدالوارث وقال له بإشمئزاز :

ـ مين اللى قالك تقف تتكلم ؟

وقال عبدالوارث وهو لايزال واقفا :

ـ انا راجل ابن بلد وجيت اخدم ، ثم انا معاكم برضه .

ـ معانا فين مش فاهم .

ـ معاكم فى القضية وانا اشتغلت مع ابو ياسر وابو فادى .. ثم انا محسوبك ابو لحاف .

وامره الرجل المسلح بأن يترك مكانه ويتقدم نحوه ، واسرع عبدالوارث بتنفيذ الامر ، عندئذ ، وضع المسلح فوهة المدفع فى صدر عبدالوارث وامره بأن يتقدم الى الامام ، واكتشف عبدالوارث ان المسلح لم يكن وحده ، ولكن كان معه حفنة من زملائه كل منهم مسلح بمدفع رشاش ، وسلمه الرجل المسلح لرجل آخر كان يعلق مدفعه على كتفه ويرتدى نظارة سوداء وله لحية طويلة ويبدو من هيئة تصرفاته انه قائد المجموعة ، واعاد المسلح على القائد نص العبارات التى سمعها من عبدالوارث ، فسأله القائد :

ـ كنت بتشتغل مع مين ؟

ـ انا كنت مع ابو ياسر وابو فادى ، واشتغلت معاهم فى القادسية وفى الفيحاء .

ـ هل عشت طويلا فى القادسية ؟

ـ نعم ، وكنت اعمل تحت قيادة ابو ياسر .

ـ هل هناك مصريون آخرون مثلك ؟

ـ ناس ياما .. ماتعدش ..

اشار القائد برأسه لاحد معاونيه فسحب عبدالوارث من قفاه وعصب عينيه وقيد يديه خلف ظهره ، وألقى به فى احد اركان الطائرة ، ولم يفهم عبدالوارث سر هذا السلوك المعادى من جانب انصار القضية ، قطعا سيفرجون عنه ويعتذرون له عندما يتصل بهم ابو ياسر ، ولكن هل يغفر له ابو ياسر خروجه من المهمة التى كان عليه أن يقوم بها فى الفيحاء ؟ لاشك أن ابو ياسر من الرجال الذين يفهمون ويعذرون ، وهو على عكس هؤلاء الذين يسيطرون على الطائرة ، انهم اجلاف مثل ضابط الامن فى مطار القادسية ، وهى على كل حال شدة وتزول ياعبدالوارث ، وستزول متاعبك كلها عندما تصل الطائرة الى مطار القاهرة ، لم يدرك عبدالوارث كم من الوقت مضى قبل أن تبدأ الطائرة فى الهبوط ، وعندما هبطت لم يحدث شىء يدل على انها هبطت . ولكن عبدالوارث سمع صراخ اطفال ونحيب نساء ، ثم سمع صراخا من جانب اصحاب القضية ، وعندما ادرك ان بعضهم يقف بالقرب منه صاح طالبا بعض الماء ، ولكن جاءه الرد الحازم بالتزام الهدوء وعدم الصياح ، كما انه لايوجد فى الطائرة ماء ولا طعام ، ومرت ساعات طويلة وعبدالوارث قابع مكانه فى ركن الطائرة والعطش يكاد يقتله ، ثم شعر بحركة اهتزاز ثم بدأت الطائرة فى التحرك وبعد فترة اخذت فى التحليق ، ولم يعرف عبدالوارث ماالذى جعلها تهبط وما الذى جعلها ترتفع ، وجاء احدهم بكوب ماء لعبدالوارث ، ثم جاءوا له بسندويتش ، سندويتش ياولاد الكلب بعد كل هذا الوقت الطويل ، لو فقط يرفعون العصابة التى على عينيه ، انه الآن فى حال اسوأ من الحال الذى كان عليه فى السجن ، على الأقل كان بصره حرا وهو رهين الحبس ، ولكن بصره الآن معتقل وهو يركب الطائرة ، لو يعرف من يكون هؤلاء الناس ؟ يقولون انهم مع القضية .. طيب لو كانوا حقا مع القضية كيف لم يعرفوه عندما ذكر لهم انه ابو لحاف ، ترى هل هناك اكثر من قضية ؟ ستكون مصيبتك كبيرة ياعبدالوارث إذا ثبت أن هناك أكثر من قضية ، وكل

قضية ولها رجال ، شعر عبدالوارث بالراحة عندما بدأت الطائرة تهبط ، وشعر بسعادة اكبر عندما هبطت بالفعل ، فهى لابد الآن فى القاهرة أو على اسوأ الفروض فى القادسية ، المهم انه سينجو من اسر هؤلاء ، وسيرفعون العصابة من فوق عينيه ، ولكن تكرر فى المطار الذى هبطوا فيه نفس الاشياء التى حدثت فى المطار الاول ، صراخ اطفال ونحيب نساء ومناقشات حادة دارت بين اصحاب القضية وآخرين ، وطلب عبدالوارث بعض الماء ولكنهم زجروه لانه لا وقت لديهم لمثل هذه الاعمال ، وأخيرا بدأ الفرج ، نزلت ناس من الطائرة ، ثم عادت الطائرة الى التحرك ثم الاقلاع ، وشعر عبدالوارث بأنه يكاد يموت من شدة التعب والجوع ، الله يخرب بيوتكم يابتوع القضية ، وماذا تستفيد القضية من هبوط الطائرة وصعودها ، شعر عبدالوارث بأن الهدوء يسود الطائرة ، والحركة فى داخلها صارت اقل ، وفجأة جاءه احدهم بكوب ماء بعد أن شعر بأن روحه اصبحت على شفتيه ، وراح عبدالوارث يرتشف الماء قطرة قطرة وعندما انتهى من شرب الكوب قال للرجل الذى جاء به له :

- اشمعنى أنا مقيدنى ورابطين عيونى .. انا عملت حاجة غلط لا سمح الله .

- انت تحمد ربك اننا ماقتلناك .
- تقتلونى .. ليه عملت آيه ؟
- ما تعرف عملت آيه ؟
- إذا كنت غلطت فيكم حقكم علىَّ !
- انت مش كنت عايش فى القادسية ؟
- أيوه وأنا قلتلكم ، وقلتلكم كنت باشتغل مع ابو ياسر .
- لو ابو ياسر يقع فى ايدينا نشرب من دمه .
- ليه كفالله الشر ، دا الرجل معاكم فى القضية .
- قضية ، هذا كلب عميل استعمار ، ذنب من آذناب الفاشية .
- طب إزاى بقى وهوه فى القضية وأنتو فى القضية .
- مين اللى قالك أنه فى القضية .
- هوه بذات نفسه .
- هو خاسر وقضيته خاسرة .
- طيب وأنا ذنبى إيه بس ، أنا راجل فى القضية .
- أية قضية تقصد .

- أنا خدام أي قضية ، وأنا حاربت علشان القضية فى فلسطين زمان ضد اليهود .

- ولما أنت راجل وطنى وحاربت في فلسطين ، ايه اللى خلاك رحت مع أبو ياسر .

- هو أنا اللى رحت ، أنا رحت أشتغل فى القادسية قالوا لى اشتغل فى القضية فاشتغلت ، واللى خلقك ما عرف أيه هى القضية ولا أعرف عنها أى حاجة .

- على العموم أنا هاكلم قائد المجموعة علشان يفك عيونك ويفك قيودك .

- روح إلهى لا يسيئك يا شيخ ، بس مافيش عندكم سندويتش .

- أبشر .

عادت الطائرة إلى الهبوط من جديد ، ونزل منها بعض الناس وصعد إليها آخرون ، وسمع عبدالوارث صوتا ينادى من خلال مكبر صوت يطلب من مجموعة الخاطفين أن يطلقوا سراح الركاب ، ثم ساد الصمت من جديد ومرت ساعات طويلة قبل أن تعود الطائرة إلى التحليق فى الجو ، وشعر عبدالوارث بالإرهاق الشديد فاستسلم للنوم على أرضية الطائرة ، وراح يحلم أحلاما مزعجة ، واستيقظ أكثر من مرة ، ولكنه لم يستطع النهوض وكان يعود إلى النوم من جديد ، ولكن يدا غليظة هزته بشدة فاستيقظ على الفور ، كانت اليد التى هزته بشدة هى يد الرجل الذى جاءه بالسندويتش وكوب الماء ، وبسرعة شديدة فك الرجل العصابة من فوق عينيه وفك قيود يديه ، وقضى عبدالوارث فترة يحاول أن يكتشف ماحوله دون جدوى ، ولكن بصره ارتد إليه بعد فترة ، وعندما ألقى نظرة على الطائرة وجد عشرات من الرجال يجلسون جنبا إلى جنب على المقاعد الخلفية وفى الأمام لم يكن أحد موجود إلا خاطفو الطائرة ، ولكنه لم يجد امرأة ولا طفلا بالطائرة ، وحاول القاء نظرة على خارج الطائرة ، ولكنه اكتشف أن جميع الستائر مسدلة فلم يستطع أن يتبين هل الوقت ليلاً أم نهارا ، وفجأة جاء إلى الطائرة أحد الناس ، واختلى فى ركن الطائرة مع قائد المجموعة ثم غادر الرجل الطائرة واختفى عن الأنظار ، ومر وقت طويل قبل أن يرتفع صوت من خلال مكبر الصوت يقول .. ابعثوا بمندوبكم .. ومرت لحظات قبل أن يقترب قائد المجموعة من عبد الوارث ويقول له فى لهجة آمرة :

- أنت باين عليك راجل طيب ووطنى شريف ، علشان كده اخترناك هتكون مندوبنا للتفاوض مع السلطات بالمطار .

ورد عبدالوارث مبتهجا :

- أنا خدامك وخدام القضية .

قال قائد المجموعة :

ـ سنتفاوض معهم على أساس الإفراج عن عشرة من الركاب مقابل تزويدنا بالماء والطعام وتزويد الطائرة بالوقود .

ورد عبدالوارث على الفور :

ـ بنزين يعنى ؟

ـ أيوه .

ـ طيب وإن طلبوا فلوس .

ـ ماحدش ها يطلب منك حاجة يا أهبل أنت .

ـ أنا بس باستفهم .

ومد القائد يده نحو عبدالوارث بورقة وقال له :

ـ هذا هو نص البيان الذى نريد إذاعته على العالم لكى يتعرف على قضيتنا ويتعاطف معها ولابد من إذاعة البيان فى الحال وسنستمع إليه من الراديو الترانزستور الذى معنا ، وإذا لم يتم إذاعة البيان خلال ساعة سنقتل خمسة من الركاب .

ـ طيب صلى على النبى وخليك حليم .

وزعق القائد فى وجه عبدالوارث وقال له فى حزم :

ـ نفذ ما قلته لك بالحرف الواحد وإلا سأضع رصاصة فى رأسك .

ـ وليه بس خلى قلبك أبيض وأنا هانفذ لك كل حاجة .

وأشار قائد المجموعة لعبدالوارث بالانصراف خارج الطائرة وسلمه علما وأوصاه بأن يرفع العلم فوق رأسه وأن يعطيهم شروطه ولا يساوم أو يتنازل عن شىء .

تنفس عبدالوارث الصعداء وهو يغادر الطائرة واستنشق الهواء الطلق بعمق حتى ملأ رئتيه ورفع العلم فوق رأسه كما أوصاه قائد المجموعة وراح يقطع أرض المطار إلى المبنى الذى ينتظره فيه الآخرون بخطوات شبه عسكرية ، وقد أراد أن يضفى الاحترام على مظهره رغم التعب والارهاق ، كانت المسافة بعيدة بين الطائرة ومبنى المطار . لقد شاء الحظ العاثر أن يخدم القضية أكثر من مرة فى ظروف تعيسة ، ولكنه بالرغم من ذلك لم ينجح فى معرفة القضية أو فهمها ولكن لاشك فى أن هناك قضية تشغل الكثير من الناس وتؤرقهم ، ولاشك أنها قضية كبيرة لأن الكثير من الناس يعانون من أجلها وبعضهم يموتون فى سبيلها . وتمنى عبدالوارث لو انشقت الأرض وابتلعت الطائرة وما فيها والمطار كله وما فيه ، ولو معجزة من السماء تقذف بعبدالوارث من مكانه هنا إلى كفر الغناوة ، وندر عليك يا عبدالوارث لا تغادر

حدود الكفر إلى أى مكان ويكفيك حصيرة على شاطىء الترعة وقلة مياه وكسرة خبز وحتة جبنة ، ملعون أبو الذى أغراه بالسفر وعشمه بالمجد والثروة ، كان عبدالوارث قد اقترب من مبنى المطار ، وكان هناك ثلاثة يبدو أنهم من كبار المسئولين يقفون جنبا إلى جنب وحولهم عدد من الشبان المسلحين تسليحا جيدا ، يبدو من هيئتهم أنهم من البوليس السرى ، عندما وقع بصر عبدالوارث على الهيئة التى تنتظره حث الخطى وشد من قامته ورفع العلم فوق رأسه وشعر بأن أنفه مسدود فوضع يده فى جيبه ليخرج المنديل ، ولكن انطلق الرصاص فجأة ليخترق صدر عبدالوارث ، لقد ظن الحرس أن عبدالوارث يحاول إخراج قنبلة من جيبه فعاجلوه بإطلاق النار وسقط عبدالوارث على الأرض مضرجا بدمائه ، وجرى الحرس نحوه وأحاطوا به ، وبعضهم سدد فوهة مدفعه نحو رأسه ، وبعضهم انحنى لتفتيشه ، وأحدهم انتزع الورقة التى بين أصابعه ، وأصابتهم الدهشة عندما لم يعثروا معه على شىء ، لا أسلحة ولا قنابل ، كان عبدالوارث منبطحا على ظهره وعيناه مصوبتان إلى السماء ، ما الذى جرى لكى يلقى هذه النهاية ، ولماذا خدعه الجميع ، أصحاب القضية الذين أرسلوه مندوبا عنهم وهم يعلمون أنهم يبعثون به إلى حتفه والذين تظاهروا أنه فى انتظاره ثم أطلقوا عليه النار بلا جريرة ، ولكنها أسباب لكى ينفذ قضاء الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، وماهو مكتوب على الجبين لازم تراه العين ، والقضية ستأكل من الرجال حتى تشبع ، وستشرب من دمهم حتى ترتوى ، ولكن لو يعرف فقط ما هى القضية ، لقد فات الأوان الآن ، وشعر عبدالوارث بأن قواه قد خارت تماما ، وأن نبضه أصبح ضعيفا للغاية وحشرجة الموت تطبق على عنقه وعلى صدره ، واستمع وهو بين الحياة والموت إلى رصاص كثيف داخل الطائرة ، وأراد عبدالوارث أن يلوى عنقه ليلقى نظرة أخيرة على الطائرة ولكنه لم يستطع ، لقد صار جسمه باردا كالثلج ولم يعد يبصر شيئا حتى أنفاسه توقفت ، لقد مات عبدالوارث بن بهانة شهيد القضية التى لم يعرف عنها شيئا على الإطلاق .

● ● ●

بعد يوم واحد من دفن عبدالوارث فى قبر مجهول فى البلد الذى حطت فيه الطائرة آخر مرة ، كانت نعيمة أو نعنع المصرية ترقص أمام مجموعة من السكارى ، وكان النهر يتهادى وأمواجه تلطم برفق جدران الملهى الذى ترقص فيه نعنع ، عندما عوت فى الجو صفارات الإنذار تعلن وقوع غارة جوية على القادسية وأطفئت الأنوار على عجل وأشعلوا الشموع ، ونزلت نعنع من فوق المسرح وراحت ترقص بين الموائد واستطاعت أن تلمح باصى جالسا على مائدة فى ركن بعيد وهو فى حالة سكر شديدة ، وعندما اقتربت منه وقف باصى وعلى شفتيه ابتسامة صفراء باهتة وحاول أن يتكلم معها

ولكنها رمقته بإزدراء ومضت بعيدا عن باصى ، ثم صعدت على المسرح واختفت لحظات بين الكواليس ثم عادت فى ثوب آخر برتقالى اللون وشفاف يكشف عن مفاتنها ، وراحت ترقص كما لم ترقص من قبل ، وكأنها كانت

ترقص لنفسها ولا ترقص للسكارى الذين ملأوا الصالة فى تلك الليلة ، واشتدت الغارات الجوية كما لم يحدث من قبل ، وراحت الطائرات المغيرة تقصف المدينة بشكل عشوائى ، بينما المدافع المضادة للطائرات تتصاعد فى الجو وتتناثر حطامها على كل ركن فى المدينة ، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما نزلت نعيمة مرة أخرى من فوق المسرح ، وراحت تتلوى بين مقاعد المتفرجين الذين وقفوا يصفقون لها بحرارة وجنون ، وعلى أنغام الموسيقى وعلى ضوء الشموع راحت نعيمة ترقص وتتلوى وتصعد فوق الموائد وتداعب الحاضرين ، حتى وجدت نفسها أخيرا أمام باصى ، كان مخمورا لا يقوى على الوقوف عيناه المتورمتان أضافت إلى بشاعته بشاعة جديدة ، وعندما وقع بصره على نعيمة فتح فمه عن ابتسامة بلهاء ، كشفت ابتسامته العريضة عن أسنانه المتهالكة التى أسودت بفعل الدخان ، كانت

رائحة باصى لا تطاق ، اختلط دخان السجائر بعرقه برائحة الخمور الرخيصة الذى يشربها ، وتحامل على نفسه وراح يرقص معها بشكل منفر ، وعندما وجد نفسه بالقرب منها حاول احتضانها ولكنها صدته بقسوة ، فزاد هياجه وهجم عليها واحتضنها بقوة وراحت يده القذرة تعبث فى صدرها وأظافره التى تشبه أظافر كلب ضال تغوص فى لحمها ، ونكأت سفالة باصى كل جراح نعيمة ، هذا الباصى هو رمز ضياعها وهادم عشها ، وهو الذى كان وراء اختفاء عاصم ، وهو السبب فى فرار ابن بهانة ، وهو بالتأكيد وراء كل المآسى التى حدثت لها وللآخرين ، كان باصى يحاول أن يضمها إليه بقوة ، بينما تعالت صيحات الاستنكار من الحاضرين ، ولكن باصى الذى كان قد فقد الوعى تماما ، واستبدت به النشوة إلى الحد الذى لم يعد يدرك فيه أين هو على وجه التحديد ، واصل محاولاته لتقبيل نعيمة ، وعند وضع شفتيه على شفتيها ، شعرت نعيمة بالقرف وأحست كأنها تشرب من مستنقع آسن

وكريه الرائحة كانت الموسيقى لاتزال تدندن بألحانها الشرقية ، والشموع أغلبها انطفأت وبعضها لايزال يبعث بنوره الباهت فى أنحاء الصالة عندما رفعت نعيمة يدها إلى أعلى وبين أصابعها سكين ذو نصل حاد ووضعته بين ضلوع باصى ليصل إلى القلب مباشرة وأحست نعيمة بدماء باصى تلطخ ثيابها الشفافة وتصل إلى جسدها ، فشعرت بدفء وسرت نشوة شديدة فى جسدها ، وشعرت كأنها تكاد تطير من الفرحة عندما تهاوى جسد باصى على الأرض وهو يشهق شهقات الموت الأخيرة ، وانسحبت نعيمة وقد تلوثت ثيابها

وتلوث جسمها بدم باصى الكريه وراحت ترقص على طلقات المدافع وأزيز الطائرات ، ثم ترنحت وسقطت على الأرض وشعرت لأول مرة منذ جاءت إلى القادسية بالهدوء والراحة ، وخلت الصالة تماما من روادها ، ولم يبق فيها إلا باصى المقتول ونعيمة التى انتقمت أخيرا لنفسها .

تمـــت

رقم الايداع ٨٩٩٥ / ١٩٩١
I · S · B ·N
977 - 07 - 0126 - 2



مطابع دار الهلال